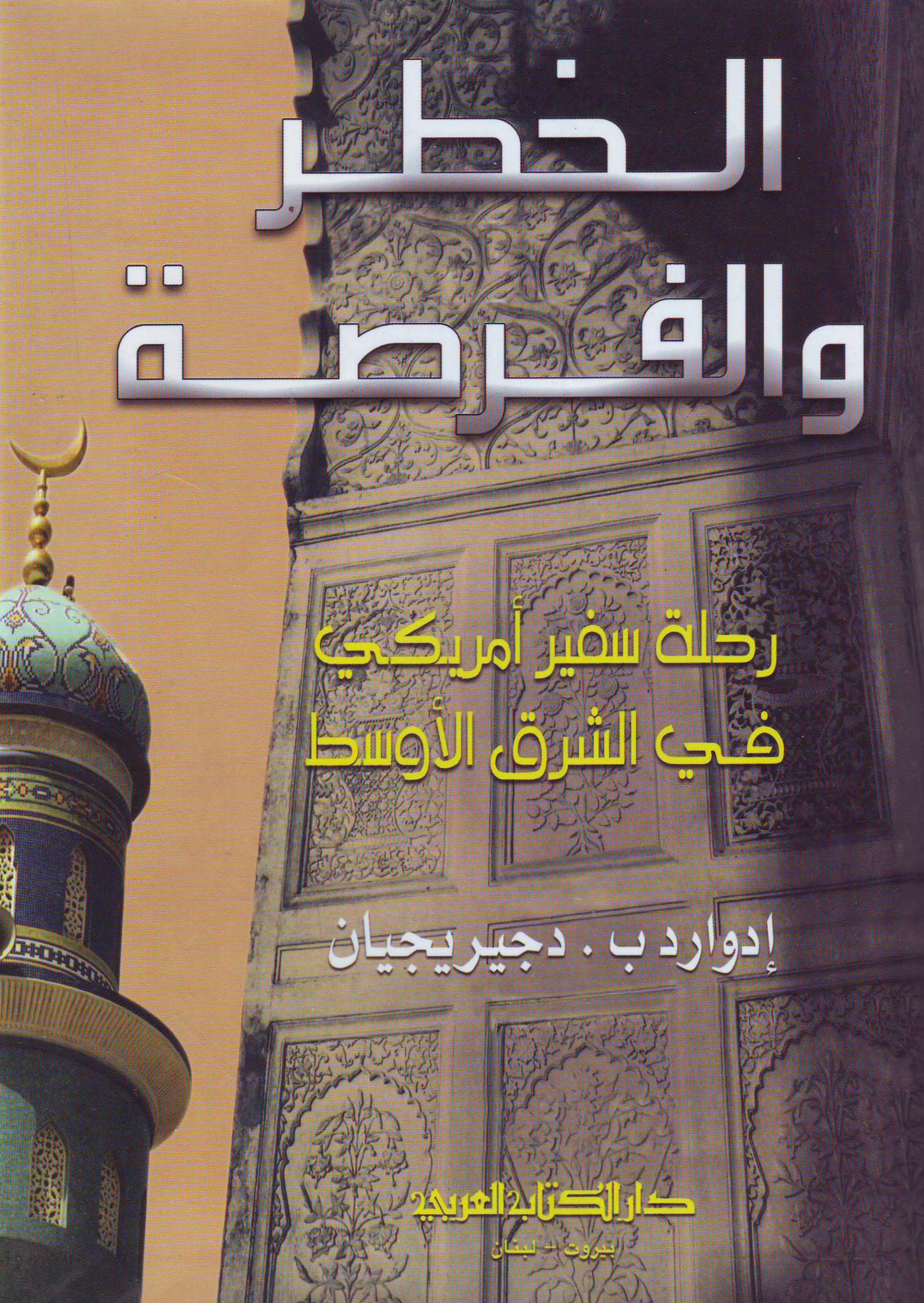

الخطر
والفرصة
رحلة سفير أمريكي
في الشرق الأوسط
إدوارد ب. دجيريجيان
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الخطر والفرصة

رحلة سفير أمريكي في الشرق الأوسط

إدوارد ب. دجيريجيان

ترجمة

د. السيد عليوه

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الخطر والفرصة

ISBN: 978-9953-27-848-3

Authorized Translation from the English Language Edition:

Danger and Opportunity

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص. ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 2200 1107 لبنان
Tel (+961 1) 800811-862905-861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

المحتويات

مقدمة المترجم

من مجرد النظر إلى عنوان هذا الكتاب "الخطر والفرصة" ندرك أنه يدور حول مفهوم " إدارة الأزمات " وهي ذات الحكمة الصينية الكامنة في هذا المفهوم كما قال المؤلف نفسه. والكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو نموذج مشوق للأدب الدبلوماسي والفكر السياسي العلمي في نفس الوقت الذي يكشف فيه بسلاسة محنة السياسة الأمريكية في المشرق العربي والإسلامي والتي واجهته لسنوات وسنوات طوال رحلته كسفير لبلاده في الشرق الأوسط.

ومن هنا قدّم لنا أجندة عامرة بهموم وقضايا المنطقة ورسم لنا بقلمه معالم حلم جديد في السلام والتنمية والازدهار، وعلى هذا النحو قدّم خطابًا مفتوحًا إلى الرئيس الأمريكي القادم الجديد إلى البيت الأبيض، ثم عالج قضايا الإسلام والديمقراطية والصراع العربي الإسرائيلي واستراتيجيات الطاقة والدبلوماسية العامة والتحديات التي تواجه الولايات المتحدة في منطقة قوس الأزمات. وكتب خواطره عبر رحلات مكوكية بين العواصم الهامة من بيروت إلى دمشق والقدس وبغداد، وهو في كل ذلك تفادى العروض التفصيلية عن التاريخ الطويل والمعقد لصراعات الشرق الأوسط وفضل التركيز على الأحداث الأخيرة نسبيًا والتي له بها معرفة وثيقة وعميقة.

وقد لمس السفير إدوارد ب. دجيريجيان، ذو الأصل الأرمني، كبد الحقيقة حيث أكد أن استمرار الصراع العربي الإسرائيلي وجعله مبررًا لتعطيل الإصلاحات السياسية والاقتصادية جعل الديمقراطية في العالم العربي في أيدي

قادة بالبنادق وأجهزة أمنية واستخباراتية وعسكريين... إن الديمقراطية في العالم العربي ـ كما قال رابين: " مثل انتظار المسيح". كما نبه المؤلف إلى التصنيف الخاطئ للصراع بين قوى التطرف وقوى الاعتدال في العالم العربي الإسلامي تحت ما يسمى "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، علمًا بأنها غير ذلك. فالهدف الاستراتيجي يجب أن ينحصر في تهميش المتطرفين سواء أكانوا علمانيين أو معتدلين والوقوف بجانب قوى الاعتدال داخل العالم العربي والإسلامي.

وفي إطار اهتمام المؤلف بالصراع العربي الإسرائيلي نادى بأن تتجه الجهود إلى حسم الصراع بدلاً من إدارته، وقد بدت بعض البوادر فيما صرح به أوفيدا يوسف من أن قدسية الحياة أفضل من قدسية الأرض. ملمحًا في ذلك إلى إمكانية الانسحاب من الجولان السورية.

وعن العلاقات السورية الإسرائيلية حاول الكاتب حصر أجندة المفاوضات السورية الأمريكية الإسرائيلية في الجولان والأمن والمياه والتطبيع والفلسطينيين في سوريا والحدود العراقية والأرصدة واللاجئين، وقد أورد المؤلف ملاحظة رائعة للرئيس بيل كلينتون مؤداها أن الأوروبيين بدلاً من خلق كيان بوسني متعدد الأعراق في قلب أوروبا كفرصة لبناء جسر تحقق به المساواة بين الأعراق أمام القانون ويكون حلقة وصل بالعالم الإسلامي كانوا ينظرون إلى البوسنة بمثابة تهديد إسلامي داخل القارة الأوروبية.

وكم كان الرئيس السوري حافظ الأسد لماحًا حين قال: "إن الأمريكيين يدفعوننا إلى المغازلة والعناق قبل حفل الزفاف"، قاصدًا حسم مسألة الانسحاب من الجولان أولاً.

ويتلخص الموقف فيما قاله أحد الجنرالات الأمريكيين من أن الولايات المتحدة كدولة وكشعب ومعظم أعضاء الحكومة الأمريكية لم يذهبوا إلى الحرب بل إن البنتاغون ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية هي المنشغلة بهذه الحرب بينما يعيش الباقون حياتهم اليومية العادية، ومن ثم فإن أمريكا

عجزت عن معرفة نفسها في هذا العالم، وفي تقديري أن إحساس الشعب الأمريكي في هذا الخصوص كان أكثر صدقًا وتعبيرًا في انصرافه عن هذه الحرب التي لا تخصه.

بالطبع لا يفوتنا أن ننوه بأحد أهم الدروس المستفادة من هذا الكتاب الجميل وهي أن التأليف المعاصر لم يعد عملاً فرديًا بحتًا بل إنه أصبح تقنية جماعية عالية المستوى ويكفي الإشارة إلى قيام المؤلف بشكر أكثر من خمس عشرة شخصية ومؤسسة تعاونت في إخراج هذا العمل إلى النور، وبالمثل يطيب لي أن أشكر الفريق الذي تعاون معي في الترجمة وتجهيز الكتاب وأخص بالذكر الدكتور علي السيد والدكتورة هدى راغب عوض، والباحثين محمد زكي، وأحمد جلال، وريهام محمد الذين كرسوا مشكورين جزءًا من وقتهم لهذا العمل الهام.

د. السيد عليوه

تمهيد

يتناول هذا الكتاب قصة دبلوماسي أمريكي خدم كل الرؤساء الديمقراطيين والجمهوريين خلال ثماني إدارات من جون كنيدي حتى وليم كلينتون. إنها مسيرة مهنية جديرة بخبرة انخراط في داخل الوطن وخارجه على مستويات مختلفة من الحكومة. وهذا ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب. وإني إذ أقدم لكم هذه الروايات والمواقف التي شاهدتها في حكايات حياتي كدبلوماسي، وكذا تأملاتي التي اكتسبتها من خلال تفاعل القوى اللاعبة في العالم العربي والإسلامي عبر منظوري حول عدم كفاية السياسات الحالية وغياب رؤية استراتيجيات تستجيب بفعالية للتحديات التاريخية الشائكة بفعل صراع الأفكار في العالم الإسلامي .

وفي السنوات الحاسمة عند نهاية الحرب الباردة التي اتسمت بسقوط الاتحاد السوفياتي ناقش البعض أن عصر صراع الأيديولوجيات قد انتهى وأننا نقترب من "نهاية التاريخ". في تسعينيات القرن العشرين بدأت الولايات المتحدة بتفكيك أدواتها في حملة الإقناع التي ساعدت على انهيار الستار الحديدي ومنحت قوى الاعتدال في العالم الشيوعي أدوات تساعدهم على تغيير حكوماتهم. وقد أدرك الدبلوماسيون المحترفون وصانعو القرارات أن فكرة نهاية التاريخ كانت خطأ، ولكن تقديراتهم حول العالم الإسلامي ونصائحهم للقادة السياسيين لم تكن مسموعة ولذلك لم تؤد إلى سياسات معلومة وفعالة تتأقلم مع العواصف التي كانت تتلبّد في الأفق.

إن خدمتي للحكومة لنحو أكثر من ثلاثة عقود زوّدتني بمعرفة مهنية شخصية وعميقة لثقافة وسياسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، ووفرت لي اتصالات مكثفة بشعوب المنطقة. إن معطيات الإعلام الخطأ والدعاية التي أحاطت كثيرًا بالخطابات العامة حول هذه القضايا أملت الحاجة إلى رؤية داخلية عميقة في تشكيل السياسات من زاوية كل من القادة الإقليميين والمؤسسة السياسية في واشنطن.

لقد بدأت خدمتي في السلك الدبلوماسي خلال إدارة كنيدي كمساعد خاص لوكيل وزارة الخارجية جورج بال. ثم مساعدًا تنفيذيًا لوكيل الخارجية جوزيف سيسكو فيما بعد حينما كان هنري كيسنجر وزيرًا للخارجية. وكانت أولى مهامي في الخارجية سكرتيرًا في القسم السياسي في السفارة الأمريكية في بيروت - لبنان، التي خدمت فيها منذ عام 1965 إلى عام 1969. وهناك التقيت بزعيم شيعي مشهور يتميز بقوة الشخصية هو الإمام موسى الصدر الذي كان له تأثير كبير على التطور السياسي للشيعة في لبنان، وقد أقنعني بالحاجة إلى دبلوماسيين قادرين على الاتصال بالقادة الدينيين والإسلاميين في المنطقة.

وبعد نحو عقد من السنين، بعد مهام في مراكش وواشنطن العاصمة وفرنسا وألمانيا خدمت في موسكو لثلاث سنوات (1979 ـ 1981) كمستشار سياسي عن القسم السياسي في السفارة خلال السنوات الحرجة للغزو السوفياتي لأفغانستان. وقد أكسبتني هذه تأملات هامة عن دور الاتحاد السوفياتي في تشكيل الشرق الأوسط الحديث. ومن موسكو تم تعييني في الأردن كنائب لرئيس البعثة الأمريكية في السفارة بعمان. وبالإضافة إلى خدمتي في الخارجية حصلت على خبرة على مستوى الدبلوماسية العامة في البيت الأبيض كمساعد خاص للرئيس ريغان ونائبًا للسكرتير الصحفي للشؤون الخارجية بين العامين (1985 ـ 1986).

وفي العام 1988 عُينت سفيرًا للولايات المتحدة لدى سوريا حتى العام 1991 ولقد سجلت علاقاتي مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد رقمًا قياسيًا لأهمية انغماس الولايات المتحدة بكفاءة مع خصومها.

كما أني لعبت دور مساعد لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى (أعلى منصب في الوزارة معني بالمنطقة في إدارة كل من بوش الأب وكلينتون). وكنت المساعد الإقليمي حتّى خلال إدارة كلينتون الأولى للمحافظة على قوة الدفع في عملية السلام والتجهيز لإطار مؤتمر مدريد للسلام منطلقاً من الإدارة الجمهورية إلى الإدارة الديمقراطية.

وفي هذا الإطار، بين 1991 و1993، ناقشت بصورة خاصة وبشكل عام فكرة أن سقوط الشيوعية ليس نهاية فورية للأيديولوجية السياسية حيث إن التطرف والإرهاب، أيًا كانت العباءة التي يتدثر بها علمانية أو دينية، سوف يستمر في تهديد الأمن القومي والسلام العالمي. وأذكر أني في خطاب كبير تحدثت وألقيت كلمة في مقر الميريديان في واشنطن عام 1992 (كما سيرد في الفصل الأول) وتناولت بالتفصيل سياسة الولايات المتحدة تجاه العالم العربي والإسلامي وحددت معالم اتجاهاتها في المستقبل. وكان الاندفاع الاستراتيجي لتلك السياسة هو تنمية الاستقرار السياسي والاقتصادي في الشرق الأوسط والتقليل من شأن محاولات الأصوليين الإسلاميين استغلال هذه القضايا لتحقيق أغراضهم السياسية.

الواقع أن جهود تعزيز السلام في الشرق الأوسط هي جوهر عقبة مميتة وصعبة للغاية، وأن الحاجة لإقناع كل الأطراف بأننا سمسار شريف بين العرب والإسرائيليين في أي تفاوض أو اتفاق هي في غاية الحرج. وقد دفعني هذا إلى الوطن بشكل محدد وواضح في أيلول/سبتمبر 1993 حينما حضر ياسر عرفات إلى واشنطن ليوقع اتفاقيات أوسلو وإعلان المبادئ بين الإسرائيليين والفلسطينيين. حينذاك قرر البيت الأبيض باعتباري مساعد الوزير لشؤون الشرق الأدنى انتقاء أكثر مسؤول مناسب للمصاحبة الشرفية وتحية ياسر عرفات عند وصوله.

وكان هذا أمرًا حساسًا. فقبل هذا الاحتفال التاريخي كانت منظمة التحرير

الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات، قد صُنِّفت باعتبارها منظمة إرهابية. وفي الحقيقة كان من مسؤولياتي التوقيع على خطابات نوايا تسمح للمسؤولين من منظمة التحرير الفلسطينية بالقدوم إلى الولايات المتحدة لحضور اجتماعات في الأمم المتحدة، وحينما تلقيت التعليمات بالتوجه إلى قاعدة أندروز للقوات الجوية لتحية رئيس منظمة التحرير الفلسطينية رسميًا، علمت أنه ينبغي عليّ أن أتفادى الأحضان والقبلات على الخدين من جانب عرفات بالطريقة التقليدية العربية. لذلك فقد استدعيت مساعدي القدير والموثوق به دانييل كورتزر إلى مكتبي وقلت له "دان، عليّ أن أحيي ياسر عرفات في القاعدة الجوية غدًا لذلك أريدك أن تحضنني". ونظر إليّ دان في اندهاش وحيرة مفكرًا بوضوح في ما حدث، وحينما شرحت له توقعي سرعان ما تمرنا وقمنا بالتدريب عليه بمناورة كراقصة الباليه، إذ ينبغي أن أرفع يدي اليسرى لأمسك بعرفات من كتفه لأوقف أي حضن أو تقبيل على الوجنات بينما تكون يدي اليمنى ممدودة لتستقبل راحة يده مصافحًا.

وفي اليوم التالي علمت فيما بعد أن المسؤولين المصاحبين لعرفات على طائرته عندما رأوني على رأس المستقبلين قالوا "إنه دجيريجيان. أخيرًا أصبحنا شرعيين". ولحسن الحظ، فقد أثمرت المناورة التي تمرنا عليها. لقد قلت "سيادة الرئيس، باسم حكومة الولايات المتحدة أرحب بكم في الولايات المتحدة في هذه المناسبة التاريخية التي نأمل أن تقود إلى سلام يعم الشرق الأوسط". وأجاب عرفات "شكرًا وأنا أيضًا آمل أن يؤدي هذا إلى سلام".

وكنت بهذه المناسبة مسرورًا بالقصة التي نشرتها صحيفة النيويورك تايمز، وسرّني بشكل خاص أن أحدًا لم يلاحظ تحيتي الحاذقة للرئيس عرفات. وفي اليوم التالي نشرت الواشنطن بوست عن مصدر موثوق به صورة للمصافحة ومعنونة "تفادي عناق للذكرى والتاريخ". ليس هناك أسرار في واشنطن.

وفي العام 1994، تم تعييني سفيرًا لدى إسرائيل حيث خدمت لمدة عام واحد. ومن أكثر اللحظات المفعمة بالمعاني حينما رفع إسحاق رابين كأسه عند

توديعه في مقره بالقدس عند نهاية خدمتي، قال رابين "إن شعب إسرائيل يشكرك على كل ما فعلته لتعرفنا على جيراننا العرب". بعد كل سنوات الخدمة في الشرق الأوسط، أعطتني كلمات رئيس الوزراء الراحل والفائز بنصف جائزة نوبل لصنع السلام في الشرق الأوسط، شعورًا بأني قمت بدوري المتواضع في المساعدة على تجسير الفجوة بين العرب وإسرائيل.

وبعد كل هذه الخدمة في السلك الدبلوماسي التي انخرطت خلالها في العديد من المهام، ما زالت بعض الأحداث محفورة في ذهني مثل مشاركتي الناشطة في قمة جينيف بين كل من الرئيس ريغان والرئيس غورباتشيف عام 1985، ولقاء القمة في جنيف عام 1991 بين الرئيس جورج بوش الأب والرئيس السوري "حافظ أسد"، ومؤتمر السلام في مدريد في العام 1991، واحتفال البيت الأبيض بتوقيع اتفاق أوسلو عام 1993.

وسوف تغطي الفصول من الثالث وحتى السابع سنوات انغماسي في قضايا الشرق الأوسط.

وبعد تقاعدي من وزارة الخارجية عام 1994، كنت المدير المؤسس لمعهد جيمس بيكر للسياسات العامة في جامعة رايس، حيث مكثت مستغرقًا عن كثب في كل من القضايا السياسية الخارجية والداخلية وأقدم الاستشارات لكل من الإدارة الديمقراطية والجمهورية، وكان من أهم الواجبات التي قمت بها بعد مغادرتي للخارجية أن أتولى - بطلب من وزير الخارجية كولن باول - رئاسة مجموعة استشارية مفوضة من الكونغرس حول الدبلوماسية العامة للولايات المتحدة في العالم العربي والإسلامي، وبصراحة فقد أراد الكونغرس الإجابة على سؤال لماذا يكرهوننا؟ وقد نشرنا في - تشرين الأول/أكتوبر 2003 "تغيير العقول، كسب السلام" وهو معترف به كقاعدة مطبوعة لاستراتيجية الدبلوماسية العامة حول كيفية قيام الولايات المتحدة بمساعدة صراع الأفكار مع المتطرفين في العالم العربي والإسلامي.

ونتيجة لعملي طلبت مني وزيرة الخارجية كونداليزا رايس تجهيز خطة مبادرة استراتيجية لوزارة الخارجية حول الدبلوماسية تجاه العالم الإسلامي. ونصحت صانعي السياسة العامة في هذا الخصوص، وفي حين يجب بذل المزيد من التقدّم حول كيفية توجيه رسالة "صوت أمريكا" إلى الخارج وبالذات إلى العالم الإسلامي، فقد تم تبنّي الكثير من توصياتنا بشأن إصلاح أدوات الدبلوماسية العامة، كما زوّدت هذه التوصيات الإدارة والإدارة اللاحقة بأساسٍ أفضل يتم الارتكاز عليه. سوف نناقش هذه القضايا في الفصل العاشر "الدبلوماسية العامة ـ صوت أمريكا".

وكنت أيضاً كبير مستشاري مفوض الكونغرس "باركر هاملتون" (مجموعة دراسة العراق ـ ISG) التي نتج عنها في كانون الأول/ديسمبر 2006 ممثل مستقل لحزبين، كان له تقييم مميّز للوضع العراقي على الأرض. وسوف يعالج الفصل الثامن هذه القضية بتوسع.

وفي الأربعة عشر عاماً التي تلت تخلّي عن خدمة الحكومة الأمريكية كنت أراقب الإدارتين الديمقراطية والجمهورية. وقد قدمت خلالها خدمة متميزة لسياسات قابلة للحياة ولكني بصورة دائمة وبثبات فشلت في أن أتبع استراتيجية متماسكة تعكس ليس فقط قيمنا ومصالحنا ولكن أيضاً ثقافة وحقائق منطقة الشرق الأوسك الأوسع. ولقد أدت الأحداث الدرامية الأساسية المأساوية في 11 أيلول/سبتمبر 2001 إلى دفع الحكومة إلى الانتقال من حالة "الأقوال" إلى التحرك الفعلي في جهودها للتعامل مع هذه المشاكل بجدية، لقد تاكدنا أخيراً أن عدم الاستقرار الداخلي في بلدان الشرق الأوسط، وترك قضاياها بدون حل يمكن أن يؤثر في أمن وطننا، ولكن رد فعلنا اختلط مع بعض السياسات التي أُسيء تصميمها في حين أن غيرها وفرت طرقاً واعدة لمساعدة قوى الاعتدال في المنطقة من خلال التعامل مع بعض المشاكل الهيكلية في المنطقة.

ولما كانت الولايات المتحدة هي القوة الأكبر في العالم، فإن القيادة الأمريكية للعالم غدت ضرورية في المساعدة على تحديد إطار استجابة المجتمع الدولي تجاه التطرف والإرهاب. ويجب أن نعمل طبقاً لقيمنا ومصالحنا. يجب أن نلعب دور القوّاد بوعي ونفهم أن ذلك هو طريقنا السريع، يجب أن نعيد بناء تحالفات صلبة وأدوات للتعامل الدولي من أجل النجاح. إن الرهانات الجارية عالية ومكلفة في الشؤون السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية والعسكرية كما هو مشاهد في الصراع العربي ـ الإسرائيلي المستمر والحرب في كل من العراق وأفغانستان والموقف الخطير في باكستان وفي المنطقة ككل، والناجمة كلّها من العجز عن المشاركة على مستوى السياسة والاقتصاد والتعليم وحقوق الإنسان. إن حقيقة أن الشرق الأوسط وجنوب آسيا من أكبر مناطق إنتاج النفط والغاز ترسم أبعاداً جغرافية سياسية لهذه الصراعات. وسوف أتناول هذه القضية في الفصل التاسع "علوم السياسة الطبيعيّة للطاقة".

لقد تفاديت عرضاً تفصيلياً عن التاريخ الطويل والمعقد لصراعات المنطقة ودياناتها طالما أن هذه الموضوعات تم تغطيتها من جانب المؤرخين وغيرهم من الباحثين والخبراء في سياسات المنطقة. وقد فضلت بدلاً من ذلك أن أركز البحث على الأحداث الأخيرة نسبياً والتي لي بها معرفة وثيقة وعميقة.

وسوف أتقاسم لأول مرة علناً تفاعلاتي مع القادة العلمانيين والدينيين للمنطقة، وكذلك تجربتي في العمل مع القادة الرسميين في واشنطن في كل من الإدارتين: الديمقراطية والجمهورية. وكم آمل أن تحيي هذه الرواية الشخصية القضايا السياسية وأن تزوّد القارىء بنظرة واسعة عن العالم العربي والإسلامي، وهي منطقة سوف تشغل الإدارة الأمريكية سنوات قادمة.

ولأنهي هذه المقدمة الموجزة دعوني أسترجع حدثين صغيرين لا يمكن نسيانهما؛ خلال الحشد والتعبئة السابقة لحرب عاصفة الصحراء لصد غزو صدام حسين للكويت، تشاورت مع عدد من السفراء في دمشق بمن فيهم سفير

جمهورية الصين الشعبية. لقد ناقشنا الأزمة الجارية، وقد علّق السفير قائلاً إن كلمة أزمة باللغة الصينية (ويجي weiji) تعني خاصيتي الخطر والفرصة، وقال إننا سوف نحتفظ بهذا في عقولنا، حيث إننا نواجه نشوب حرب وشيكة فنأخذ بعين الاعتبار ما يعقبها من مخاطر وفرص في العراق نفسه وفي المنطقة ككل. وبعد أيام قليلة أرسل لي كتابة مرسومة بالحروف الصينية لكلمة "أزمة" وقد قمت بتعليقها في مكتبي حتى اليوم ومنها استلهمت عنوان هذا الكتاب. وأتمنى أن يساعد القارىء في تقدير الجوانب الشائكة في اشتباك الولايات المتحدة مع العالم العربي والإسلامي.

وفي عشية مغادرتنا إلى دمشق عام 1994، قمنا أنا وزوجتي فرانسواز بزيارة وداعيّة لوزير الخارجية وقتذاك جورج شولتز وذلك في مكتبه الواقع في الطابق السابع من مبنى وزارة الخارجية، هذا وقد تعمد أن يسأل كل سفير أمريكي جديد أن يشير إلى بلده على مجسم كرة كبرى للعالم. وقد أشار كل منهم إلى ذاك البلد الذي كلف بالعمل فيه باستثناء سيناتور مايك مانسفيلد، الذي كان مرشحًا كسفير لليابان. فقد وضع هذا الأخير يده مشيرًا إلى الولايات المتحدة وقال "هذا بلدي يا سيدى". فابتسم شولتز ابتسامة ذات مغزى ولم يعقب، وكم كان ذاك درسًا قيمًا لي لن أنساه أبداً.

لقد وسعت هذه الخبرة من وجهات نظري ومكّنتي من رؤية الأشياء من زوايا متعددة، وكان هذا بفضل تعرضي طوال سنوات لثقافات مختلفة عن ثقافة الولايات المتحدة وارتباطات مع أناس ذوي نظر ومصالح تتضارب مع تلك الخاصة لبلادي، ومع أن هذا الكتاب يجعل من الواضح أني كنت على الدوام ناقدًا لبعض الجوانب الكبرى من السياسة الأمريكية الخارجية وبخاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط، غير أني مقتنع أننا كأمة عظيمة نستطيع أن نصوغ السياسات التي سوف تخدم قيمنا ومُثلنا العليا ومصالحنا بطريقة أكثر ذكاء وفعالية. وإني لأرجو أن يخدم هذا الكتاب ذاك الغرض.

سيدي الرئيس:

لقد تشرّفت بخدمة ثمانية رؤساء للولايات المتحدة بدءًا من جون كنيدي وحتى وليام جيفرسون كلينتون في أوقات السلم والحرب وذلك في المجال العسكري والسياسة الخارجية، ولقد شغلت منصب المساعد الخاص للرئيس رونالد ريغان وهي واحدة من وظائف البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي، كما عملت نائبًا لوزير الخارجية للشؤون الصحفية، ومن خلال هذه الوظيفة أتيحت لي فرصة التعرف على السلطة التي يتمتع بها رئيس الجمهورية والمسؤولية الكبيرة التي يتحملها إضافة إلى الوحدة التي يشعر بها كل من يشغل المكتب البيضاوي في أوقات حرجة تتعلق باتخاذ القرار.

ففي أثناء ولاية رونالد ريغان الثانية كان هناك توتر يسود جنوب شرق آسيا في ما يتعلق بأفغانستان، كما كان هناك توتر بين الهند وباكستان حول مسألة الأسلحة النووية. ولقد رتبنا مقابلة للرئيس مع صحفي بارز من صحيفة التايمز الهندية وذلك في محاولة لإعطاء الرئيس فرصة للتأكيد على أهداف سياسة الولايات المتحدة في المنطقة. ولقد كان هناك مهمات رئيسية يرى مستشارو الرئيس أن عليهم تنفيذها، ولقد أُوكل لي عملية التأكد من إتمام كل مهمّة وأن العملية تتم بنجاح. وكنت دائمًا أشعر بالرهبة بالنسبة لقوة ومسؤولية

من يحتل منصب الرئاسة. وبينما كنت أتقدم لإحاطة الرئيس علمًا بالمقابلة كنت أقف أمام مكتبه وأشير إلى النقاط التي سيتكلم عنها والتي أعددناها سلفًا له وأكرر له التصريحات الرئيسية التي عليه قولها.

ولم أكن متأكدًا أن الرئيس كان يركز على هذه النقاط، ومن ثم قمت بشيء لم يكن من الواجب أن أقوم به. لقد توجّهت خلف مكتب الرئيس وانحنيت فوق كتف الرئيس وأبرزت العبارات الرئيسية، وظننت أننا كنا بمفردنا في المكتب البيضاوي غير أنه كان هناك مصور من البيت الأبيض في الغرفة. وبعد عدة أسابيع وجدت على مكتبي صورة موقعة تصوّر اللحظة التي كنت أميل فيها على كتف الرئيس ومدون عليها ملاحظة يقول كاتبها فيها" إلى إدوارد دجيريجيان من هؤلاء الذين يقولون إننا لا نعمل بجدية. تمنياتي بحظ سعيد ـ رونالد ريغان".

لقد رأى حماسي الزائد وعبّر عن رأيه بطريقة ملؤها التقدير. لذا وبصفتي دبلوماسياً أمريكياً قام بالحفاظ على مصالح الولايات المتحدة في هذا الجزء من العالم وذلك على مدى ثلاثين عامًا أو أكثر، كما قمت بعملي لخدمة كل من الإسرائيليين والعرب وذلك عندما كنت سفيرًا في كل من سوريا وإسرائيل، وأود وبتواضع مشاركتك أفكاري بوصفك الرئيس القادم للولايات المتحدة فيما يتعلق بالتحديات الرئيسية في كل من منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي في هذا الوقت المحفوف بالمخاطر والفرص.

وفي خطاب ألقيته بالمريديان في واشنطن عام 1992، عندما كنت مساعدًا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى قلت " إن الولايات المتحدة لا تنظر إلى الإسلام كقوة تواجه الغرب أو تهدد السلام العالمي، فالأمريكيون ينظرون إلى الإسلام كدين عظيم وكعقيدة كبيرة"... إن نزاعنا هو مع التطرف والعنف وإنكار الآخر والقهر والرعب وهي صفات غالبًا ما تترافق وهذا الدين. كان يبدو واضحًا لي ذلك قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بسنوات قليلة أنه بنهاية الحرب الباردة وهزيمة الشيوعية فإن العدو الذي سيواجه الولايات المتحدة

والمجتمع الدولي لن يكون غير التطرف والإرهاب. وتصارع الأفكار بين قوى التطرف والاعتدال في العالم الإسلامي هو تحدي الأجيال القادمة وهو تحدٍ يمكن أن تمارس الولايات المتحدة تأثيرًا كبيرًا لمواجهته ولكنها لا يمكن أن تحسمه، حيث إن هذه المهمة ستبقى بين أيدي المسلمين أنفسهم.

من الأهمية بمكان هنا أن نتجنب الشعارات السياسية المنمقة التي لا تؤدي إلى نتائج متوقعة مثل شعار الحرب على المخدرات والحرب على الفقر تمامًا مثل شعار الحرب على الإرهاب الذي لن يؤدي إلى لحظة الانتصار. صحيح أن هذه قضايا تستحق الاهتمام إلا أنها تنطوي على سلسلة طويلة من الكفاحات التي يجب التصدي لها بجرأة وذكاء. ويجب ألا تشوه مثل هذه الشعارات السياسة العامة التي تتسم بالتعقل والحكمة. فالإرهاب ليس سوى جزءٍ من تصارع الأفكار والمفاهيم بين قوى التطرف والاعتدال ويجب محاربته بكل الوسائل المتاحة لدينا. والخيار العسكري دائمًا متاح أمامنا وأمام الكونغرس عندما يهدد الأمن القومي الأمريكي، غير أن المدافع والبنادق بمفردها لا يمكن أن تحقق النجاح في الحملة الشاملة على الإرهاب، حيث إن هذا العمل يتطلب استراتيجية شاملة ذات قاعدة أوسع.

لذلك، فإن سياسة الولايات المتحدة لا بد وأن تهدف إلى ما يمكننا أن نفعله لدعم قوي الاعتدال والعمل على تهميش المتطرفين والراديكاليين سواء كانوا علمانيين أو متديّنين، وسيتطلب ذلك كل أدوات الدبلوماسية الثنائية والمنفردة الأطراف المتاحة لدينا وذلك بهدف حسم هذا الصراع؛ ومن ثم فأمامنا أدوات مثل الدبلوماسية العامة والمساعدات العسكرية والتدريب والعمليات الخاصة ومساعدة الدول على بناء مؤسسات نيابية تمثل الشعوب وتسهل الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، باختصار فإن المسار الأكثر حكمة يتمثل بتفادي فرض الحلول من الخارج. فعوضًا عن ذلك لا بد من أن نتبنى سياسات فعالة ونتّخذ إجراءات تدعم حلولاً تكون نتيجة للجهود التي تقوم بها كل شعوب ودول المنطقة. فمساعدتنا للتخفيف من قضايا الإحباط والإذلال والظّلم في المنطقة

التي يسعى الإرهابيون والراديكاليون إلى استغلالها والاستفادة منها لتحقيق مآرب سياسية يمكن أن تؤدي إلى تهميش الراديكاليين والإرهابيين ودعم دعاة الاعتدال.

لقد نشأتُ وترعرعتُ في مدرسة الدبلوماسية التي تؤمن بحل الخلافات عن طريق التفاوض كلما كان ذلك ممكنًا والسعي للسلام مع الأعداء والخصوم؛ ولعل هذا هو عمل الدبلوماسية الأساسي، ويدعم ذلك العمل المصداقية العسكرية. فأسلوبنا في عزل الخصوم بمفردنا وقطع كل وسائل الاتصال مع الأعداء يحرمنا من الأدوات الأساسية للسعي لتحقيق مصالح أمننا القومي، فالتحدث مع الأخرين والحوار معهم مع وضع ما يمكننا أن نسعى إليه في أذهاننا لا يمكن أن يكون مظهرًا من مظاهر الضعف أو التنازل عن هيبتنا خاصة مع قوة عظمى مثل الولايات المتحدة. وفي نفس الوقت يجب أن تسير دبلوماسيتنا وتستمر في طريق بعيدة كل البعد عن إظهار أي ضعف في اتخاذ القرارات الحاسمة في الوقت المناسب. فبينما وصم رونالد ريغان الاتحاد السوفياتي ونعته بوصفه "إمبراطورية الشر"، فإن إدارته كانت تتفاوض مع النظام الشيوعي بحزم وعزيمة وقد حقق ذلك الكثير من النتائج الإيجابية المبشرة بالخير.

لقد أتيحت لي الفرصة عام 1969 بالتحدث مع ريموند هير، وهو سفير محنّك متمرس في السياسة، حيث أخبرني أنّ الدبلوماسية أمر أساسي للسيطرة على حجة خصمك وموقفه سيطرة كاملة، و"من ثم يجب عليك أن تقوم بتوضيح موقفك له بكلمات أفضل من عباراته. وهكذا تجرده تمامًا من سلاحه، ثم تفسّر بأكبر قدر من الشمولية نقاط الاتفاق التي قد تنبثق، وعليه فإنك تضع بذور التوصل إلى حل وسط. ولعل هذا الأسلوب أفضل بكثير من مجرّد توضيح موقف وسط تعليمات يمكن أن تنفر عدوك أو خصمك المتحدث معك. لا تحرج خصمك أبداً إلا إذا كان هذا هو هدفك. وختم "هير" قائلاً إنّه يجب دائماً منحه فرصة للدفاع عن نفسه بطريقة تتوافق مع وجهة نظرك وموقفك؛ وهذه ليست صيغة رديئة لكي تتبعها أي إدارة أمريكية في سلوكها الدبلوماسي".

ولعل غياب الحوار والانخراط مع الأنظمة والجماعات المعادية لا يخدم أي شيء سوى استقطاب المواقف ويشجع الخطأ في تقدير الحسابات بل والصراع أيضاً، وخاصة في هذا الصراع الأكبر الجاري في الشرق الأوسط. لذلك، عليك أن تطلب من وزير الخارجيّة لديك الاهتمام بعناية لجمع كلّ من إيران وسوريا في حوار استراتيجي كبير عن كل القضايا العالقة بيننا، وذلك في محاولة جادة لتحديد الأرضية المشتركة التي يمكن البناء عليها. ومن خلال هذا الانخراط الشامل والكامل ووضع كل القضايا الأساسية على الطاولة، فإن الأمل كبير في أن تغير هذه البلاد من سلوكها حتى تتكيف وتتوافق مع مصالح الولايات المتحدة في قضايا جوهرية أساسية مثل قضية عدم الانتشار النووي وقضية السلام العربي الإسرائيلي.

وكما سأعرض في هذا الكتاب، فإن الطريق إلى تسوية سلمية للصراع العربي الإسرائيلي يمر عبر القدس وليس عبر طهران أو بغداد. فالمفاوضات المباشرة بين إسرائيل وجيرانها العرب من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين ستؤدي إلى صنع السلام، إذ إنها ليست سوى أدوات أساسية في اتجاه حل هذا الصراع وإحلال السلام في المنطقة. وبينما يكون هناك دور مهم للدول الأخرى في المنطقة لدعم هذه الجهود التي تبذل لصنع السلام، إلا أن الفرقاء أنفسهم يجب عليهم الانخراط في هذه المفاوضات. فقلب الصراع في هذه المنطقة هو القضية الفلسطينية التي تحتل مكانة كبيرة في ضمير العالم الإسلامي بأسره. ولقد استُغل هذا الصراع كثيرًا واستفادت منه الأنظمة في المنطقة وجعلته مبررًا لتعطيل كل الإصلاحات السياسية والاقتصادية ولضمان مركزها القوي. والواقع أن أي إدارة أمريكية لا تضع في الحسبان هذه الحقائق ولا تعي ضرورة الإسراع في حل هذا الصراع المرير، ستواجه أزمات متكررة تضطر إلى التصدي لها واحدة تلو أخرى، وهذا ما يدفع الحكومة الأمريكية إلى التغاضي عن أولويات أخرى في أوقات غير مناسبة لها.

والمقاربة الأكثر فعالية تكمن في توجيه سياسة الولايات المتحدة من إدارة

الصراع إلى التوجه سريعًا إلى حله وحسمه. فسياسة إطفاء الحرائق المتقطعة هنا وهناك بين كل من إسرائيل و سوريا ولبنان والفلسطينيين ليست سوى استراتيجية قصيرة الأجل فضلاً عن كونها استراتيجية غير كافية. وعليه فإن الولايات المتحدة لا بد وأن تأخذ زمام المبادرة وتقود الأسرة الدولية كوسيط أمين بين الإسرائيليين والعرب، وذلك بهدف السعي لجمع الفرقاء على الساحة إلى طاولة المفاوضات وذلك في إطار مؤتمر مدريد للسلام وضمن الصيغة المتفق عليها "الأرض مقابل السلام" التي توصل إليها مجلس الأمن في كل من القرارين 242 و338.

سيدي الرئيس، أفيدكم علمًا بأننا لكي ننجح في هذه الجهود الكبيرة علينا أن نكون في مقعد القيادة، وعلينا أن نستثمر قوة وسلطان الرئاسة الأمريكية في صنع السلام وذلك من خلال أي من الوسائل العلاجية التي تختارونها للتعامل مع هذه المشكلة وهذا الصراع. فعندما أظهر رؤساء الولايات المتحدة الإرادة والشجاعة السياسية، وانخرطت الإدارات المتعاقبة في محاولات جديَّة لصنع السلام، كان هناك تقدم واضح على يد الرئيس نيكسون في اتفاقات الفصل بين القوات المتحاربة في أعقاب حرب أكتوبر عام 1974. وجاء بعد الرئيس نيكسون الرئيس جيمي كارتر وبذل جهوداً جبارة للتوصل إلى اتفاقات كامب ديفيد عام 1978 ثم توقيع معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية عام 1979. وحل في النهاية الرئيس جورج بوش (الأب) وتوصل الفرقاء إلى عقد مؤتمر السلام في مدريد عام 1991. وعلى الرغم من أن الرئيس كلينتون لم يحقق تسوية مع هؤلاء الفرقاء، إلا أنه نجح في تضييق الخلافات وحصر القضايا بين الإسرائيليين والفلسطينيين في كامب ديفيد ومحادثات طابا عامي 2000 و2001. كان نداء جورج بوش (الابن) عام 2002 بإنشاء دولة فلسطينية تعيش جنبًا إلى جنب مع إسرائيل وتنعمان بالسلام والأمن، إقرارًا بالغ الأهمية لا بد من أن يترجم على أرض الواقع وذلك في إطار المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية التي بدأت في أنابوليس عام 2007.

صحيح أنّ التقدم في اتجاه السلام العربي الإسرائيلي أو التوصل إلى هذا السلام لن ينهي أعمال التطرف والإرهاب الجارية الآن، إلا أن هذه التسوية يمكنها أن تؤدي إلى القضاء على السبب الرئيسي الذي يستغله الإرهابيون لخدمة أهدافهم وتحقيق مآربهم ومن ثم يلقون بالمسؤولية على الجماعات الأصولية مثل حماس وحزب الله وذلك لتبرير عمليات المقاومة المسلحة المستمرة والإرهاب. هذا علاوة على أن مثل هذا المسعى الذي تقوم به الولايات المتحدة سيعيد مكانة أمريكا في هذا الجزء من العالم وتستعيد الولايات المتحدة مصداقيتها في كل من العالم العربي والإسلامي.

ويغلب في الكثير من الأحيان أن تحيد سياسة الولايات المتحدة الخارجية عن الكثير من القضايا الحيوية والملتهبة في العديد من مناطق العالم حيث يجب علينا أن نبذل الجهود والمساعي القوية تجاه حل هذه القضية العاجلة. ولعل كل من أفغانستان وباكستان يمثلان نموذجاً عن هذا الميل المكلف وعن مبدأ النتائج غير المقصودة. لقد نجحنا فقط في تأييد المجاهدين في أفغانستان وذلك في أعقاب الغزو السوفياتي لهذا البلد عام 1979، وساعدناهم في هزيمة الجيوش السوفياتية في مغامرتهم داخل أفغانستان. كما ساهمنا في القضاء على الاتحاد السوفياتي بعد عقد من الزمن. علاوة على ذلك، دعمنا في هذا الصدد باكستان، وعملنا عن كثب مع الحكومة الباكستانية والمؤسسة العسكرية في هذا البلد كقناة للدعم العسكري والسياسي للمجاهدين بما يشمل مدّهم بالسلاح، وخاصة صواريخ "ستنغر" التي كانت سببًا في إلحاق الدمار بكل العمليات التي قامت بها الطائرات السوفياتية في هذا البلد.

إلا أننا بعد ذلك وجهنا كل اهتمامنا إلى مكان آخر، واستنفدنا كل الوسائل والأساليب السياسية تجاه حلفائنا من الدول الإسلامية الذين ساعدوا بدورهم في قيام تنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن وساهمت الجماعات الأصولية في كلّ هذه التطورات، فضلاً عن وكالة الاستخبارات العسكرية في باكستان التي تربطها علاقات وثيقة مع طالبان والمجموعات الإسلامية منذ سبعينيات القرن

العشرين. ثم تفاقمت الأوضاع أكثر وأكثر عند استيلاء طالبان على سدة الحكم في أفغانستان. والواقع أن طالبان شكلت ملاذاً آمناً للقاعدة، هذا التنظيم الذي كان وراء هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 القاتلة. صحيح أننا نجحنا في قلب نظام حكم طالبان بالقوة وذلك عقب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، إلا أن العمل العسكري الذي قمنا به في العراق عام 2003 قد حوّل اهتمامنا بعيدًا عن كل من أفغانستان وباكستان، الأمر الذي نتج عنه ظهور طالبان مرة أخرى على الساحة كقوة عسكرية وسياسية وهي على استعداد لتتصارع معنا ومع قوات التحالف عامي 2006 و2007، بينما يظل كل من أسامة بن لادن ورفيق كفاحه أيمن الظواهري يعيشان في مكان ما في وزيرستان.

ولعل أحد القرارات الهامة جدًا التي يمكن أن تتخذها هو أن تجعل من منطقة جنوب شرق آسيا تحتل أولوية كبيرة في سياستك الخارجية، مع التركيز على كل من باكستان وأفغانستان. فالمخاطر الكثيرة التي تهدد استقرار وسلام هذه المنطقة ظاهرة للعيان؛ فكل من باكستان والهند قوة نووية تمتلك أسلحة فتاكة، مع الأخذ في الحسبان قضية كشمير التي لم تُحسم حتى الآن بينهما. فمنذ عملية التقسيم عام 1947 خاضت كل من باكستان والهند ثلاثة حروب. ومن ثم علينا بذل جهد كبير وذلك بهدف حسم قضية كشمير، وذلك تجنبًا لتصعيد هذا الصراع بين البلدين الذي يمكن أن يؤدي إلى مواجهة نووية في شبه القارة. ولعل من الأمور التي تلفت الانتباه أن الصراع من أجل إقرار الديمقراطية في باكستان يمر بمواقف عصيبة، كما هو بارز في التهديد الذي تشكله الجماعات الإسلامية داخل البلد، والحركة الناشطة والمتجددة للقاعدة الذي ظهر مؤخرًا في مناطق الحدود الباكستانية الأفغانية، واغتيال رئيسة وزراء باكستان "بناظير بوتو" على يد انتحاري في كانون الأول/ديسمبر عام 2007، والمواجهة بين الرئيس الباكستاني برويز مشرف والحركة السياسية للقضاة الذين يساندون حكم القانون واستقلال القضاء.

على الولايات المتحدة أن تعمل بنشاط لكي تشجع المعارضة الباكستانية المعتدلة المتمثلة في الأحزاب السياسية والحكومة والتي تدعمها وتؤيدها القيادة

العسكرية المهنية الراعية لأسلحة باكستان النووية والتي تضمن سلامتها، وذلك بهدف العمل على خلق تحالف ديمقراطي يقوم على حكم باكستان، ويستعيد الاستقرار السياسي الذي يمكن أن يتحقق عن طريق الانتخابات ذات المصداقية. فضلاً عن ذلك، فإن هدف سياستنا الرئيسي يجب أن يكون باتجاه نقل السلطة والشرعية إلى قيادات مدنية باكستانية ينتخبها كل الباكستانيين.

وعلى الرغم من أن أفغانستان أصبحت تشكل الأولوية الكبرى لحلف الناتو، إلا أن هذا البلد يستمر في مكافحة أمراء الحرب من تجار المخدرات، وطالبان، والقاعدة، والمتشددين من المحاربين الذين برزوا على رأس الأحداث والذين ما فتئوا يركزون جهودهم وأنشطتهم على الأعمال الإرهابية التي ازدادت كثيرًا، علاوة على الهجمات الانتحارية، مستخدمين كل وسائل التفجير المستحدثة ويستهدفون في ذلك المدارس والمدرسين. والهدف بالطبع هو تخريب كل ما تقوم به الدولة بغية فرض إرادتهم على الشعب الأفغاني. إنه صراع مرير وقاسٍ بين مؤسسات الدولة وخدماتها التي تقدمها للمواطنين في ظل حكومة منتخبة ديمقراطيًا تتعامل مع المقاومة المسلحة للمتطرفين الأفغان. وبما أنّ المؤسسات التابعة للدولة في مرحلة التكوين والنشأة ولا تتمتع بالقوة الكافية، فإن المتطرفين هم أكثر خطورة ممّا تشير إليه أعدادهم الفعلية.

إن أفغانستان في مرحلة انتقال كبيرة تتطلب دعمًا مستمرًا وشاملاً، علاوة على التزام دولي من الأسرة الدولية بالاستمرار في هذا الدعم الشامل. فالأمن والاستقرار وعمليات النمو والتطور لا تعدو إلا أن تكون مفتاحًا رئيسيًا للنجاح أو الفشل. ولقد قال قائد عسكري أمريكي "إننا لسنا خاسرين في هذه المعركة لكنّنا لسنا منتصرين أيضًا". ولقد تفّهم هذا القائد الحاجة إلى بناء جيش أفغاني وطني بالإضافة إلى قوة من الشرطة وذلك بهدف إقرار الظروف الملائمة للأمن التي بدورها يمكن أن تساعد على بناء البنية التحتية اللازمة وتعطي للتنمية المجال المناسب فضلاً عن الخدمات الأساسية وبناء الطرق، وكلها أمور أساسية للشعب الأفغاني. وقال هذا الجنرال بهذا الصدد: "وحينما تنتهي الطرق تبدأ طالبان".

سيدي الرئيس؛ أفيدكم علمًا بأن الانتخابات بمفردها لا يمكن أن تخلق الديمقراطيات. فهي في الواقع تُستغل لصالح الديكتاتوريات. دعني سيدي الرئيس أشاركك هذه العقبة الصعبة التي تؤكد وجهة نظري. ففي أثناء لقاء مع أحد الحكّام في الشرق الأوسط أشرت إلى مرحلة إعادة انتخابه الأخيرة وفوزه بنسبة ساحقة (أكثر من 90%). ثمّ سألته وأنا مرتعب إذا كان يعرف الذين لم يصوتوا له، فما كان منه إلا أن أجابني مبتسمًا " يا سعادة السفير، لدي أسماء كل هؤلاء".

إن نمو الديموقراطية التي تركز على الانتخابات بدون البناء الجيد للمؤسسات وتطوير سيادة القانون وتبني مبادئ التعددية وتداول السلطة، غالبًا ما تقودنا إلى نتائج غير طيبة. فالديمقرطة لا تتقدم في خط مستقيم، ومن ثم فإن النهج الأكثر تعقلاً وحكمة بالنسبة للولايات المتحدة يكمن في تشجيع هذه البلاد على تأسيس كتل من الديمقراطية من داخل مجتمعاتها. فمن الأفضل بكثير التريّث من أجل تحقيق هذا الهدف الطويل الأمد. فتحدي دعم أشكال الحكم الديمقراطي في العالم الإسلامي تحدٍ كبير جدًا. فانخراط الولايات المتحدة مع قوى الاعتدال في هذه المجتمعات بما فيها المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والاتحادات المهنية والحكومات في هذه المنطقة من العالم يتطلب بذل جهد متواصل وأكبر من الذي قمنا به حتى الآن.

لا بد وأن نعلن بوضوح وصراحة أنه ليس هناك مكان للإسلاميين الأصوليّين من أمثال تنظيمات كتنظيم القاعدة الذي يضع في أجندته قلب الحكومات في هذه المنطقة وتدمير إسرائيل وإضعاف المعتدلين وقوى الاعتدال والتخلي عن البحث عن الحداثة في الدول الإسلامية، علاوة على إضعاف "الأعداء البعيدين" من أمثال الولايات المتحدة. ومع ذلك، لا بد وأن نفرّق بين الإسلاميين الأصوليّين والجماعات الإسلامية التي لا تنخرط في أعمال إرهابية.

وبناءً على ذلك لا بد سيدي الرئيس أن تفوض وزير الخارجية لكي يطلب من دبلوماسيّي الولايات المتحدة الاتصال ببعض الجماعات الإسلامية المعروفة، وكذلك الأحزاب في الدول الإسلامية، وخاصة تلك الجماعات التي لا تلجأ إلى العنف بهدف تحديد ما تمثله هذه الجماعات بالفعل، والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، والأرضية المشتركة التي يمكننا أن نصل إليها سويًا، وما إذا كان من الممكن إشراكهم في الوصول إلى تحقيق أهداف سياستنا الخارجية ومصالح أمننا القومي.

إن قرار شن الحرب وسفك الدماء وإهدار الأموال العامة هو المسؤولية والعبء لديك، إلا في حال وقوع هجوم على أرض الوطن، ففي هذه الحالة سيكون القرار خيارك الأخير بوصفك قائدًا عامًا للقوات المسلحة، وذلك بعد استنفاد كل الخيارات والتفكير فيها بدقة وتؤدة. وعلى الرغم من معرفتي بما قاله لي "كولن باول" بأنّه لم يُنشر على الإطلاق "عقيدة" باسمه، رغم وجود عدة مراجع عامّة نوهت بهذا المبدأ، فإن العناصر الأساسية لهذا المبدأ رغم وجود عدّة مراجع عامّة تتطابق مع وجهة نظرك إذا اضطررت لقيادة هذا البلد حتى يدخل في نزاع مسلح. وطبقًا لمبدأ باول عليك أن تضع في الاعتبار كل الخيارات في أوقات المحن بما فيها إمكانية استخدام القوة العسكرية. ومن ثم فإن مهمتك الأكثر أهمية تنحصر في فهمك الواضح والجلي للهدف السياسي الذي ترغب في تحقيقه. باختصار "ما هي المهمة التي ستضطلع بها القوات والمستويات التي تحتاجها لتنفيذ هذه المهمة وإنجازها بنجاح؟". فالفشل في تقدير عدد القوات اللازمة في العراق بهدف استعادة سيادة القانون والنظام في ظل احتلال من قبل هذه القوات قد سبب الكثير من المشاكل المأساوية التي واجهناها في العراق منذ نجاح عملياتنا العسكرية الأولية. فقواتنا كان عليها أن تتعامل في نفس الوقت مع البعثات التي تعمل على مكافحة الإرهاب والتمرّد. وأهم هذه التحديات هو أنّه كان على المؤسسة العسكرية أن تنخرط بدرجة كبيرة في عمليات بناء الدولة العراقية،

وذلك بهدف توفير الخدمات الأساسية للشعب العراقي بما فيها كما قال جنرال أمريكي لمجموعة من العراقيين "جمع القمامة ".

من المهم بمكان عدم الخلط بين الأهداف العسكرية والأهداف السياسية. فإقرار الديمقراطية في العراق ليس هدفًا عسكريًا، إلا أن الاهتمام بالبلاد واستعادة سيادة القانون والنظام تشكّل خطوات أساسية أولية لإيجاد حلول سياسية. ولعل الفارق بين العمل العسكري والاحتلال أمر في غاية الأهمية والخطورة، ويتطلب سياسات مختلفة ومستويات من القوى العسكرية والمدنية. وعند بدء تنفيذ المهمة اهزم العدو بالقوة الرادعة والحاسمة لتحقيق هدف عسكري واضح. وهناك أيضاً سؤال رئيسي آخر يجب أن تطرحه وهو: كيف ستنتهي هذه الحرب؟ وهذا السؤال أكثر أهمية من تحديد استراتيجية للخروج. وأخيرًا يجب أن نعي كثيرًا ما إذا كانت الحرب ستستمر لوقت طويل، وفي هذه الحالة يتعين علينا أن نتأكد من دعم الجبهة السياسية الداخلية ومن الدعم الدولي إلى أقصى حدّ للمهام الحربية والجهود العسكرية التي نقوم بها. ولقد نجحت هذه المقاربة كثيرًا في "بنما" عام 1989، وكذلك في عاصفة الصحراء عام 1991. ولم يتبنَّ أحد هذا المنحى في العراق عام 2003. وبالفعل، من أهم أولوياتك هو مراجعة شاملة وكبيرة للسياسة العسكرية للولايات المتحدة، وكذلك المبادئ العامة لهذه السياسة حتى نتأكد أننا على استعداد لمواجهة المخاطر الحالية والمستقبلية للأمن القومي الأمريكي.

في مقابلة تمت عام 2007 صرح جنرال أمريكي في العراق قائلاً " إننا جيش يخوض حرباً مستمرة وليس أمّة تحارب". ولقد عبّر عن هذا الشعور المؤلم مسترسلاً إن الشعب الامريكي يستطيع القيام بالمزيد لدعم الجهود المبذولة. وأثناء زيارة إلى بغداد قامت بها مجموعة من الأفراد لدراسة الوضع في العراق في أيلول/سبتمبر 2006، كان الجنرال "بيتر شيرالي" الأكثر بروزاً من بين كلّ الجنرالات، ولقد كتب في المجلة العسكرية قائلاً "إن الولايات المتحدة كدولة وكشعب ومعظم أعضاء الحكومة الأمريكية لم يذهبوا إلى الحرب وذلك منذ

أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. وعوضًا عن ذلك فإن وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية هي المنشغلة بهذه الحرب، بينما يعيش الشعب الأمريكي ومعظم المؤسسات الأخرى التي تتمتع بالنفوذ والقوة حياتهم اليومية العادية".

هذه قضية هامة جدًا تخص قلب المجتمع الأمريكي ومفهوم الخدمة العامة والتضحية التي يقدمها الجيش الأمريكي. ولقد صرح الكثير من القادة العسكريين الرفيعي المستوى قائلين لي إنّهم يفضلون المتطوعين من الجنود في الخدمة العسكرية وذلك للمهنية التي يمكن أن يحققها هؤلاء المتطوعون داخل الجيش، من دون الحاجة إلى تدريب عناصر جديدة يتم تجنيدهم كل سنتين أو ثلاث سنوات. غير أننا لا بد وأن نولي اهتمامنا لعملية تسجيل الأمريكيين وذلك تحسبًا لإمكانية تجنيد الشباب لمواجهة حرب شاملة وكبيرة تتطلب مجهودًا وطنيًا كبيرًا. كما علينا التفكير في إنشاء نظام للخدمة الوطنية في عمليات الحكومة المدنية والمؤسسات، وذلك بدلاً من الخدمة العسكرية. فمنذ بدأنا تطبيق فكرة التطوع للقوات المسلحة في سبعينيات القرن العشرين، أثناء فترة حكم الرئيس "نيكسون"، بدأت المؤسسة العسكرية الأمريكية تفقد الصلة الحيوية التي يمكن أن تربطها بالدولة والمجتمع الأمريكي. ومن ثم فالمفهوم التاريخي "للجندي المواطن" قد بدأ يضعف. عندما نخوض حرباً لا بد وأن نكون أمة منخرطة في الحرب بالتوافق مع انخراط المواطنين بشتى الطرق والوسائل، بدءاً من المستويات العريضة للمجتمع الأمريكي، وذلك بهدف الدفاع عن مصالح أمننا القومي في الداخل والخارج.

ولعل أحد المخاطر الكبيرة في خضم صراع الأفكار في العالم الإسلامي يكمن في الواقع الجيوسياسي لاحتياطي البترول والغاز الموجود حاليًا في منطقة الشرق الأوسط الكبير. قد يؤدي عدم الاستقرار في هذه المنطقة إلى تمزق اقتصادي عالمي كبير خاصة في الوقت الذي تكون فيه القدرة على زيادة الإنتاج النفطي محدودة مع الطلب المتزايد على الطاقة ليس فقط في الولايات المتحدة

ولكن من قبل قوى عالمية كبرى صاعدة مثل الصين والهند. ومن ثم فإن العمل على وضع سياسة أمريكية للطاقة تستجيب للظروف الطارئة في الحفاظ على الطاقة وإيجاد مصادر بديلة لها، يشكل تحدياً للسياسة العامة ولا بد وأن تتصدى له وتضعه في أعلى سلم أولوياتك.

سيدي الرئيس، أنت "صوت أمريكا". وسواء كنت تعالج مسائل قومية أو دولية فإن صوتك هو أهم صوت يمكن أن يؤثر على مواقف الدول من الولايات المتحدة. ودبلوماسية دولتنا لا بد وأن تحمل طابع موافقتك ودعمك الحماسي والتزام طويل الأجل. فأنت سيادة الرئيس الشخص الذي يدير دبلوماسيتنا العامة. ولقد غاب عن دبلوماسيتنا العامة التوجه الاستراتيجي وذلك منذ تفكيك أدوات الإقناع التي استخدمناها بفاعلية واقتدار أثناء الحرب الباردة. والمهمة الآن تتلخص في إعادة استخدام هذا الدور بطريقة فعالة في حكومتنا ومؤسساتها. ومن ثم فإن التعريف المعزز للدبلوماسية العامة يجب أن يكون على النحو التالي"حاول أن تنصت أولاً وتفهم ما تسمعه ومن ثم تستطيع أن تمد الجمهور بالمعلومات ثم الالتزام والتأثير على الدول الأخرى". وهذه هى طريقة العمل التي يجب أن تتبعها الدبلوماسية العامة، ويجب أن يكون الهدف الأساسي لكل إدارة في الولايات المتحدّة هو إنجاز هذه النقاط بفعالية وبوضوح في كلّ من الغاية والرؤية. فالتغيرات التنظيمية الهامة في هيكل الدبلوماسية العامة وبنيانها ومواردها وبرامجها وعملياتها قد تمت في السنوات الأخيرة وتستطيع إدارتك أن تبني على ما تم من إنجازات. فنحن غالباً ما نسمع نقداً يوجه لنا بأن السياسة هي التي تتسم بالغباء وليست الدبلوماسية العامة. إلا أن الحقيقة والواقع يشيران إلى مقولة مؤداها أنه إذا كانت السياسة والقيم تؤلف ما يقرب 80% من كيفية رؤية الدول لنا في أوقات اليسر والعسر فلا شك من أن الـ 20% الباقية تشكّل دور الدبلوماسية العامة والطريقة التي نستطيع بها التواصل بفاعلية مع مستمعينا من الأجانب وإعلامهم بشأن سياستنا وقيمنا وهويّتنا كأمّة وشعب. يتوجب على

فريق الدبلوماسية العامة أن يكون جزءاً لا يتجزأ من عملية صياغة سياستنا الخارجية وأداة أساسية في السلوك الفعلي لهذه السياسة.

هناك حاجة ملحة لبناء كوادر مهنية من المدنيين والعسكريين ورجال الاستخبارات حتى تكون على اطلاع تام بلغات وثقافات العالم الإسلامى.

نحن في حاجة إلى تدرب مستمّر حول اللغات وبرامج التعليم الثقافي، حتى يصبح لدى العاملين في السلك الدبلوماسي الطلاقة المطلوبة في اللغة العربية على سبيل المثال كي يستطيعوا الدخول إلى محطات الفضائيات العربية مثل محطة الجزيرة للتعبير عن سياسة الولايات المتحدة بفاعلية وكفاءة والدخول في حوارات حول هذه السياسة.

سأحاول في هذه الصفحات وضع خطة استراتيجية لتوجيه وقيادة الدبلوماسية الأمريكية العامة. فإذا ما أخذنا في الاعتبار على سبيل المثال خطورة الكلمات والصور في أي صراع وتطاحن للأفكار كذاك الصراع الدائر الذي يشنه الأصوليّون والإسلاميون فالطريقة التي تستطيع الولايات المتحدة أن تعبر من خلالها عن قيمنا ومصالحنا وسياساتنا في هذا الجزء من العالم أمر في غاية الأهمية، فعظمة الولايات المتحدة تكمن في النموذج الذي طالما أرسته عبر التاريخ بالنسبة لشعبنا والعالم. تشير الإحصاءات الموسّعة إلى أن غالبية المسلمين لديهم الإعجاب الشديد والانبهار الكبير بقيمنا الأمريكية في التحرر وحرية التعبير والصحافة وحرية الاجتماع وسيادة القانون والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان والمرأة والأقليات، والتعددية والمساواة في الفرص والتعليم العالي والعلوم والتكنولوجيا واقتصاديات السوق والرخاء الاقتصادي الذي تدعمه هذه الاقتصاديات. وإذا كانت الولايات المتحدة تحافظ على هذه المثل والقيم بحق فإنه سيكون لدينا القوة التي تمكننا من التأثير على - وليس تقرير - الأحداث العالمية طبقاً للمبادئ الأساسية التي نؤمن بها.

وفي أغلب الأحيان نكون غائبين عن الساحة وذلك لت

ومضمون قيمنا القومية وسياساتنا الخارجية، وكرئيس لمجموعة من أعضاء الكونغرس ذهبوا إلى المغرب عام 2003 للتحدث عن الدبلوماسية الأمريكية العامة قيل لي "إذا لم تعرف نفسك في هذا الجزء من العالم فإن المتطرفين سيحدّدون هويتك"، ومن ثم فإن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتحمل مثل هذه النتيجة.

إن طريق التصدي للتحدي الاستراتيجي للأفكار والمفاهيم وصراعها في العالم العربي والإسلامى مليء بالأخطار والفرص. إن العجز الشديد في التنمية البشرية الذي تعاني منه المنطقة وشبح العنف والإرهاب المستمر وسفك الدماء والصراعات التي أغرقت هذه المنطقة، سيكون له نتائج وخيمة تتعدى حدود هذه المنطقة من العالم وتؤثر علينا نحن في وطننا الأم. إن هذا الموقف المعقد يتطلب حتمًا إدارة هذه الأزمات والأهم على المدى الطويل إيجاد حلول للصراعات الإقليمية وإحراز تقدم حقيقي على صعيد القضايا الرئيسيّة والأسباب الكامنة وراء عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتي يستغلها المتطرفون من الإسلاميين الأصوليّين لتحقيق غايات سياسية وأيديولوجية. وإذا أخذنا في الاعتبار الوضع المتميز الذي تحظى به الولايات المتحدة في عالمنا اليوم فإنه يمكننا أن نقول إن أمريكا تستطيع عمل الكثير بالتعاون مع المجتمع الدولي ودول المنطقة للتأثير على التقدم المستقبلي، من دون تقريره أو تغييره بأنفسنا، الذي يمكن أن يؤثر في العالم العربي والإسلامي للعيش في ظل العدالة والسلام والرخاء في المستقبل.

كما أن الصراع لتقرير التوازن بين التقاليد وقوى الحداثة والتغيير في العالم الإسلامي يجب أن يحدث في إطار ثقافات ومجتمعات هذه المنطقة. أستطيع أن أقول إنه بصياغتك للسياسات المستنيرة ومتابعتها فإنه ستتاح لك فرصة تاريخية فريدة للتأثير على مجرى وسير الأحداث لتحقيق أهداف إيجابية، وسيتطلب ذلك الإرادة السياسية القوية والعزيمة وذلك بهدف إنجاز هذا العمل

العظيم، إذ إنه يتوجب علينا أن نتعلم من نجاحات وإخفاقات الماضي وأن نتسم بالتواضع والشجاعة للاعتراف بأخطائنا وذلك ليس فقط لتجنّب الاستمرار في هذه السياسات الخاطئة وإنما لنستعيد قوة ومكانة الولايات المتحدة في هذا العالم والنظر إلى هذه التجربة بوصفها تجربة فريدة في الديمقراطية والتحرر والحرية. إن المخاطر كبيرة إذا ما فعلنا غير ذلك وسلكنا طريقاً آخر.

مع وافر الاحترام

إدوارد ب. دجيريجيان

الفصل الأول

خطاب في الميريديان

ما هي أخطاء السياسة الخارجية الأمريكية في العالم العربي والإسلامي؟ إن هذا السؤال يقودنا إلى ذكر أشياء عديدة:

- لماذا وصلت مكانة أمريكا إلى الحضيض طبقاً لاستبيانات الرأي العام في المنطقة؟
- لماذا يُنظر إلى السياسات الأمريكية في الدول الإسلامية على أنها سياسات تتسم بالنفاق إذا ما قورنت بالقيم الأمريكية؟
- لماذا كان شعار "الحرب على الإرهاب" اسمًا على غير مسمى؟
- كيف يمكن التوفيق بين تنمية الديمقراطية وإعلاء شأنها ووصول حماس إلى السلطة من خلال انتخابات ديمقراطية والوصول إلى حل لهذه الإشكالية؟
- لماذا كان المحافظون الجدد يدعون للديمقراطية ويدّعون أنه يمكن فرضها في عموم منطقة الشرق الأوسط؟ وأين الخلل في هذا الادعاء ولماذا أصبح مغلوطا؟
- ما الذي يمكن فعله لدعم مسار الديمقراطية وتقدمها وذلك من

خلال عملية بناء المؤسسات وسيادة القانون وذلك على المدى الطويل؟

- كيف يمكننا إحداث توازن بين القيم الأمريكية وقضايا الأمن القومي بأساليب وطرق تعكس بحق حياتنا الاستراتيجية ومخاوفنا؟
- ما هي الدروس المستفادة من العراق التي يمكن تطبيقها مع الأنظمة الحاكمة في كل من سوريا وإيران وأماكن أخرى؟
- لماذا يتوجب على الولايات المتحدة التحدث والتفاوض مع خصومها وأعدائها؟
- لماذا يتوجب على الرئيس الأمريكي أن ينخرط بفاعلية ويقود المسيرة في تحريك كل من العرب وإسرائيل في اتجاه السلام المبني على التفاوض؟
- لماذا يتوجب على الولايات المتحدة أن تركز اهتمامها على جنوب شرق آسيا وخاصة على كل من باكستان والهند كجزء من المنحى الاستراتيجي الذي يجب أن تتخذه في المنطقة؟

يجب على الأمريكيين أن يتفهموا أن كل هذه القضايا جزء من أحد أكبر التحديات الهامة لعصرنا هذا: صراع الأفكار بين قوى التطرف وقوى الاعتدال في العالم العربي والإسلامي. كما يجب علينا أن نفهم أن نتيجة هذا الصراع ستؤثر على مصالحنا القومية، إذ إن هذا الصراع صراع أجيال يتخطى كثيرًا ظاهرة الإرهاب، هذا علاوة على أنه ليس هناك انتصار مبكر وحاسم على الإرهاب وأن هدفنا الأكثر واقعية ينحصر في تهميش الأصوليين الإسلاميين في إطار استراتيجية أكبر.

نحن منخرطون في صراع كبير لم يكن يتوقعه معظم الأمريكيين.

ففي غضون أكثر من أربعة عقود بعد الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات الدولية تتركز بدرجة كبيرة جداً على الانقسام بين الإمبراطورية السوفياتية ذات الأنظمة الديكتاتورية والاقتصاديات ذات التخطيط المركزي، والعالم الحر ذي الأنظمة والحكومات الديمقراطية واقتصاديات السوق. وكانت الحرب الباردة تدور حول كوكبنا وتؤثر على كل منا في كل مكان وكانت سياسة أمريكا الخارجية مثل سياسة الكثير من الأمم الحرة لم تدفعها الجهود الجماعية، كما أنها لم تستفد من هذه الجهود التي تسعى لاحتواء العدوان والتوسع السوفياتي. ثم فجأة تفكك الاتحاد السوفياتي بسبب سياسات كل من إدارة ريغان وإدارة بوش وكان علينا أن نتأقلم ونتكيف مع المشهد الدولي الجديد.

وبدأ المثقفون والعلماء وصانعو السياسة والصحفيون والحكماء في وضع الخطوط التي ظنوا أن العالم سيتفتح على أساسها في المستقبل. ولقد أعلن العالم السياسي لـ"جون هوبكنز" والمدعوّ فرانسيس فوكوياما "عن نهاية التاريخ". وقد أشار في هذا الإعلان إلى أن الديمقراطية الليبرالية ستنافس كل الأنظمة السياسية على الساحة في كوكبنا هذا ـ وفي أسلوب أقل تفاؤلاً تنبأ العالم السياسى من جامعة هارفارد صامويل هانتنغتون "بصراع الحضارات" والذي يرى فيه أن الصراع القادم لن يكون أيديولوجيًا أو اقتصاديًا بل ثقافيًا. وتنبأ هانتنغتون أن الدول ستظل اللاعب الأقوى في عالم الأمور والشؤون الدولية إلا أن الصراعات الرئيسية للسياسات الدولية ستنحصر بين الأمم وجماعات من حضارات مختلفة وعديدة. إن صراع الحضارات سيسود السياسة الدولية. والخطوط الخاطئة بين الحضارات ستكون خطوط المعارك في المستقبل.

وبصفتي مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى في إدارة كل من جورج بوش ووليام كلينتون قمت برسم سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، والعالم الإسلامى في وقت حرج شهد الكثير من التحولات الحاسمة في المشهد الجيوسياسي.

لقد كانت لحظة أعددت فيها لكل مستقبلي المهني.

وبما أنني قمت بالعمل الدبلوماسي في منطقة الشرق الأوسط والاتحاد السوفياتي ألمّ بي الشعور بأن الواقع الذي سنواجهه سيكون أكثر تعقيدًا مما يظنه البعض ومما تناقش فيه الكثيرون وتوقعوه أو تنبؤوا بقدومه؛ كما كنت قلقًا بدرجة كبيرة من أننا في بحثنا عن عدو جديد سنبدأ في تعريف الإسلام على أنه العدو القادم للولايات المتحدة، والذي يجب علينا مواجهته. ومن منطلق مسؤولياتي عن قسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية ظننت أنه من الأهمية بمكان لحكومة الولايات المتحدة أن تبدأ في الإعلان عن تقييمها للقوى اللاعبة في منطقة الشرق الأوسط والمسار الذي ستسلكه الولايات المتحدة تجاه الدول الإسلامية بوجه عام.

واعتقدت أن أفضل أداة للقيام بهذا العمل يكمن في إلقاء خطاب رسمي يبدأ بوضع أُطُر للقضايا التي تواجهنا كأمة والتي يجب علينا مجابهتها في هذه المنطقة المهمة من العالم. واختبار ردود الفعل بالنسبة لهذه الأفكار في داخل الولايات المتحدة وخارجها. ولقد عقدت سلسلة من الاجتماعات مع علماء وخبراء الشرق الأوسط ومحللي الاستخبارات الحكوميين ومسؤولين سياسيين. وبعيد تحضيري لموضوعي الأساسي والتوصيات التي افترضتها بصدد السياسات، جلست مع اثنين من ألمع موظفي السلك الدبلوماسي وذلك بهدف رسم مخطط لما عرف بعد ذلك في دوائر السياسة "بخطاب الميريديان".

ولم ألق نظرة واحدة على المسودات الثلاث التي أعدها هؤلاء الخبراء. وباستخدامي لتكتيك تعلمته من هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق عندما كنت أعمل معه لسنوات سابقة، فقد أرجعت هذه المسودات معقبًا "إنها ليست جيدة". وعندما اتفقنا أخيرًا على النص النهائي، ذهبت لمقابلة وزير الخارجية جيمس بيكر. وكان جالسًا في مكتبه الخاص في الدور السابع بمبنى وزارة الخارجية؛ لقد كانت بيننا علاقة عمل وثيقة كنت قد كوّنتها خلال السنوات التي

عملت فيها سفيراً للولايات المتحدة في دمشق، وكان يقوم في ذلك الوقت بجولات مكوكية بين دمشق والقدس، والتي أدت إلى مؤتمر مدريد للسلام عام 1991. أعلمته بمضمون الخطاب الذي كنت أنوي إلقاءه وطلبت منه الموافقة على هذا الطلب. نظر إليّ آنذاك، وسألني بضعة أسئلة استجوابيّة، ثم أردف قائلاً "هذا جيد ولكن كن حذرًا". وتركت مكتب بيكر مع شعور بالقلق يساورني بالنسبة للقضايا الخلافية التي يتضمنها الخطاب. وشعرت بأني مستمر في حياتي المهنية كدبلوماسي.

أما الموضوعات الرئيسية التي عالجها خطابي في الميريديان في واشنطن في الرابع من حزيران/يونيو عام 1992 فقد كانت تبنتها كل من إدارة جورج بوش (الأب) ووليم كلينتون وجورج بوش(الابن) كأساس لمبادرات معينة تتعلق بالسياسة. وإطار هذه السياسة يظل صالحاً حتى يومنا هذا وذلك في ضوء الهجمات التي تعرضت لها الولايات المتحدة في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 والتحول المستمر للإرهاب والحرب والصراع وعدم الاستقرار الذي يصيب منطقة الشرق الأوسط الكبير. ويمكن تلخيص خطاب الميريديان على الوجه التالي:

- إن الولايات المتحدة لا تنظر إلى الإسلام على أنه العدو الذي يواجه الغرب أو يهدد السلم العالمي. وهذا التصور الذي نرفضه لا يعدو إلا أن يكون استجابة مبسطة لواقع معقد؛ هذا إضافة إلى أن هذا التصور يتلاعب به المتطرفون.
- إنّ الأعداء المحتملين الواجب مواجهتهم هم الإرهاب والتطرف الذي يمكن أن يرتدي عباءة علمانية أو دينية.
- إن التنافس بين الإسلام والغرب لن يستبدل بالحرب الباردة. لقد انتهت الحروب الصليبية منذ زمن طويل، والأمريكيون يعترفون بأن الإسلام أحد الأديان الكونية العظيمة وتمارس شعائره في كل القارات. ومن بين هؤلاء الذين يدينون بالإسلام ملايين الأمريكيين،

وكغربيين نحن نعترف بأن الإسلام قوة حضارية تاريخية قد أغنت ثقافتنا.

- في ربوع الشرق الأوسط وشمال أفريقيا نشهد ظهور جماعات أو حركات تسعى لإصلاح المجتمعات والتمسك بالمثل الإسلامية. هذه المثل يعبّر عنها بالعديد من الطرق والأساليب. ومن مجموع بليون وأربعمائة مليون مسلم في العالم يعيش 80% من المسلمين خارج العالم الغربي ويختلفون كثيراً في العرق واللغة والثقافة، وهناك مجموعات كبيرة من السكان المسلمين في جنوب وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا، وينقسم العالم الإسلامي أيضاً إلى طائفتين كبيرتين: الطائفة السنية (85%) والطائفة الشيعية (15% تقريباً) وكلتا الطائفتين لهما طوائف فرعيّة.
- نحن لا نكتشف أي كتلة متناغمة أو مجهود دولي وراء الجماعات والحركات الإسلامية، إلا أننا قلقون بدرجة كبيرة لاستغلال إيران للجماعات المتطرفة في ربوع المنطقة، ومن ثم فإن التنسيق بين تلك الأنظمة والجماعات المتطرفة التي تلجأ إلى الإرهاب يتطلب منا الحذر والحيطة. وفي تحليلاتنا الأخيرة يمكننا القول إنّ الظلم الاجتماعي وغياب الفرص الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، علاوة على الفشل في حل الصراعات الإقليمية وخاصة الصراع الدائر بين إسرائيل وجيرانها العرب يساعد الإرهابيين في تجنيد أنصار لهم يستغلونهم لتحقيق مآرب سياسية.
- هذه الحكومات التي تسعى لتوسيع المشاركة السياسية في المنطقة ستجدنا مؤيدين لها وداعمين. غير أننا نحذر من هؤلاء الذين يستخدمون العملية الديمقراطية للوصول إلى السلطة للقضاء على هذه العملية وتدميرها، وذلك بهدف البقاء في السلطة والهيمنة السياسية. نحن في الولايات المتحدة نؤمن بمبدأ "لكل شخص

صوت واحد". ولقد ترجمت هذه العبارة بطريقة فضفاضة لتعني "لكل رجل صوت واحد ومرة واحدة"، ولقد تعمدت استخدام "شخص" لتعني حق النساء في التصويت. وعلى أي حال لقد أثارت هذه العبارة جدلاً كبيرًا وتم تفسيرها على أنها إشارة مباشرة إلى الانتخابات المعد لها في الجزائر عام 1992 والتي ألغاها العسكريون وذلك لإحباط أو تعويق انتصار انتخابي أحرزته جبهة الإنقاذ الإسلامية. وبالتأكيد فنحن جد قلقون بالنسبة لإمكانية وصول هذا الحزب الإسلامي الأصولي إلى سدة الحكم واستحواذه على السلطة في هذا البلد المهم مع ترافق وصوله إلى الحكم، وتأثير ذلك على زعزعة الاستقرار في كل من المغرب وتونس والآثار المترتبة على ذلك. إلا أننا أشرنا إلى نقطة أهم في هذا السياق تعكس قلقنا بالنسبة لأحزاب وجماعات إسلامية معينة في هذه المنطقة يمكنها أن تستخدم الانتخابات كأداة من أدوات العملية الديمقراطية الانتخابية، وذلك بهدف الوصول إلى السلطة وهدفها الأوحد هو تدمير العملية الديمقراطية الانتخابية وذلك للبقاء في السلطة والحكم وترفض رفضًا قاطعًا أن تتنازل عن هذه السلطة إذا ما انتهت الانتخابات المستقبلية إلى رفضها والتخلي عنها وكانت نتائجها عكس توقعاتها. ولعل هذه القضية ستظل تحتل أهمية كبيرة في طريق السعي لتنمية الديمقراطية وتعزيزها في منطقة الشرق الأوسط عامة. وبطريقة فاجعة ومأساوية بعيد أحداث المؤسسة العسكرية الجزائرية وما قامت به عام 1992، فقد هوت البلاد وغرقت في حرب أهلية قضت على أكثر من مائة ألف قتيل. غير أن عفوًا حكوميًا صدر عام 1999، كانت نتيجته التخفيف من أسوأ التوترات، إلا أن الإسلاميين الأصوليّين ما زالوا ناشطين ومنخرطين في ارتكاب أعمال عنف في الجزائر.

- نحن نختلف مع هؤلاء مهما كان دينهم في ممارسة الإرهاب واللجوء إلى العنف ورفض الحلول السلمية للنزاعات والصراعات وقمع الأقليات والدعوة إلى التعصب وعدم التسامح واحتقار التعددية السياسية والتقليل من شأنها أو انتهاك الأعراف المقبولة دولياً فيما يخص حقوق الإنسان. وببساطة فإن الدين لا يحدد إيجاباً أو سلباً طبيعة علاقاتنا مع الدول الأخرى. فنزاعنا هو مع التطرف بذاته والعنف وإنكار الآخر والتعصب وعدم التسامح والتهديد والإكراه والتخويف والرعب والفزع المصاحب له.
- وفي إطار هذه الاعتبارات كلها، فإن الأهداف الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية تبقى متناغمة ومتماسكة وواضحة. فنحن نسعى إلى تحقيق سلام عادل وشامل ودائم بين إسرائيل وجميع جيرانها بمن فيهم الفلسطينيون، نحن نسعى إلى ترتيبات أمن قابلة للحياة والاستمرار تعمل على التأكيد على الاستقرار وسلامة الوصول إلى مستودعات النفط الهائلة في الخليج العربي، كما نسعى إلى تعزيز الإصلاحات السياسية والاقتصادية في عموم منطقة الشرق الأوسط ولدينا التقدير الكافي والشديد لثقافة وتقاليد مجتمعات المنطقة ودولها.

ولقد ظلت القوة الاستراتيجية الدافعة لهذه السياسة التي لخصتها وحددتها في خطاب الميريديان قوةً معزّزة للاستقرار السياسي والاقتصادي والتقدم في عموم منطقة الشرق الأوسط، هذا بالإضافة إلى تحطيم كل محاولات الإسلاميين الأصوليين لاستغلال هذه القضايا لتحقيق أهدافهم السياسية وخاصة تلك المحاولات التي تهدف إلى قلب الأنظمة الحاكمة الحالية أو ما يسمونه "العدو القريب"، وتأسيس دول إسلامية أصوليّة كما فعل آية الله الخميني في إيران عام 1979، وما يستمر أسامة بن لادن بفعله في عموم المنطقة.

وفي صباح يوم مشمس في أيلول/سبتمبر عام 2001 عندما هاجم إرهابيو القاعدة والمنتمون إلى بن لادن برجي التجارة العالمية والبنتاغون، وهي رموز أصيلة رئيسية "للعدو البعيد"، استيقظت أمريكا على حقيقة وواقع كان يفهمه خبراء الشرق الأوسط على مدى سنوات طويلة. إن صراع الأفكار في العالم الإسلامي بين هؤلاء الذين يسعون إلى تحديث مجتمعاتهم في إطار إسلامي وهؤلاء الإسلاميون الأصوليّون الذين يسعون إلى فرض نظام استبدادي ديكتاتوري يضرب بجذوره في معتقدات إسلامية دينية؛ هذا الصراع سيشكل مستقبل العالم الإسلامي. وبما أنّ الشعوب في هذه المنطقة ستحدد نتيجة هذا الصراع فمن الضروري أن يسود خط الاعتدال الإسلامي في هذه المنطقة. ولرسم سياسات فعالة مؤسسة على ما يجرى من أحداث ووقائع في المنطقة وذلك فيما يخص العالم الإسلامي والتي يمكن أن يؤيدها الجمهور الأمريكي، يجب أن يفهم صانعو السياسة في الولايات المتحدة الإسلام بكل تعقيداته مع التركيز على الديناميكيات السائدة بين التقليد والحداثة في الثقافة الإسلامية.

قوس الأزمات

إن الحاجة إلى إطار متماسك ومتلاحم للسياسة بخصوص العالم الإسلامي أصبح أمرًا ملحاً، حيث تبرز تحديات السياسة الخارجية على طول مسار قوس يمتد من القرن الأفريقي في الغرب وحتى شبه القارة الهندية في الشرق ويزحف إلى البلقان والقوقاز وشمال أفريقيا والشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا. لقد بدأت تبرز صراعات في البوسنة وكوسوفو والشيشان والجزائر وغزة والضفة الغربية ولبنان وأفغانستان والعراق وكشمير. وكل بقعة من هذه البقع لها تاريخها المميز العرقي والسياسي. إلا أن النداء الذي يجمع كل هؤلاء "الله أكبر" يذكرنا بخيط ساطع يجري من خلال هذه الخيوط المجدولة لشبكة عنكبوتية معقدة:

المسلمون يؤكدون هويتهم وأهدافهم السياسية عبر كل المسلمين وغير المسلمين.

ففي الفئة غير المسلمة نرى المسلمين ضد الصرب في البوسنة وكوسوفو، والشيشانيين ضد الروس في الشيشان، والجماعات الإسلامية الأصوليّة ضد الإسرائيليين، والمسلمين ضد الهندوس في كشمير والهند. أما الفئة الثانية وهم الرفاق من المسلمين فنجد الجماعات الإسلامية تعارض الأنظمة في العالم الإسلامي كما هو الحال في باكستان وسوريا والعراق والجزائر ومصر. أما ضمن الفئة الثالثة فنجد المسار القوسي للأزمة: المتطرفين الإسلاميين المنخرطين في أعمال العنف والإرهاب الذين يستهدفون من هم غير مسلمين:

- تفجير السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين عام 1992.
- تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993.
- خطف طائرة إيرفرانس عام 1994.
- تفجير نفق للمترو في باريس عام 1996.
- تفجير سفارة الولايات المتحدة في تنزانيا وكينيا عام 1998.
- الهجوم على المدمرة الأمريكية كول عام 2000.
- أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 والهجوم على الولايات المتحدة في الداخل.
- تفجير سيارة في بالي عام 2002.
- تفجير فندق في جاكرتا عام 2003.
- تفجيرات القطارات في مدريد عام 2004.
- أزمة الهجوم والرهائن في مدرسة بسلان عام 2004.

- الهجوم على وسائل النقل العام في لندن عام 2005.

هل هذا ما يعنيه صامويل هانتنغتون " بصراع الحضارات " الذي تنبأ به، أم هو تجل وإظهار لصراعات عرقية ودينية وثقافية معينة ازدادت في الحقبة التي تلت الحرب الباردة؟ إني أعتقد أنّ الفكرة الأخيرة هي الأكثر احتمالاً. ومهما كانت القضية فمن الواضح والجلي أنه يتوجب على صانعي السياسة التصدي الآن للعوامل الدينية والعرقية والثقافية بأسلوب ونهج لم يكن ضروريًا، وذلك أثناء المواجهة بين القطبين الكبيرين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وفي الحقيقة، فإن السياسة الواقعية والمنحى الذي تسلكه هذه السياسة والذي كان سائدا إبان فترة الحرب الباردة، كان مبنياً بدرجة كبيرة على توازن القوى والاعتبارات التي تنطوي على هذا التوازن، ومن ثم فإن هذا المنحى غير كاف للتعامل بفاعلية وشمولية مع حقائق اليوم.

إن المجتمع الدولي يجد نفسه الآن بدون إطار متماسك ومتلاحم يتعلق بالسياسة، حيث إنّها تستجيب للحرائق التي تشتعل هنا وهناك وتتفاعل معها على طول مسار قوسي للأزمة وفي كل الدول المنفردة. وإذا أخذنا في الاعتبار هذا السياق الجديد، فماذا يتوجب أن تكون عليه سياسة الولايات المتحدة تجاه الإسلام؟ كيف يمكن للولايات المتحدة بدورها القيادي أن تطور سياسة شاملة تجاه المسار القوسي للأزمات وتجاه دور الإسلام عبر هذا المسار القوسي؟

كنقطة بداية يتوجب على الولايات المتحدة أن تعترف بأن الانتشار المزعج للصراعات المحلية والإقليمية في هذا المسار القوسي يهدد المصالح الأمريكية الكبيرة وحتى الحيوية منها. ومن الأهمية بمكان للولايات المتحدة والديمقراطيات الصناعية أن تعترف بحقيقة مؤداها أن ثلاثة أرباع احتياطي النفط والغاز في العالم بالإضافة إلى أن مناطق إمداد البترول ونقاط الشحن المقامة على الأنابيب والكائنة في أماكن جد خطيرة وتكمن في إطار هذا المسار القوسي. بالإضافة إلى

الصراعات في هذه المنطقة، يمكن أن يكون لها تأثير كبير على إمدا
ـول والأمن وأسعار النفط. ولقد كانت حرب الخليج عام 1991 قد شنت لر
ـاء صدام حسين على الكويت وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل غزو
.. هذا علاوة على أن هذه الحرب قد شنت أيضا لحماية مثل هذه المصا
ـما نتطلع وننظر إلى الأمام في ألفيتنا الثانية، فإننا نجد أن الحاجة للط
ـد يوماً بعد يوم وخاصة لدى الصينيين والهنود الذين يسعون إلى تط
ـسادهم. ومن ثم فإن الإمدادات من النفط والغاز وكل أشكال الطاقة لا بد
تكون وفيرة ويمكن الاعتماد عليها.

والمناطق الرئيسية التي تدخل في نطاق المسار القوسي تشكل
ـاطر منها:

- التوتر بين المسلمين الألبان والصرب من المسيحيين الأرثوذكس يمكن أن يؤدي إلى زعزعة الاستقرار في البلقان مع الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن يتضمنه هذا التوتر من مخاطر للأم الأوروبي وحلف الناتو وروسيا.
- انبعاث الصراع في الشيشان يمكن أن يؤدي إلى ضعف الاستقرا في روسيا وزعزعته وابتعاد روسيا عن مسار إحلال الديمقراط والإصلاحات الاقتصادية.
- تجدد الصراع حول ناجورنو - وكاراباخ يمكن أن يجر ترك لتصبح في صف أذربيجان ضد أرمينيا، الأمر الذي يمكن أ يؤدي إلى تدخل الروس ومن ثم يقود إلى زرع التوترات ف علاقات تركيا مع أوروبا والولايات المتحدة.
- اشتعال العنف ضد النظام في الجزائر على يد التنظيم الإرهاب الذي عاد إلى الساحة مرة أخرى وكان مسؤولاً عن تفجيرا الجزائر عام 2007 والذي يسمّي نفسه الآن تنظيم القاعدة ف

المغرب الإسلامي. هذا التنظيم يمكن أن يخلق سابقة خطيرة في المغرب والعالم العربي وما يتضمنه ذلك من مخاطر على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التى تضم جالية مهاجرة كبيرة من المغرب.

- والأمر الأكثر أهمية في ظل غياب حركة داعمة مؤثرة في المفاوضات العربية الإسرائيلية، هو أن مجموعات مثل حماس وحزب الله والجهاد الإسلامي الفلسطيني يمكن أن نضعها في الاعتبار لتعظيم مجهوداتها ومساعيها لإفشال كل المساعي التي تبذل في هذا المجال. ومن ثم فإن الفشل في تحريك عملية السلام إلى الأمام يمكن أن ينطوي على مضامين خطيرة بالنسبة لمصر التي تعد معاهدة السلام المعقودة بينها وبين إسرائيل حجر الزاوية في بنية السلام العربي الإسرائيلي غير أنها تواجه تهديدات مستمرة من الداخل، وتأتى هذه التهديدات من المتطرفين الإسلاميين.
- أما في العراق، فإن زوال صدام حسين من الساحة بدكتاتوريته الوحشية لم يكن خسارة حيث إنه تسبب في إحداث أضرار كبيرة لشعبه كما كان يهدد المنطقة بسياساته العدوانية. إلا أن التدخل العسكري الأمريكي في العراق وسوء إدارة الاحتلال من البداية قد منح المتطرفين الإسلاميين (الذين يسمون أنفسهم بأتباع تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين) ملاذاً جديداً وقاعدة للعمل الجهادي، هذا علاوة على أن قوى الطائفية التي نمت في رحم الحرب في هذا البلد كان لها سلبياتها الكثيرة على الشعب العراقي كما كان لها نتائج وخيمة على المنطقة بأكملها.
- وفي أفغانستان نجد طالبان تطل برأسها مرة أخرى الأمر الذي يمكن أن يؤثر سلباً على الدول المجاورة ويعيد السيطرة للإرهابيين ويوجد ملاذاً آمناً للجماعات المتطرفة.

- إعادة تنظيم القاعدة وعودته في باكستان عام 2007 في مناطق الحدود مع أفغانستان، قد ادى إلى الهجمات التى نظمت ضد الحكومة الباكستانية والمؤسسة العسكرية الباكستانية. ولقد كان لاغتيال بناظير بوتو رئيسه الوزراء السابقة اثرا كبيرا فى دعم القاعدة الأمر الذي أدى إلى إعادة الثقة الكبيرة في هذا التنظيم لكي يتمكن من زعزعة الاستقرار في باكستان.
- يستمر النظام في إيران في دعم الجماعات الأصولية وتعزيز نفوذه في العراق.
- وفى الشرق تظل كشمير برميل بارود محتمل حيث تسود التوترات والنزاعات بين المسلمين والهندوس ومن ثم تقود هذه التوترات إلى تفاقم العلاقات الهندية الباكستانية، وهذا بالطبع يمكن أن يوصل هذه البلدان إلى صراع مسلح يكون فيه استخدام الأسلحة النووية أمرًا في غاية الخطورة وذلك إذا تطور هذا الصراع إلى أسوأ حالاته.
- وفى الهند نفسها فإن التوترات بين الهندوس والمسلمين قد تفاقمت وزادت حدتها منذ أن بدأت الجماعات القومية الهندوسية في قتل أكثر من مئتي ألف هندي مسلم في ولاية كَجرات عام 2002.

النظام العالمي الجديد/القديم

إن تفهم المخاطر يعد الخطوة الأولى لتطوير سياسة فعالة لكل من الولايات المتحدة وشركائها الدوليين. ولقد كان خطاب الميريديان محاولة للتحرك في هذا الاتجاه في فترة تاريخيّة حاسمة، وذلك عقب انهيار الاتحاد السوفياتي وبداية ما يمكن أن نسميه النظام العالمي الجديد/القديم. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية

مع قيام الشيوعية وبداية الحرب الباردة، كان هناك استقطاب للسياسة الدولية بين القوتين العظميين في هذا الوقت بالتوافق مع حلفاء كل منهما والدول العميلة لهما. فلقد كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة تعتمد على التنافس بين تلك القوتين على النفوذ والمؤيدين والمناصرين لكل منهما وكان العالم بالنسبة لهما كرقعة شطرنج دولية، على أساس المباراة الصفرية التي تعني أن نجاح أحدهما في إحراز نقطة لصالحه تكون خصمًا من حساب الآخر. وكانت طبيعة النظم السياسية أقل أهمية مما إذا كان هذا النظام في "معسكري" أو "معسكرك"؛ فعلى سبيل المثال كانت فترة حكم الرئيس إيزنهاور والرئيس خروشوف تتميز بالتنافس الحاد لاستقطاب مصر في المعسكر الغربي أو الشرقي ونجح السوفيات في ضم مصر إلى معسكرهم وظلت كذلك حتى تخاصم السادات مع موسكو ووقع الخلاف ونجح الرئيس السادات في إظهار قدرته السياسية على عقد علاقة استراتيجية مع الولايات المتحدة ووقّع معاهدة سلام مع إسرائيل أثناء حكم الرئيس جيمي كارتر.

أما داخل الاتحاد السوفياتي فكانت الحكومة المركزية تسعى إلى قمع الإثنيات العرقية بالقوة وضم أمم وجماعات متباينة وتمييز جماعات عرقية ودعمها دون غيرها من الجماعات الأخرى. غير أن تفكك الإمبراطورية السوفياتية قد أحدث موجة عارمة من القومية عبرت عن نفسها في الدول الحديثة الاستقلال والتي كانت داخل هذا الكيان. ولقد كان المشهد يشبه فيلماً قديمًا أبيض وأسود عن اغتيال الدوق فرديناند إمبراطور النمسا والمجر عام 1914 الذي كان بمثابة شرارة أطلقت لاشتعال الحرب العالمية الأولى. ثم حدث تجميد لأطر هذا الفيلم بعد الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 والتأسيس الذي تبع هذه الثورة للإمبراطورية السوفياتية. وبسقوط جدار برلين عام 1989 بدأ الفيلم يدور مرة أخرى مع إحياء النزعة القومية التي سادت الاتحاد السوفياتي. وبدأت القومية والعرقية والثقافة والدين في الظهور مرة أخرى في المقدمة وذلك في مجال الشؤون الدولية.

وكان غزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان أحد مظاهر بداية النهاية لهذه الإمبراطورية السوفياتية. وكان من نتائج هذا الغزو انتشار الحركات الأصولية الإسلامية، وظهور اسم المجاهدين على الساحة كمحاربين متحمسين رأوا في محاربتهم للشيوعية حربًا مشروعة، يساندهم فيها الله. ثم تطورت جماعة المجاهدين وظهرت في شكل ما يسمّى بحركة طالبان التي استولت على السلطة في خضم الفوضى التي أعقبت الحرب وبدأت تؤسس لنظام حكم قمعي ديكتاتوري.

كما هو الحال في الزواج الطويل حيث يسود حكم العادة وترفها نحن نعيش في عالم تعوّدنا فيه على الاستقطاب ولم نكن على استعداد كاف للتعامل مع الانحلال والتفكك الذي يسود العالم، وانبعاث قوى العرقية والقبلية والثقافية والدينية مرة أخرى لتؤثر على سياسات الدول بطرق هامة. وفي هذا المحيط الجديد يجب على الولايات المتحدة أن ترسم سياسات تكون أكثر فاعلية في خدمة القيم الأمريكية ومصالح الأمن القومي الأمريكي.

الفصل الثاني

الإسلام والديمقراطية

"نحن أصدقاء للحرية على امتداد العالم كله، ولكننا لن نخرج عبر الحدود بحثًا عن الوحوش لندمرها
جون كوينسي آدامز، 1823"

يجب أن تتسم سياسة الولايات المتحدة تجاه الدول الإسلامية والأحزاب والحركات في العالم الإسلامي بالتنوع والانخراط والحوار. فالعالم الإسلامي ليس مثليًا أو كلاً متشابهًا؛ فهو يتكون من دول متعددة ومختلفة، ومن ثم فإن سياستنا لا بد وأن تعكس هذا الواقع، أي أن تفهم دور الدين في المجتمع الإسلامي والفوارق بين المعتدلين من المسلمين من جهة والأصوليين من جهة أخرى؛ كما يجب علينا أن نتفهم أشكال الحكم في الدول الإسلامية والفرق بين الدنيوية وعدم المبالاة بالاعتبارات الدينية وما يسمّى بالعلمنة ونزع السيطرة الإكليريكية ونراها كعوامل يمكن أن تؤثر على الأسلوب الذي يمكن أن يرسم به كل أشكال الحكم النيابي والديمقراطية. وانخراط الولايات المتحدة مع حكومات المجتمعات الإسلامية والأحزاب السياسية والمنظمات غير الحكومية والاتحادات

المهنية والإسلاميين والكيانات الأخرى تتطلب معرفة اكثر مما أظهرناها حتى يومنا هذا.

نتائج غير مقصودة

فشلت إدارة جورج بوش في إدراك النتائج غير المقصودة لتعزيز الديمقراطية أو تغيير النظام بالقوة العسكرية في العراق. ولقد كان هذا المسار الذي سلكته إدارة بوش قد أطلق العنان لقوى الطائفية والتمرد والإرهاب في البلاد، كما أعطى الفرصة السانحة لإيران لتعظيم نفوذها في العراق والمنطقة، كما أن هذه الإدارة لم تدرك أن الانتخابات في مناطق السلطة الفلسطينية ستتمخض عن انتصار حماس في هذه الانتخابات عام 2006. وبمقاطعة حكومة تقودها حماس، فقد أعطت الإدارة الانطباع في العالم العربي والدول الإسلامية أن الولايات المتحدة حكومة منافقة في دعوتها العامة للديمقراطية في المنطقة. فقد بيّن استطلاع للرأي قام به معهد غالوب 2005 أنه بينما كان نشر الديمقراطية هو الهدف المعلن للولايات المتحدة فإن الغالبية من دول العالم الإسلامي أبدت معارضة على الإعلان الذي أعلنته الولايات المتحدة وخامرتها الشكوك في عدم جديتها في إقرار النظم الديمقراطية في المنطقة. ولم يكن هناك سوى 24% في مصر والأردن - و16% في تركيا قالوا إنّهم يثقون بنوايا الولايات المتحدة. وكانت هناك موافقة كبيرة في لبنان 38% وإندونيسيا 48%؛ إلا أن الغالبية من اللبنانيين 58% والأندونسيين 52% اعترضوا على الدعوة التي نادت بها الولايات المتحدة.

الدنيوية والعلمنة والتعددية

من السذاجة ألا نعترف أن الدول الإسلامية والأحزاب والحركات الإسلامية

ستلعب دوراً سياسيًا مهمًا في العملية الانتخابية. ففي هذه البلاد يعدّ الدين مصدرًا رئيسيًا للهوية الاجتماعية، وذلك لكل من الفرد والمجتمع؛ ومن المتوقع أن يلعب الدين دورًا محسوسًا في الأمور السياسية. ولعل التحدي الكبير الذي تواجهه الدول الإسلامية في تطورها في اتجاه المشاركة السياسية والديمقراطية هو رسم الهياكل السياسية التي يمكنها التوفيق بين المفاهيم الدينية والحكم العلماني. فهذه المهمة تصبح معقدة إذا ما أدركنا حقيقة في العالم الإسلامي وهي أنّ العلمانية غالبًا ما تحمل معانٍ دنيوية بل ومعانٍ مضادة للدين الإسلامي.

في كتابه "لا إله إلا الله" يؤكد رضا أصلان أهمية التمييز بين الدنيوية والعلمنة. ومقتبساً من العالم الديني في "هارفرد" المدعوّ "هارفي كوكس" يبدي أصلان الملاحظة الآتية:

> "العلمنة هي العملية التي يتم من خلالها نقل المسؤوليات من السلطات الإكليريكية إلى السلطات السياسية"، بينما الدنيوية لا تعدو أن تكون أيديولوجية مبنية على استئصال الدين أو اجتثاثه من الحياة العامة. فالدنيوية تتضمن تطورًا تاريخيًا يحرر فيه المجتمع نفسه من السيطرة الدينية والأفكار الميتافيزيكيّة المغلقة. فالدنيوية في حد ذاتها لا تعدو أن تكون نظرة مغلقة من العالم. وكما يقول "كوكس" فهي تعمل وتؤدي وظيفة تمامًا مثل دين جديد، فالشيء المهم الذي يجب أن يفهمه المسلمون هو التعددية وليس الدنيوية التي تعرف الديمقراطية كطريق رئيسي؛ فالديمقراطية يمكن أن تؤسس على إطار معياري أخلاقي ما دامت التعددية تظل مصدرًا لشرعيتها، ولدى الإسلام التزام بالتعددية الدينية. فأسس التعددية الإسلامية يمكن أن نلخصها في نص قرآني لا نقاش فيه ﴿لا إكراه في الدين﴾ (سورة 256:2)؛ ومن ثم فتأسيس ديمقراطية إسلامية على نمط التعددية أمر حيوي، لأن التعددية الدينية تعد الخطوة الأولى في بناء سياسة فعالة في حقوق الإنسان في الشرق الأوسط.

وما يجب إيصاله في هذا المجال بوضوح إلى المسلمين في المنطقة أن الولايات المتحدة دولة علمانية مع إعطاء الحرية الكاملة للدين لكل الناس، وعلى المسلمين أن يفهموا أيضًا أنه بالرغم من أن الولايات المتحدة دولة علمانية رسمياً وتتسم بالتعددية، إلا أنها تمنح الحرية الدينية الكاملة لكل البشر كما أنها دولة متدينة باقتدار وأكثر الدول حيوية في هذا المجال.

التشوق والحنين لحدائق قرطبة

إن أشكال البنى الديمقراطية التي يمكن للدول الإسلامية أن تتخذها، قد تعكس الدور المركزي الذي يحتله الدين في هذه المجتمعات. ويحتاج صانعو السياسة أن يتفهموا تاريخ الحضارة الإسلامية ومنجزاتها السابقة وذلك لكي يتعين عليهم أن يقدروا ويدركوا الإحباط الراهن والواسع الانتشار وذلك في ضوء العظمة التي فقدوها والصراع الذي لا مفر منه مع الحداثة. ففي فيلم لورنس العرب نرى الأمير فيصل وهو من سلالة النبي محمد (ﷺ)، الذي شهد به ت. لورنس على أنه الأمل الأعظم الذي يقود الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية التي بدأت تزول؛ يقول للورانس "إني أحن وأشتاق لحدائق قرطبة".

وفيصل هنا لم يعنِ أنه يودّ أن يكون في أسبانيا وإنما كان يسترجع ذكرى العهد الذهبي. ففي خلال مئة سنة بعد وفاة محمد (رسول الله ﷺ) عام 632 بعد الميلاد، انتشر الإسلام من بلاد العرب إلى اسبانيا ووصل شرقًا إلى الهند. ونتيجة لذلك أصبح الإسلام الروح المشعة الممتلئة حيوية لمراكز حضارية مزدهرة وغنية، وقد كان إحدى الحركات المرموقة في تاريخ البشرية وكان نجاحه دليلاً على أنه دين من عند الله.

وفي خلال أكثر من 500 سنة كانت السلالات الإسلامية الحاكمة تتركز في كل من دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة، وما فتئت هذه السلالات تخلق

وتترأس المراكز الثقافية والعلمية الرائدة في العالم. وفي مسعى لجمع كل المعلومات والمعارف المتاحة، ترجم العلماء المسلمون أعمال ومؤلفات الإغريق القديمة إلى العربية ومن ثم عملوا على حفظها رغم أن ذلك لم يتم كي يتم نقلها فيما بعد إلى الغرب. وعليه فإن العرب لم يكونوا نشيطين فقط وإنما وهبوا حياتهم للعلم والتعليم وكانوا على درجة كبيرة من الإبداع، ولقد أحرزوا تقدمًا مذهلاً في كل فروع العلم والمعرفة ومنها الفلسفة والعلوم والأدب والفنون والعمارة وخاصة الرياضيات.

وبينما كانت معظم دول القارة الأوروبية تعيش في العصور المظلمة، كان العالم الإسلامي الوسيط ينعم بالثقافة والمعرفة. وكانت بغداد نفسها موطنًا لـ 300 مدرسة، وتنعم قرطبة بسبعين مكتبة تضم وحدها 4 آلاف مجلد. وكان الأمير فيصل على دراية بأيام المجد تلك، ولقد سأل الإنكليزي لورانس ما إذا كان يعي أن مدينة قرطبة العربية كانت تعج بأميال من الإضاءة العامة (ميلين) في الشوارع عندما كانت لندن قرية، كانت إجابة لورانس على النحو الآتي: "نعم أنتم كنتم عظماء"، إلا أن معرفة فيصل بأن هذه الأيام قد ولّت كانت واضحة في إجابته التي عبرت عن تألمه الكبير لما وصل إليه حال المسلمين الآن "منذ تسعة قرون مضت".

ولقد كان ضعف قرطبة ونهايتها إيذانًا بسقوط أسرة الأمويين عام 1031 إلا أنها لم تكن نهاية الإمبراطورية الإسلامية. ففي الإمبراطورية العباسية المتمركزة في بغداد ازدهرت الثقافة الإسلامية كما ازدهرت الثقافة والعلوم وكانت هذه الفترة هي العصر الذهبي للعالم الإسلامي. ومع ذلك فلقد بدأت سلطة الخلافة تزول، بينما كانت هناك مراكز قوى تنمو وتتطور في ربوع الإمبراطورية الإسلامية، وأُعدم آخر الخلفاء العباسيين على يد الغزاة من المغول. فلقد شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر صعود إمبراطورية المغول في شبه القارة الهندية، كما لمع نجم الإمبراطورية الصفوية في إيران، هذا علاوة على انتشار وامتداد الإمبراطورية العثمانية التى وصلت إلى أوج عظمتها في عصر سليمان

العظيم الذي حكم اسطنبول من عام 1520 إلى عام 1566. واستمرت هذه الإمبراطورية التي تعد واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ وبقيت على قيد الحياة مدة طويلة حتى أصابها الضعف تدريجيًا، وذلك حتى هزيمتها في الحرب العالمية الأولى التى لعب فيها الأمير فيصل وت. لورانس دورًا مهمًا، وكان انهيارها الرسمي عام 1922.

إن غروب شمس هذه الإمبراطوريات العظيمة وصعود القوي الأوروبية المصاحب لهذا الغروب، وخاصة القوى الفرنسية والبريطانية والروسية، قد خلق أزمة وجود للعالم الإسلامي، وأصبح واضحًا أن هذه الدول الأوروبية (التي كان المسلمون ينظرون إليها باحتقار لكونها دولاً متخلفة قياسًا بالازدهار الذي نعم به العالم الإسلامي) كانت بحق قد تفوقت على المسلمين في العلوم والتكنولوجيا والتجارة وأمور الحرب.

كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر؟ إذا كانت الفتوحات الإسلامية القديمة والمجد الذي حظيت بها الإمبراطوريات الإسلامية أمرًا يدعو للإعجاب والدهشة والإعجاز، فمن الواضح أن الله كان في صف المسلمين، فهذا المجد دليل على ذلك. غير أن الهزيمة التي لحقت بالمسلمين والذل الذي لاقوه لم يكن يعني سوى أن نعمة الله قد زالت عنهم. هل النجاح والقوة يعتمدان على طاعة الإرادة الإلهية؟ فالخروج عن طريق الإسلام، يعني أن المسلمين افتقدوا رعاية الله وحمايته وهدايته، والتفسير الإلهي حكم بهذا الوضع، الآن وقد حدث ما حدث. ومن ثم فإن أزمة بمثل هذا الحجم تتطلب استجابة ورد فعل، ولقد تعرض المسلمون لكثير من الأزمات، وهناك من يطمع في مزيد من الهيمنة على ربوع العالم العربي والإسلامي.

مصادر الشريعة الإسلامية

إن نقطة البداية التي لا مفر منها لكل هذه الاستجابات وردود الفعل تكمن في

الدور الذي تلعبه الشريعة التي هي أساس القوانين الإسلامية. والشريعة ليست مجموعة من القوانين المفردة والتي لا تتغير والمعترف بها عالميًا والتي وضعها النبي محمد (ﷺ). فلقد تطورت عبر القرون حيث قام المسلمون بغزو مناطق جديدة من العالم وواجهوا ظروفًا جديدة أو متغيرة. ولأنّ القرآن لم يزود المسلمين بكل الإجابات التي يحتاجونها، لجأ المسلمون إلى السُنّة وهي السلوك والممارسة وأقوال الرسول في المدينة، كما لجأوا إلى الحديث وهو الأقوال والقرارات الشفهية والأحكام التي تنسب إلى النبي، ثم الإجماع وهو ما توصل إليه واجتمع عليه أهل المدينة أثناء أو بعد زمن النبي، ثم القياس وهو المقارنات المبنية على مبادئ القرآن وسوابق كانت في المدينة جمعت، ومن ثم تكون العناصر الأساسية للشريعة وهو الطريق الذي لا بد للمسلمين أن يتبعوه.

وإذا أخذنا في الاعتبار غياب التأكد مما قاله النبي (ﷺ) وصحابته أو ما فعله النبي وصحابته فضلاً عن مرونة في التفسير مبنية على المقارنات، فليس هناك ما يدعو للدهشة أن هناك جدلاً كبيراً حول محتواه وتطبيقه، الأمر الذي أدّى إلى نشأة مدارس الفقه، كما كانت هناك اختلافات في فهم متطلباته (مثل ما تراه بعض الدول الإسلامية من منع المرأة من قيادة السيارات بينما تترك دول إسلامية أخرى النساء لقيادة الأمم مثل رئيسة الوزراء في باكستان الراحلة بناظير بوتو)، ومع ذلك فهناك اتفاق وإجماع كاف بالنسبة للقوانين الإسلامية وما يجب أن تكون عليه حكومة أساسها الشريعة الإسلامية واختلافها عن حكومة لا تقوم على الشريعة.

الاجتهاد وإعمال العقل

في القرون الأولى، كان علماء الفقه والشريعة يعتمدون على ما يطلق عليه الاجتهاد. ويعني اللجوء إلى العقل والتفكير العميق للوصول إلى أحكام الشريعة والتفسيرات في حالات تكون فيها الشريعة غامضة. إلا أن اللجوء إلى الاجتهاد لم

يصبح أمراً محبيًا في القرن العاشر الذي يشار إليه "بسدّ الأبواب أمام الاجتهاد"، ومنذ ذلك الحين يعتمد معظم الأتقياء من المسلمين على الاجتهاد والتقليد ويقبلونه ويعتقدون أن القانون والشريعة كاملة وتحتاج فقط للتفسير والتطبيق ومن ثم لا تتعرض للإضافة أو المراجعة. إذا وضعنا في الاعتبار عقيدتهم في سلطة وسلطان الإمام فإن الشيعة لا يشاركون الآخرين في هذه النظرة إلى الأمور كما كان الحال مع السنة.

والبديل عن الإسلام كان دومًا العقيدة السياسية للقرن العشرين وهي القومية. ولقد كان الهدف للكثير من الأنظمة الوطنية في منطقة الشرق الأوسط، الحصول على الاستقلال من المحتلين الأجانب وخاصة القوى الاستعمارية الكولونيالية البريطانية والفرنسية. وبمجرد حصول هذه الدول على الاستقلال أصبح دعاة الوطنية والقومية ممسكين بالسلطة وممانعين للتشارك مع الأحزاب والطوائف الأخرى في السلطة. ومن ثم فإن مفهوم المعارضة الموالية والوفية يعتبر مفهومًا غريبًا. الإصلاحات الداخلية والممارسات الديمقراطية قد أهملت وظل الهم الرئيسي هو البقاء في الحكم. وقد أدى ذلك إلى فساد السلطة، وفي كثير من الحالات كان العسكر يتدخلون ويستحوذون على السلطة السياسية في سلسلة من الانقلابات كما هو الحال في سوريا عندما استولى حسني الزعيم على السلطة عام 1949، وكما هو الحال أيضًا عندما استولى جمال عبد الناصر على السلطة في مصر عام 1952.

ولعل تطور النمو السياسي في المنطقة منذ ذلك الوقت كان ينحصر في شكل إصلاحات جزئية وما يسمّى أوتوقراطيات انتخابية (أو حكم الفرد) مع التواجد القوي للمؤسسات العسكرية والأمنية ومظهر خارجي ديمقراطي بحواشيه وزخارفه. وفي الواقع كان هناك ميل قوي لحكم الفرد الواحد في الكثير من دول الشرق الأوسط وبلدانه وكان ذلك في شكل ملكيات أو ديكتاتوريات.

ولكي تكون هناك إصلاحات سياسية واقتصادية مستدامة في الدول

الإسلامية، لا بد وأن يكون هناك مراعاة للمفاهيم الإسلامية، التي يمكن أن تخلق أشكالاً إسلامية للديمقراطية "أو ما يطلق عليه الاجتهاد"، أي ممارسة الأحكام التي تعتمد على إعمال الفكر والعقل والتدبر؛ وهي ما يسمّى "البيعة" وهو قسم الولاء لشيخ القبيلة. والشورى، ونعني بها ممارسة التشاور بين الحكام والشعوب بهدف عقد انتخابات لاختيار ممثلي الشعب. والإجماع، هو مفهوم الاتفاق الجماعي في الرأي كأساس لسيادة القانون والحكم البرلماني. ولا يجب أن نتوقع أنّ فصل الكنيسة عن الدولة الذي تطور عبر التاريخ بطرق ووسائل شتى في الغرب يمكن أن ينسخ طبق الأصل في عموم منطقة الشرق الأوسط، فهناك الكثير من المتغيرات بالنسبة لهذا الموضوع.

وحتى لو ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ الفكر السياسي الإسلامي لوجدنا أن هناك جدلاً قويًا بالنسبة لموضوع العلاقة المناسبة واللائقة بين الدين والدولة.

الإصلاحات في فترة الحكم العثماني

يفضّل الكثير من قادة الدول الإسلامية تبني الأساليب الغربية والتي تشمل التخلي عن دور الشريعة كأساس للقانون والمجتمع أو التقليل الجاد من دورها. ولقد أعجب حكام الإمبراطورية الإسلامية بالكثير من أوجه الحكم الغربي وبدأوا بإجراء إصلاحات عديدة، وذلك في مسعى للإبطاء من انهيار الإمبراطورية. ولعل أكثر هذه الإصلاحات شهرة والجديرة بالذكر كانت متضمنة فيما يطلق عليها بتنظيمات إعادة تنظيم القوانين واللوائح، وكان ذلك في المرسوم العالي أو الأمر العالي الصادر في عام 1839 بأمر السلطان عبد المجيد الأول، داعيًا إلى التغييرات التي أحدثها أبوه السلطان محمود الثاني.

ولقد دعا المرسوم العالي إلى إعادة تنظيم النظم المالية والقانونية على نمط النظم المعمول بها في فرنسا علاوة على تأسيس جامعات وأكاديميات حديثة

ونموذج للبرلمان هناك، وأكثر ما يلفت الانتباه في هذه التغييرات والإصلاحات هو زوال الأضرار والعوائق المبنية على الدين. ومنذ عهد السلطان محمد أصبح اليهود والمسيحيون، وهم أهل الكتاب، في وضع أفضل؛ وكان مبدأ التسامح هو الساري في الإمبراطورية حيث كانوا أفضل حالاً من قرنائهم المسلمين في الدول التي يسيطر عليها ويهيمن على إداراتها المسيحيون. إلا أنهم كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، هذا بالإضافة إلى وجود عوائق وصعاب أخرى أمامهم؛ فلقد كانوا يقومون بدفع الجزية في مقابل الأمن والأمان وقليلاً من الحرية ولم يكن يطلب منهم "زكاة" وهي ضريبة يدفعها المسلمون.

ولقد ألغى مرسوم التنظيمات الجزية وأشار إلى كل سكان الإمبراطورية بالرعايا مع وجود ضمانات بالأمن على حياتهم وثروتهم وشرفهم. وأعلن المرسوم أيضاً "أن الفروق الدينية والطائفية هي فروق تخص أنفسهم وأشخاصهم ولا تؤثر على حقوقهم في المواطنيّة. وحيث إننا كلنا نعيش في نفس الدولة تحت حكم الحكومة نفسها فمن الخطأ أن يكون هناك تمييز بيننا". غير أن خليفة السلطان عبد المجيد وأخاه السلطان عبد العزيز ألغى عددًا من هذه الإصلاحات إلا أن بذورًا مهمة لهذه الإصلاحات قد زرعت.

كمال أتاتورك والمصلحون المحدثون

شهدت الحقبة التي تلت، قبول بعض الدساتير وإلغاءها، كما شهدت برلمانات أسست وحلت وحركات إصلاحيين يعرفون "بالأتراك الشباب" أو "تركيا الفتاة"، الذين أعادوا وضع وتأسيس الدستور وقللوا كثيرًا من سلطات السلطان. ولعل أكثر التغيرات الدراماتيكية هو مبدأ العلمانية الذي أسسه مصطفى كمال أتاتورك وهو قائد عسكري يتمتع بكاريزما وشخصية ساحرة تفتتن بها الجماهير. ولقد قام هذا القائد بطرد الأوروبيين المحتلين من تركيا وأسس جمهورية تركيا الحديثة عام 1923، ولقد أثبتت حركته بأنها واحدة من الحركات

التي تتمتع بقوة ديناميكية للتغيير والتحديث في التاريخ الإسلامي. والعامل الرئيسي في هذه الحركة هو فصل الدين عن الدولة. هكذا لم يعد الدين أساسًا للدولة، الأمر الذي نتج عنه تغيير جذري في الدور التقليدي للإسلام في النواحي الاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية.

وعلى النقيض من النموذج والمثال الإسلامي للأمة، برزت حضارة متغيرة تمامًا وثقافة جديدة حيث القومية فيها هي حجر الزاوية في نظام كمال أتاتورك، وأسست تركيا كجمهورية يرأسها رئيس منتخب ويحكمها برلمان منتخب، مع الأخذ في الاعتبار أن سلطة وقوة الدولة ترتكز نظريًا على الشعب بما فيه النساء كمواطنات متساويات. ولقد لعبت الحكومة دورًا كبيرًا في إدارة اقتصاد البلاد مع شكل من أشكال اشتراكية الدولة أو رأسمالية الدولة، وبدأت المدارس بناءً على أوامر عليا بتقديم فروض الإجلال والولاء لأتاتورك والجمهورية، وحذف المحتوى الإسلامي من المنهاج المدرسي، وتراجع دور الدين إلى المستوى الفردي. وحتى في هذا المجال أصبح الدين خاضعًا لسيطرة الدولة حيث ألغى أتاتورك الزي التقليدي الإسلامي وأخذ يحابي الزي الغربي.

لم تحذُ هناك أي دولة إسلامية أخرى حذو تركيا في فصل الدين عن الدولة، غير أن العديد من المثقفين الإسلاميين المؤثرين والنشطاء السياسيين الذين يسمون بالإسلاميين المحدثين حاولوا أن يصنعوا رؤية للإسلام الأصيل الذي لا يتطلب رفض الأفكار والممارسات الغربية. وكان جمال الدين الأفغاني (1838 ـ 1897) واحداً من هؤلاء، وهو أفغاني المنشأ إلّا أنه قضى وقتًا طويلاً في مصر وباريس وسافر كثيرًا إلى أوروبا، وأما الثاني فكان محمد عبده (1849 ـ 1905) وهو قاض سني في مصر تأثر بجمال الدين ولحق به إلى باريس حيث قام بنشر وطبع جريدة تدعى الإصلاح. ولقد نادى كل منهما بمقولة مؤداها أن أفضل السبل وأكثرها مصداقية وتأكيدًا لاستعادة مجد الإسلام الضائع هو الرجوع إلى مواقف ومناحي أسلافنا من السلف الصالح الذين كانوا يتمتعون بالعقل والحكمة والمنطق، وكانوا أناسًا عمليين لجأوا إلى العقل والمنطق

(الاجتهاد) حيث تتكيف الشريعة الإسلامية والممارسات مع الظروف المتغيرة. ولقد كانا يريدان من الدول الإسلامية أن تتخلص من الهيمنة والسيطرة الأجنبية، وشجعا التمرس بالعلم الحديث ونادیا بحكومات ديمقراطية وبالقوانين العلمانية والتعليم والحرية للنساء.

وكان هناك فريق من المثقفين المسلمين مثل محمد رشيد رضا (1865 ـ 1935) وهو سوري، كان ممن رفضوا التقليد (أي تقليد الماضي) وكذلك التعالي الذي رآه في العلماء أو رجال الدين، هذا علاوة على الشيخ علي عبد الرازق وهو أستاذ في جامعة الأزهر التي كانت تُعتبر عادةً مركزًا للعلوم الإسلامية. وقد كتب هذا الشيخ حديثاً طويلاً يمتدح فيه الثورة التركية وتحرر الحكومة من السلطة الدينية، واستطرد الشيخ قائلاً إن التقيد بالإسلام لا يتطلب الخلافة ولا أي شكل من أشكال الترتيبات السياسية؛ ولقد كان محمد رسولاً وكانت تعاليمه تعاليم إلهية تتعلق بالسلوك الديني. وأما الترتيبات السياسية التي أسسها فكانت تناسب الأزمان التي عاش فيها وكذلك المواقف التي عاشها ومن ثم لم يكن يقصد منها أن تكون طبقاً أو قالبًا لكل المجتمعات السياسية في كل الأقطار والأزمان. ومن ثم فإن المسلمين المحدثين هم مفكرون أحرار، وعليه فإن هؤلاء يجادلون بالقول إنّ تنظيم أي دولة يجب أن يتم طبقًا لظروف هذه الدولة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

غير أن أفكار وآراء الشيخ علي عبد الرازق لم تلقَ الدعم من الأوساط الدينية، ومن ثم فقد طرد من جامعة الأزهر ومن وظيفته كقاضٍ ديني.

الوهابية والنضالية

لقد كانت استجابة معظم القادة من المسلمين للتهديدات التي تشكلها الحداثة وتقليد الغرب عبر الإعلان عن أن الطريق الأوحد لكسب رضا الله ومن ثم استعادة مجد الإسلام وعظمته هو الانبعاث، أي الرجوع إلى الطريق الذي هجره

المضلّلون الذين أغوتهم مداهنات وتملقات الغرب الضحلة. ففي منتصف القرن الثامن عشر وذلك قبل أن تصبح المواجهات مع القوى الأوروبية خطيرة، بدأت تظهر في المجتمعات الإسلامية علامات خطيرة للتوتر وبدأ المصلحون يدعون إلى إعادة بناء المجتمع على أسس اجتماعية وأخلاقية إسلامية.

ولقد كانت الحركة الوهابية أهم هذه الحركات ويرجع إنشاؤها إلى محمد ابن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن السابع عشر. سعى الوهابيون إلى تنقية العقيدة والوصول بها إلى الكمال لدى المؤمنين، كما دعوا الحكام إلى مساعدتهم في هذا المسعى. وأكد هؤلاء الوهابيون سمة العالمية في الإسلام في المجتمع العالمي للمؤمنين ونعني به الأمة. ولقد طلبوا الدعم المحلي من حاكم محلي يدعى محمد آل سعود الذي أسّس اتحادًا تكافليًا من عالم دين يحظى بالاحترام وقائد قوي ثبت نفعه لكليهما. فلقد ساعد الوهابيون آلَ سعود في كسب السيطرة على معظم شبه الجزيرة العربية الأمر الذي عزز من قوة الوهابيين كحركة إحياء وانبعاث في التاريخ الإسلامي الحديث وهي حركة تحظى بتأثيرها الكبير حتى يومنا هذا.

وما زالت الحركة الوهابية حتى يومنا هذا مستمرة في الدعوة إلى أسلمة المجتمع وخلق نظام سياسي يمنح الإسلام الاعتراف اللائق به. ومن ثم فإن الحركة من أكثر التجارب بقاء وثباتًا وذلك في إطار رسالة الانبعاث والإحياء، ولقد أمدّتنا بمستوى يمكن للحركات الأخرى والدول الأخرى أن تقيس نفسها بالاستناد إليه.

وبعد تفكك الإمبراطورية العثمانية والانحلال الذي مرت به، ظهرت حركات إسلامية نشطة في دول أخرى، ففي مصر أسس حسن البنا وبعض رفاقه (لم يكن أحد منهم من رجال الدين) جماعة الإخوان المسلمين عام 1928. فمن منطلق قلقهم من الممارسات الغربية مثل الرقص واحتساء الخمر والذهاب إلى المسارح والانحراف في أوجه من التسلية المشبوهة التي يمكن أن تعمل على إفساد

الشباب، سعى هؤلاء الرجال إلى تأسيس برامج تعليمية وتعبدية، وذلك بهدف إعادة تثبيت التزامهم بالإسلام، وبذلك يمكن أن تعمل هذه البرامج على إصلاح الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد.

وعلى مرّ السنين، أصبحت الجماعة قوة كبيرة في معترك السياسة المصرية وظلت في صراع مع النظام الرسمي الذي كان في بعض الأوقات يقوم على التعرض لأعضائها رسميًا وسجنهم. وتضم الجماعة اليوم مهنيين من كل المهن وتوسعت في أنشطتها التي تضم عيادات طبية ومشاريع صغيرة وصناعات وكلها أعمال استمالت الجماهير وحازت على قبول المجتمع. إلا أن التوتر ازداد مع الحكومة التي ثبت فشلها في تلبية حاجات الناس من هذه الخدمات، وتظل مصر قلعة الإخوان الرئيسية إلا أن أنصارهم أسسوا في الدول العربية الأخرى فروعًا للحركة.

وفي أثناء حقبة السبعينيات بدأت جماعات إسلامية أخرى في الظهور وكلها مصممة على قلب الأنظمة الجاهلية (الكفرة والمرتدين) والهجوم على أعداء الدين الآخرين، ولعل أهم هذه الجماعات هي الجماعة الإسلامية التي كانت مسؤولة عن قتل السياح في الأقصر عام 1997، ثم الجهاد الإسلامي المصرية وهي الجماعة التي تورطت في قتل أنور السادات عام 1981. ولقد كان الشيخ عمر عبد الرحمن هو القائد الروحي لهذه الجماعة والذي أدين وسجن في الولايات المتحدة لتورطه في تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993. والشخصية القيادية الأخرى الأكثر شهرة هو أيمن الظواهري، أقرب الرفاق إلى أسامة بن لادن الذي يظهر على شاشات الفيديو وهو يرسل رسائل دعائية من تنظيم القاعدة تستهدف النظم العربية الفاسدة وإسرائيل والغرب.

ولقد ألهمت كتابات "سيد قطب" (1906 ـ 1966) إسلاميين متطرفين آخرين. ويعد "سيد قطب" أحد المفكرين المؤثرين في هذا المجال والمعارضين للحداثة. لقد كان "قطب" ينظر إلى حكومات المجتمعات الإسلامية كحكومات

كافرة وحث مؤيديه على قلبها وذلك باللجوء إلى أساليب العنف، لو اقتضت الضرورة ذلك، والعمل على استبدال قادة هذه الحكومات بقادة يرفضون القيم الغربية وأساليب الحياة في الغرب وتأسيس حكومات مبنية كلياً على الشريعة.

وفي الهند، وفي باكستان لاحقاً بعد أن حصلت على استقلالها، كان هناك أبو العلاء المودودي (1903 ـ 1979)، وهو واحد من أهم المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين والذي كان له تأثير كبير على "سيد قطب"، قد رفض بكل صراحة التعايش بين الشريعة والحداثة، وبالنسبة إليه فإن القرآن والسنة يكفيان تمامًا وغير قابلين للتغيير وهما المصدر الوحيد للمجتمع الإسلامي. وبينما ادّعى أنه يناصر الديمقراطية ويدافع عنها، إلا أن آراءه اتسمت بالمقولة الشائعة عنه والتي تقضي بأن كل من يصوت في الانتخابات لديه الفرصة لكي يصادق على ما تطلبه الشريعة. ومن ثم فالحكام الذين يحيدون عن التطبيق الصارم للشريعة ينعتون بالمرتدين ويجب إزاحتهم وإحلالهم بقادة ملتزمين بالشريعة. ولقد ذهب المودودي إلى أبعد من ذلك حينما جادل بالقول إنّ الإسلام يجب أن يسعى لتدمير كل الدول والحكومات في أي بقعة في العالم على ظهر الأرض والتي تعارض أيديولوجية وبرامج الإسلام بصرف النظر عن الدولة أو الأمة التي تحكمها .

في عام 1941، وقبل تقسيم الهند وباكستان، أسس المودودي الجماعة الإسلامية، وهي منظمة سياسية دينية كانت ذات قوة كبيرة للإسلام النضالي في باكستان وكانت مصدر إلهام لجماعات مشابهة في الهند وبنغلادش وكشمير وأماكن أخرى. ولقد كان للتأثير المستمر للمودودي الفضل الكبير؛ فلقد سعى حكام باكستان إلى إعطاء ثقل كبير للشريعة الإسلامية في إداراتهم. ولقد كان هذا الاتجاه قد قوي أكثر وأكثر وذلك بفضل إنشاء آلاف المدارس الإسلامية الدينية والتي غالباً ما كان يديرها الأصوليون. وكانت هذه المدارس تضم الكثير من الشباب وصغار السن الذين يتبنون نفس الأفكار الأصوليّة التي تبناها المودودي. وعلى عكس ما حدث في تركيا حيث تعمل المؤسسة العسكرية على

مراقبة السياسيين الذين يمكن أن يشكلوا تهديداً لالتزام الأمة الرسمي بمبدأ العلمانية، فقد كان الجيش الباكستاني دائماً مناصراً ومؤيداً للقادة الإسلاميين.

وأما في الأقطار التي يسيطر عليها السنة وخاصة في منطقة الشرق وغيرها من المناطق فقد نمت حركة يطلق عليها الحركة السلفية وذاع صيتها. والسلفية هنا تشير إلى مساعي المؤمنين لاستعادة روح وممارسات السلف الصالح أيام زمن السلف المتقين من المسلمين الأوائل. وهى حركة شأنها شأن حركات الإصلاح الأخرى، تسعى لتثبيت العقيدة. ولقد نادى المحدثون من الإسلاميين من أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده بما تنادي به هذه الجمعيات وتسعى لتحقيق هدف مماثل. إلا أن هؤلاء المحدثين أشاروا في كتاباتهم إلى إمكانية التكيف مع الأسلاف من المسلمين. إلا أن السلفيين المعاصرين يرفضون هذا المسار في محاولة تتسم بالمحاكاة والتقليد وإحياء ما يعتقدون أنه السلوك الحقيقي والواقعي للمتقين والطاهرين من المسلمين الذين لم يلحق بهم الفساد، وهذا يتضمن الاهتمام عن كثب بأمور ترتبط بالطقوس الدينية والمظهر الشخصي. إلا أن هذا المنحى يمكن أن يُحدث توتراً مع الحكومات الفاسدة.

تضّم أندونيسيا أكبر كثافة سكانية من المسلمين في العالم ويُقدّر عدد سكانها بحوالى 200 مليون نسمة، لكنّها ليست دولة إسلامية ويبدو أنه من غير المحتمل أن تصبح كذلك. وعلى الرغم من أن العناصر التقليدية وحتى الأصوليّة تتمتع ببعض القوة وخاصة في مقاطعة آتشي، فإن معظم الأندونيسيين ينتمون إلى شكل من الإسلام المعتدل الذي لا يتطلب رفض الحداثة. ففي عام 1945، ورداً على مساعي بعض المسلمين لإعطاء الشريعة صفة رسمية، تمكن الرئيس سوكارنو من صياغة فلسفة للدولة أو أيديولوجية تعرف "بالبنكتشيلا" تتضمن مبادئها الإيمان بإله واحد ووحدة وطنية وعدل اجتماعي ورحمة وإخاء وديمقراطية. ولعل مثل هذه المبادئ الغامضة كان يمكن تفسيرها لكي تتناسب ورغبات الحكام السلطويين وأهدافهم، إلا أنها كانت تضمن قدرًا كبيرًا من الحرية

الدينية لستٍّ من العقائد الدينية في أندونسيا (الإسلام، الكاثوليكية الرومانية، البروتستانتية، الهندوسية، البوذية، والكونفوشية) ومن ثم فلقد أسس سوكارنو روحًا شعبية تمكّن القادة السياسيين من مقاومة هيمنة الإسلاميين الأصوليّين.

وعلاوة على أندونسيا نجد بلداً مثل ماليزيا مزدحم بالسكان ويمتاز بالتعددية، إلا أنه يقدم نموذجاً مختلفاً يمكن أن يختبر حالياً إمكانية استمراره وبقائه. فالدستور الماليزي يقر بكل وضوح بالحقوق الأساسية التي يضمها والتي تنطبق على كل الماليزيين بصرف النظر عن دين المواطنين أو جنسهم أو سلالتهم أو موطن ميلادهم أو نوعهم. وفي واقع الأمر تشكل الأغلبية السكانية المسلمة ما يتراوح بين 50% و60% من مجموع سكان البلاد الذين يصلون إلى 23 مليون نسمة وكلهم يتمتعون بمزايا عامة، وعليه فإن القادة الحكوميين كانوا دومًا من الأغلبية المسلمة. وأما غير المسلمين فهم أحرار في ممارسة شعائرهم الدينية وغالباً ما يواجهون مقاومة لبناء كنائس أو معابد جديدة. وفي السنوات الأخيرة بدأت بعض الولايات في تطبيق الشريعة الإسلامية كقوانين، إلا أنها تطبق فقط على المسلمين. وبينما يحاكم غير المسلمين تحت مظلة القانون العلماني المدني فهم ينظرون إلى هذا التطور على أنه مقدمة لسياسات أكثر إسلامية. ومن الأمور التي تستدعي الاهتمام نجد أن بعض المسلمين المعتدلين بمن فيهم منظمات النساء المسلمات قد انضموا إلى المعتدلين لمقاومة مساعي الإسلاميين لتحريك البلاد في اتجاه أكثر ثيوقراطية ذات طابع ديني كما أبدوا تصميمهم على الالتزام عن كثب بالدستور العلماني.

كل هذه الأمثلة التي ذكرناها مقتبسة من المناطق التي يسكنها أغلبية سنية؛ إلا أن أكبر حدث وأهم مثال معاصر في تاريخ الإسلام السياسي في العالم الإسلامي هو الثورة الإيرانية عام 1979، عندما نجح النضاليون من الشيعة بقيادة آية الله روح الله الخميني في قلب نظام حكم الشاه محمّد رضا بهلوي، وإحلال حكومة دينية ثيوقراطية مؤسسة على "حراس الثورة وولاية الفقهاء"، وهم مجموعة من رجال الدين أو الملالي قادهم في البداية آية الله علي

خامنئي. وعلى الرغم من أن هذا النظام كان يغلب عليه القسوة في إرساء سياساته وإسكات معارضيه، إلا أنه يسمح الآن بقدر من الديمقراطية. فالمواطنون ذكوراً وإناثاً لهم حق التصويت في الانتخابات على كل المستويات وذلك لانتخاب مرشحين يوافق عليهم الملالي. ولقد كانت حقوق النساء مقيّدة كثيراً في بعض المناطق والمجالات إلا أنّه سمح لهم بالالتحاق بالمدارس والجامعات وشغل الوظائف العامة وأصبح لهم الحق في الترشّح للانتخابات.

ولقد حاولت إيران مراراً وتكراراً تصدير الثورة داعية المسلمين إلى إحلال الحكومات الإسلامية محل الحكام العلمانيين أو المرتدين وإعطاء الكثير من الدعم المالي والعسكري لمنظمات شعبية وسكان شيعة في كل من العراق ولبنان. وحتى في المناطق السنية مثل فلسطين، أمد الإيرانيون إخوانهم بالعون والدعم وخاصة تلك الجماعات الإسلامية الأصوليّة مثل حماس.

وأخيراً فإن هذه الأمثلة التي سردناها تعطينا فكرة واضحة عما يجري في العالم الإسلامي، ومن ثم فإنه يتوجب علينا أن نسلك منحى يتسم بالمرونة في تعاملنا مع هذا العالم ونتذكر دائماً أن هذا العالم يختلف في الكثير من الأمور في شتى أجزائه، حتى أنه ينطبق عليه القول "فسيفساء وليس كلاً واحدًا".

التقليد والحداثة

يجري النقاش الرئيسي بالنسبة لهذا الموضوع حول إشكالية ما إذا كانت الشريعة تعد أحد المصادر التي يُرتكز عليها في سن القوانين، أم أنها المصدر الوحيد لهذه القوانين في البلاد الإسلامية. ويبدو أن النموذج التركي للعلمانية الصارمة لن ينتشر خارج تركيا في المستقبل القريب. وفي الحقيقة، فإن هذا النموذج يخضع الآن لتوترات كثيرة. ومنذ عام 2001 قام معهد غالوب باستطلاعات رأي لعشرات الآلاف من الناس في 35 دولة مسلمة، وأحصى

معلومات لم يسبق لها مثيل حول أفكار المسلمين ومشاعرهم حيال بعض المسائل الهامة. وفي كتاب "جون إسبوزيتو" و"داليا مجاهد" الذي نشر عام 2007 والمعنون" من يمثل الإسلام؟ ومن يتحدث باسم المسلمين؟"، أكدا ما يلي.

> إن التأكيد الذي أبداه هؤلاء بأن النموذج الجديد للحكومات التي تؤمن بالديمقراطية وتحتضن في نفس الوقت القيم الإسلامية يساعدنا كثيراً في فهم حقيقة مؤداها أن الغالبية يفضلون جعل الشريعة مصدراً من مصادر التشريع. إلا أنه في القليل من الدول الإسلامية أفتت الأغلبية بأن لا مكان للشريعة في المجتمع؛ ومع كل ذلك، فإن أقلية من الناس يريدون أن تكون الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع. ففي الأردن ومصر وباكستان وأفغانستان وبنغلاديش تريد الأغلبية أن تكون الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع.

وفي خطابي في المرديان استخدمت عبارة "شخص واحد، صوت واحد، مرة واحدة" وذلك بجانب مبدأ تداول السلطة عن طريق الانتخابات ومفهوم المعارضة الموالية، وكلاهما يحتلان أهمية كبيرة جداً في نجاح أو فشل النماذج الديمقراطية في العالم الإسلامي. ولعل هذه الحقيقة ما زالت محل نقاش وحوار وخاصة في سياق حديث جورج بوش عن مبادرة إدارته لتعزيز الديمقراطية في عموم منطقة الشرق الأوسط.

الانتخابات ليست سوى عنصرٍ رئيسي من عناصر الديمقراطية؛ فمفاهيمها الأساسية تتضمن السيادة الدستورية للقانون ورضا المواطنين. وهذا يعنى أنه إذا أتيح لحزب سياسي أو جماعة الوصول إلى السلطة عن طريق الانتخابات، يتوجب على هذا الحزب أو تلك الجماعة أن تتنحى وتتيح الفرصة للآخرين إذا ما سنحت الفرصة لفوزهم.

ولقد كان الحديث عن السياسة في خطابي بالمريديان قد أعد خصيصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار الانتخابات اللاحقة في الجزائر والتي كانت قد جرت عام

1992 وإمكانية فوز جبهة الإنقاذ الوطني ووصولها إلى السلطة عن طريق هذه الانتخابات.

واستُقبلت عبارتي في ذاك الخطاب بإيجابية وبنقد في آنٍ واحد؛ فالبعض فسرها خطأ وذلك لأهداف سياسية بمعنى أن الولايات المتحدة تعارض بصراحة وبشدة وصول أي حزب إسلامي إلى السلطة في المنطقة، وأنها لا تهتم بغير الاستقرار في عموم منطقة الشرق الأوسط وذلك لخدمة مصالح الأنظمة الديكتاتورية في المنطقة، وعلى العكس فإن الهدف الأساسي مما قلته في هذا الخطاب هو الحاجة الملحة إلى إصلاحات سياسية واقتصادية ذات معنى في المنطقة، وإلى حل الصراع العربي الإسرائيلي كأهداف أساسية، سواء كانت هذه الأنظمة أنظمةً علمانية مثل نظام صدام حسين أو أصوليّة على نمط أسامة بن لادن. فالإصلاحات السياسية والاقتصادية ضرورية كمقدمّة لتطور الدول الإسلامية والعربية وجنوحها نحو الأنظمة الديمقراطية بشكل تتوافق فيه مع ثقافتها الخاصة وتقاليدها.

لذلك، نجد من الواقعي بشكل أكبر أن نتحدث عن توسيع المشاركة السياسية في منطقة الشرق الأوسط كحجر أساسي للتوصل إلى نظم ديمقراطية في المستقبل. فتعزيز الديمقراطية بدون توفّر سيادة للقانون وأحزاب سياسية وتطوير أو توسيع المجتمع المدني وحقوق الأقليات وإصلاحات أخرى رئيسية سيكون مآلها الفشل. والواقع أنّ هذه العملية طويلة الأمد، تنخرط فيها الأجيال من المسلمين.

وفي هذا السياق يجب علينا التفرقة بين الجماعات الإسلامية. ولأكون صريحا وواضحًا، بعض هذه الجماعات والحركات خارج النطاق ولا بد من معارضتها وصدها بقوة والعمل على تهميشها؛ فالإسلاميون الأصوليون من أمثال شبكة القاعدة والجهاد بين السلفيين الذين يستهدفون كلا من "العدو القريب" (الأنظمة الفاسدة في الدول الإسلامية) والعدو البعيد (الولايات المتحدة

ودول غربية وإسرائيل) الذين يعززون أجندتهم المتطرفة ويلجأون للعنف. ويقول "أوليفيي روي"، الخبير الفرنسي في شؤون الإسلام: إن القاعدة في الواقع ليس لديها أيديولوجية وأن التزامها بالشريعة ومناداتها بها لا تكون لها أيديولوجية. فكل من أسامة بن لادن وأيمن الظواهري ليسا مفكرين أيديولوجيين؛ وهو يصف القاعدة بأنها "اتجاه للانتقام" وبدون برنامج اجتماعي. فهي في الأساس منظمة عدمية تدعو وتعزز الإرهاب والتفجيرات الانتحارية. وكون تنظيم القاعدة يحتلّ وضعًا مركزيًا في صراع الأفكار في العالم الإسلامي هو أمر غاية في الغرابة، ويرى هذا الخبير أننا نعطيها أكثر مما تستحقه، وأنّه يجب أن نواجهها بكل الوسائل؛ فهي منظمة إرهابية، وأجندتها سياسية تهدف إلى تأسيس خلافة سلطوية شمولية.

إلا أن بعض الجماعات والأحزاب الإسلامية تمثل مدارس فكر إسلامية يمكن الانخراط معها حتى تشارك في العملية السياسية وإقناعها بالتقيد بقوانين اللعبة. ومن هذه الجماعات أو الأحزاب حزب العدالة والتنمية في تركيا الذي نجح في الانتخابات عام 2002 وحكم البلاد بزعامة رئيس الوزراء طيّب أردوغان، وكذلك حزب العدالة والتنمية في المغرب، وجماعة الإخوان المسلمين في مصر والأردن، وحزب العدالة المزدهر في أندونيسيا.

وهناك نوع آخر من الجماعات مثل حماس وحزب الله اللذين يمتلكان أجندة أصولية إسلامية ويلجآن للعنف ولهما أهداف إقليمية ومنها معارضتهما للاحتلال الإسرائيلي. إن التطورات على الأرض بين الإسرائيليين والفلسطينيين مثل فك الارتباط من جانب واحد الذي استخدمه باراك، وانسحاب قوات الدفاع من جنوب لبنان عام 2000، والانسحاب الأحادي من جانب آرييل شارون من غزة وأربع مستوطنات في الضفة الغربية عام 2005، يمكن أن تساعد في التقليل من سبب وجود هذه المنظمات مع الأخذ في الاعتبار الأحداث الأخيرة في كل من لبنان وفلسطين وذلك حتى التوصل إلى سلام شامل في المنطقة كلّها.

والتحدي الذي نواجهه مع حماس وحزب الله ينحصر في ما إذا كانا مستعدّين لتغيير سياستهما والابتعاد عن العنف والمشاركة السياسية في كل من لبنان وفلسطين، وهو جهد يجب أن يكون مدعوماً، لكن من دون أوهام حول التعقيدات التي قد تنجم، وخاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار برنامجيهما الأيديولوجي.

وفي هذا السياق فإنني أتفق مع رؤية شلومو بن عامي وزير خارجية إسرائيل السابق، عندما قال:

> إن الحوار مع الإسلام السياسي في شكل حماس على سبيل المثال ضرورة حتمية. فالإقصاء وتحريم التعامل مع حماس لن تؤدي إلى شيء وستحل الكارثة ومثال الجزائر واضح أمامنا. ففتح مجال للنشاط السياسي المشروع لهذه الأحزاب وأنشطتها بما يشمل اعترافنا بحقهم في الحكم هو الطريق الأوحد لتشجيع الاعتدال. لذلك، فإن التحدي الماثل أمامنا لا يكمن في تدمير الحركات الإسلامية التي تحظى بالتأييد الشعبي في العالم العربي، وإنما يجب علينا أن ندعم انتقالهم الهش من الجهاد الأصولي إلى سياسة المساومة.

ولقد تمت اتصالات بين دبلوماسيّي الولايات المتحدة وممثليها وجماعة الإخوان المسلمين في مصر، وعليه فإن هذا الحوار يجب أن يستمر. ففي عام 2005 سُئِل مرشد جماعة الإخوان محمد عاكف عما إذا كانت المنطقة مستعدة للتحدث مع الأمريكيّين، وكان رده بالإيجاب إلا أنه يجب على الأمريكيين أن يتقدموا بطلب إلى وزارة الخارجية بهذا الخصوص. وكان يعنى بذلك أن الجماعة لا تعمل في الخفاء وليست كيانًا منعزلاً عن الحكومة المصرية.

ولقد كتب جيمس تروب في مجلة نيويورك تايمز أن عضواً في جماعة الإخوان المسلمين أخبره "إننا نريد أن نرسي تصوراً بأن أي جماعة إسلامية يمكنها أن تتعاون مع أي جماعات أخرى معنية بحقوق الإنسان. فنحن لا نريد

بلداً مثل إيران التي تظن أنها تحكم بتفويض إلهي؛ نحن نريد حكومة مؤسسة على القانون المدني ولها مصدر إسلامي للتشريع".

وبالمثل، فلقد قال حازم فاروق منصور رئيس لجنة السياسة الخارجية لتكتل الإخوان في البرلمان المصري عن معاهدة كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل: "إننا نقبلها كاتفاق سواء رضينا أم لم نرض بها". فالقرآن، في السورة 55:8، يحضّ المسلمين على احترام المعاهدات. ولا شكّ في وجوب اختبار هذه التصريحات، وفي هذه الحالة فالسؤال الأساسي هو: إذا أخذنا في الاعتبار معارضة الإخوان المسلمين لمعاهدة كامب ديفيد والسلام مع إسرائيل فإن هذه الجماعة ستتخلى عن الالتزامات المنصوص عليها في المعاهدة في حال وصولها إلى السلطة.

خيارات صعبة

إن مهمة انخراط الجماعات والأحزاب الإسلامية يتطلب منا أولاً خيارات صعبة وحوافز وعقبات تطرحها دول المنطقة المنخرطة، وثانياً، عملية تشكيل وصياغة سياسات للمجتمع الدولي وخاصة الولايات المتحدة إذا أخذنا في الاعتبار دورها الرئيسي في منطقة الشرق الأوسط وعالمياً. وكما سبق أن أشرت في خطابي في الميريديان:

> نحن نختلف مع هؤلاء بغض النظر عن دينهم، هؤلاء الذين يمارسون العنف ويعملون على قمع الأقليات ويحضّون على عدم التسامح أو يخرقون المستويات المقبولة للسلوك الدولي والمتعلقة بحقوق الإنسان؛ ونحن نختلف مع هؤلاء الذين يغلّفون رسالتهم بغلاف السلطوية والذين يتبنون المواجهة الدينية والسياسية بدلاً من الانخراط البنّاء مع بقية العالم؛ كما إننا نختلف مع هؤلاء الذين لا يشاركوننا التزامنا بالحل السلمي للصراع وخاصة الصراع العربي الاسرائيلي، ومع هؤلاء الذين

> يحاولون الوصول إلى أهدافهم عن طريق القمع أو العنف. (وفي نفس الوقت)، فإن هؤلاء المستعدّين للقيام بخطوات معينة لتحقيق انتخابات حرة وخلق أنظمة قضائية مستقلة وتعزيز سيادة القانون والتقليل من القيود على الصحافة واحترام حقوق الأقليات وضمان الحقوق الفردية، سيجدون أننا جاهزون للاعتراف بجهودهم ودعمها، تمامًا كما سيجد هؤلاء الذين يتحركون في الاتجاه المعاكس أننا مستعدون للتكلم معهم ولدعم الأقوال بالأفعال.

وهذا المنحى الذي سنسلكه تجاه الإسلاميين هو أحد المكونات الرئيسة لتحدّي الديمقراطية في العالم العربي والإسلامي. وكخطوة أولى لا بد من أن تُبدي كل من حكومات المنطقة التزامًا، وتلتحم مع الإسلاميين وذلك في محاولة لأن يكونوا في خضم الاتجاه السياسي السائد الذي يتطلب منهم الاضطلاع بالمسؤولية في الأمور الحكومية وتحمّل مسؤولية اتخاذ القرارات حيال الأمور الصعبة. هذا علاوة على أن الدول خارج المنطقة يمكنها أن تشجع وتدعم بالكلمة والعمل الإصلاحات الهيكلية الاقتصادية والسياسية والمشاركة السياسية الأوسع والشفافية وبرامج محاربة الفساد وتعزيز حقوق النساء ودعمها وكذلك حقوق الإنسان الأخرى.

على الولايات المتحدة والدول الأخرى الرائدة في القيادة أن تأخذ في الاعتبار مميزات الانخراط مع الجماعات الإسلامية المستعدة للتخلي عن العنف والراغبة في الالتزام بتوسيع المشاركة السياسية في منطقة الشرق الأوسط؛ والواقع أنّ اتصالات مماثلة لا تؤدي إلى نتائج سلبية، وقد نفهم على الأقل بشكل أفضل القوى الديناميكية الفاعلة في البلاد الإسلامية. حقاً إن هذا المنحى يمكن أن يعزز من قدرتنا على صياغة سياسات تسهل عملية التمثيل السياسي الأوسع والإصلاحات الاقتصادية.

الأحزاب الإسلامية السياسية

كنت أتناقش في واشنطن عام 1992 مع الدبلوماسي المصري المحنك عبد الرؤوف الريدي عن استخدام الإسلام كأداة سياسية. وقال لي إن الحركات الإسلامية تسعى لكي تصبح أحزابًا سياسية حتى تستطيع الوصول إلى السلطة السياسية. فهي تبدأ كحركات دينية ولا تكشف عن دوافعها السياسية في البداية. فهم سيحاولون الاشتراك في الانتخابات وذلك في محاولة للاستيلاء على السلطة بالقوة. فعندما بدأت جماعة الإخوان في مصر عام 1928، برزت كمنظمة اجتماعية اقتصادية تؤكد على أن الله والدين هما ملجأ للفقراء والمحرومين. وفي الأردن أيضاً بدأت الجماعة كمنظمة اجتماعية إلا أنّها أعلنت عن نفسها كحزب سياسي عام 1940. أما في سوريا، فلقد بدأت كمؤسسة أو اتحاد ثقافي ونمت حتى أصبحت قوة سياسية كبيرة وحاولت قلب نظام حكم الرئيس حافظ الأسد الذي سرعان ما تحرك بسرعة وبفاعلية ضدّهم في حماة عام 1982 في عمل عسكري نجح في شل حركتهم تماماً. وفي السودان تسللت الحركة إلى صفوف المؤسسة العسكرية وقاسمتها السلطة في انقلاب عسكري.

ولقد سألت "الريدي" عما إذا كان في مصلحة المجتمع الدولي مشاركة هذه الجماعات في العملية الانتخابية آخذين في الاعتبار أنهم إذا شاركوا في تقاسم السلطة السياسية وأُجبروا على التركيز على قضايا الحكم، فربما يجنحون إلى الاعتدال في أفكارهم وآرائهم وسلوكهم. ولقد كان "الريدي" سلبيًا وأجابني: "إنها جماعات سلطوية ولن تسمح للعمليات الديمقراطية أن تتم".

إلا أنني أخبرته كيف أن سفير الجزائر أطلعني عام 1991 أنّ الانتخابات ستستمر وأن جبهة الإنقاذ الوطني لا بد من أن يُسمح لها بالوصول إلى السلطة إذا ما حازت على أغلبية الأصوات في الانتخابات القادمة. ففي رأيه إن الجبهة ليس لديها إجابات لمشاكل الجزائر الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة ومن ثم فهي ستفشل إذا ما تمكنت من الوصول إلى السلطة. إلا أن دبلوماسياً عربياً آخر

أخبرني أن المخاطرة كبيرة وأن جماعات الإخوان المسلمين في العالم العربي سيستغلون العملية الديمقراطية لتحقيق مآربهم وبمساعدة أجنحتها العسكرية سينشئون ويؤسسون لنظام فاشستي لينيني أو أنظمة ديمقراطية مركزية. وأكمل حديثه قائلا إنّه بسبب عدم وجود إجابات مستدامة جادة لمشاكل الفقر الواسعة لدى الأنظمة الحاكمة فإنّ الانتخابات الحرة ستسفر عن وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة في الدول العربية.

مكاسب وخسارات الأحزاب السياسية

تتقدم الأحزاب والحركات الإسلامية وتكتسب شعبية كبيرة في بعض الدول العربية مع وجود فترات مد وجزر عند الاقتراع. بدأ الإخوان المسلمون في مصر بخمسة عشر عضوًا ووصلوا إلى 88 عضوًا كمستقلين في انتخابات 2005 وهم الآن أكبر جماعة معارضة إلى البلاد. أما في المغرب فقد أصبحت العدالة والتنمية أكبر الأحزاب المعارضة؛ وفي الجزائر نجد حركة المجتمع المسالم تعمل مع رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة. كما نجد أن جبهة العمل الإسلامي في الأردن لديها 17 عضواً من أصل 110 أعضاء في البرلمان؛ إلا أن نصيب الجبهة في الانتخابات الأخيرة في تشرين الثاني/نوفمبر 2007 قد وصل إلى 5% بدلاً من 15% سنة 2003. والجبهة لها صلات مع جماعة الإخوان المسلمين ونجحت في الحصول على 6 مقاعد من أصل 17 مقعدًا كانت لها في البرلمان السابق، كما أن جماعة الإخوان المسلمين أيضًا هم جزء من المعارضة البرلمانية في اليمن والبحرين والكويت.

ومن الأهمية بمكان في هذا السياق أن نذكر أن القرارات التي اتخذتها الحكومات العديدة داخل المنطقة وخارجها كان لها أثر في دعم مكانة الأحزاب الإسلامية. ويقول البعض إنّ السادات قد ارتكب خطأً عندما أدخل الإخوان المسلمين في العملية السياسية حتى يكون هناك توازن بينهم وبين

الشيوعيين واليساريين. غير أن السادات فتح المجتمع المصري وسمح للمناقشات العامة بالانفتاح، الأمر الذي أدّى إلى خلق مواجهة عامة مفتوحة بين المتطرفين الإسلاميين والعناصر الأكثر اعتدالاً في المجتمع. وبينما كان السادات يسمح بتأسيس الأحزاب السياسية إلا أنه لم يسمح للجماعات والحركات الدينية بتنظيم يمكن أن يؤدي إلى تكوين أحزاب سياسية؛ لقد كان ينظر إلى هذه الخطوة على أنها خطوة ذكية. ولقد ارتكب الجزائريون خطأ عندما سمحوا للأحزاب السياسية أن تنظم نفسها على أساس من الدين، الأمر الذي أدى إلى العنف المأسوي الذي شهدته الجزائر بعد انتخابات عام 1992.

ولقد أيد الإسرائيليون حماس لكي تكون منافسًا لمنظمة التحرير في الثمانينيات إلا أنه بعد ذلك بعدة سنوات واجهت إسرائيل نتائج فوز حماس في الانتخابات عام 2006؛ وبذلك أصبحت تهدد القيادة الفلسطينية المعتدلة بقيادة فتح، كما أصبحت تهدد محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية.

ولقد دعمت الولايات المتحدة المحاربين المجاهدين في أفغانستان في محاولتهم لصد الغزو السوفياتي، وكانت هذه الاستراتيجية ناجحة وأدّت إلى هزيمة السوفياتيين من جهة ولكنها من جهة أخرى أدّت إلى خلق تنظيم "القاعدة".

الوظائف والتعليم

من المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن الإصلاحات السياسية والاقتصادية والتعليمية في المنطقة يجب أن تتم بالتزامن؛ ففي نقاشاتي مع الكثير ممّن تحدثت معهم من العرب بالنسبة لموضوع الدور السياسي للإسلاميين في الدول العربية، كانت العقدة واحدة؛ فمرارًا وتكرارًا أخبروا أن العملية كلها تدور حول

الوظائف والتعليم لكل من الرجال والنساء بالتزامن مع المشاركة في المجتمع المدني والحياة السياسية للبلاد. ولعل الجانب الكبير الذي ساعد على نجاح الإخوان المسلمين يكمن في حقيقة تأسيسهم لمؤسسات اجتماعية مثل المستشفيات والمدارس والصيدليات. وقد تصاعد نجمهم في خلق وظائف في صناعات مثل البلاستيك على سبيل المثال. ويجب أن نذكر هنا أن الحكومة المصرية تقدم دعمًا كبيرًا لقطاعات كبيرة من الشعب وذلك حتى تتجنب السخط الشعبي إلى جانب ما تقدمه جماعة الإخوان المسلمين التي انخرطت في منظمات سياسية بالتزامن مع تقديمها خدمات يحتاجها الشعب.

وطبقًا لدراسة قامت بها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، تبين أن ما يقارب 300 مليون في الشرق الأوسط، لا تزيد أعمارهم على 20 عامًا، وأنّ معدل البطالة في الكثير من البلاد تضاعف. لذا يجب إيجاد ما بين 80 مليون و100 مليون وظيفة وذلك بحلول عام 2020. أمّا اقتصاديات الشرق الأوسط فيجب أن تنمو بمعدل 6% أو 7% حتى تلبّي متطلبّات الديمقراطية. ومع كل ذلك فإن التفاؤل الحذر يسود تلك الأوساط. ومن الجدير بالذكر أن الاستثمارات الأجنبية في الدول العربية وصلت إلى 19 بليون دولار عام 2006 مقارنة بـ 4 بلايين عام 2001. ولقد زاد الاستثمار التكاملي منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وذلك عندما شعر المستثمرون العرب ورجال الأعمال بجو يسوده انعدام الحميمية وخاصة في الولايات المتحدة؛ فبدأوا يبحثون عن فرص استثمارية داخل المنطقة العربية. وبدعم من أسعار النفط العالية بدأت الدول المنتجة للبترول تعمل بنشاط في تنويع اقتصادياتها، وبدأت أسواق الأسهم والسندات المالية والبورصات تنفتح بالتزامن للتوصل إلى خلق تغيرات جديدة للتعاليم الإسلامية مثل تحريم الربا على القروض، التي كبحت من فرص النمو الاقتصادي. وإتاحة التمويل للعديد من قطاعات الاقتصاد المختلفة هو المفتاح. وعليه أصبحت الاستجابة لحاجات الشارع أمرًا ضروريًا.

ولعل إصلاح النظام التعليمي أمر غاية في الإلحاح ويمثل الأولوية في

طريق تحديث منطقة الشرق الأوسط. ولقد كانت اتصالاتي تؤكد على حاجات النظام التعليمي في العالم العربي وكيف أنّ الصرامة في النظام أمر ضروري علاوة على إبقاء التلاميذ في المدارس لثماني ساعات مع توافر الأنشطة غير المدرسيّة. والهدف هو توفير تعليم متوازن يعمل على إنتاج أناس لديهم القدرة على الالتحاق بالقوى العاملة والاستمرار في إعالة أنفسهم وبقائهم على قيد الحياة. ويعنى ذلك التعليم في الاقتصاد والعلوم الطبيعة والهندسة وفروع العلم الأخرى التي توفر سبل التحضير للعمل. وفي المقابل، التعليم الديني والتدرّب على يد رجال الدين المتطرفين لا بد أن يختزل؛ وهذه قصة من القصص الشائعة التي تقصها أم سعودية:

> في يوم من الأيام، منذ عدة سنوات مضت، جاءني ابني البكر من المدرسة وقال لي: "أمي، هل كنت تعلمين أن أسامة بن لادن يُعدّ بطلاً". وفي اليوم التالي لأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر جاء لي ابني الصغير وأخبرني أن مدرس الرسم طلب منه رسم الطائرات وهي تضرب مركز التجارة العالمي. لقد منعنا أطفالنا من مشاهدة أحداث العنف هذه على شاشات التلفزيون. ولقد عانيت الكثير على مدى 4 سنوات وحبست هذه المعاناة في صدري وكنت أشعر بالمعاناة الكبيرة ولكن كنت لا أتحدث عنها. وجاء اليوم الذي هاجم فيه الإرهابيون وزارة الداخلية السعودية في الرياض؛ وبينما كنا نتناول طعام الغداء رأينا أسماء وصور المهاجمين على شاشة التلفزيون وقال ابني إنه يعرف واحداً من هؤلاء الرجال ويُدعى "تامر الخميس" وهو مدرّس في مدرسته؛ هذا هو نوع الرجال الذين يقومون على تعليم أطفالي. كيف يمكن لأم أن ترسل أطفالها إلى المدرسة وهي تعرف أنه يمكنهم أن يقعوا ضحية مدرس إرهابي؟

إن أزمة النظام التعليمي في العالم العربي لا يمكن فصلها عن صراع

الأفكار في العالم الإسلامي والأنظمة السياسية في كل دولة. فالحرب الثقافية تشن في قاعات الدرس بين المُحْدَثين الذين يسعون إلى الانخراط البناء مع العلم ويؤيدون تدريس التفكير النقدي، وهؤلاء الآخرين من رجال الدين المتحمسين الذين يؤمنون بالتفسيرات المتطرفة الصارمة للإسلام.

ومن بين القوى التحديثية هناك المؤسسات العلمانية العامة والتعليمية في العالم العربي ودوله مثل الجامعة الأمريكية في كل من القاهرة وبيروت والتي تساهم في تخريج قادة في شتى المهن. وفي ربوع مدينة التعليم في قطر هناك فروع من جامعات مرموقة تقدم مقررات في العلوم والهندسة والعلاقات الدولية والطب وبرنامجاً لدراسة الإسلام، وهو يختلف تمامًا عن الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر، تلك الجامعة الرائدة في العالم العربي والتي لها التأثير الكبير في العالم السني كصوت للإسلام، على الرغم من أن المؤسسات السلفية التي تمولها بعض دول الخليج قد أحدثت تأثيرها في السنوات الأخيرة.

ويمكن للأزهر أن يساعد في نشر رسالة الإسلام المعتدل ويعارض الآراء والأفكار المتطرفة، وعليه أيضاً أن يركز على إعداد وتدريب رجال الدين ويعمل على زيادة عدد رجال الدين من السنيين الذين يتبعون الاعتدال والسير في الوسط السائد. فإذا كان القادة الدينيون المحليون أقوياء وكذلك المساجد، يمكننا تهميش المتطرفين.

وفي الجانب المتطرف نجد المدارس السنية مثل تلك المنتشرة في باكستان التي كانت حاضنة للأصوليين المسلمين؛ هذا فضلاً عن موجات من صغار الشباب المغرضين الذين تتملكهم مشاعر العداء للغرب، بالإضافة إلى الصعوبة في الإصلاح في العالم العربي للنماذج المصرية وغيرها من دول العالم الإسلامي في التعليم والمناهج التي عكست الاتجاهات القوية في الماضي والتي تتعلق بالقومية العربية أو التفسيرات الأصولية للإسلام.

بالإضافة إلى ذلك، في عام 2003 كما يشير تقرير الأمم المتحدة للتنمية،

تبين أن عددًا كبيرًا من الطلبة من دول الخليج يدرسون الدين والأدب والقليل من هؤلاء يدرسون العلوم والهندسة والاقتصاد أو فروع أخرى من المعرفة التي تمكنهم من أن يصلحوا لدخول سوق العمل وإعدادهم وتجهيزهم للاضطلاع بمسؤوليات المواطنة في بلادهم. وعليه، فإنّ النظام التعليمي يتطلب الكثير من الإصلاح في المناهج وهو تحدٍ تقني علاوة على كونه تحدٍ ثقافي وذلك بسبب التأثير الكبير للإيديولوجية الأصولية. ومن ثم فإن إصلاح التعليم هو جزء لا يتجزأ من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والوجوه الأخرى من أزمة المجتمع الواسعة النطاق.

حوار متميز

من الواضح أنّه لا توجد ضمانات على أن الحوار سيجعل من السهل الوصول إلى فهم أوسع، وإلى حلّ الصراعات والاختلافات؛ ولا يمكننا الافتراض في أن ندرك دوافع هؤلاء الذين سنتمكنّ من التحاور معهم ستكون مفيدة؛ فهناك مثالان يحضرانني الآن؛ ففي أوائل التسعينيات عندما كنت مساعدًا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، أتيحت لي فرصة التحدث مع حسن الترابي وهو شخصية سياسية بارزة. في السنوات الأولى من حياته انضم إلى جبهة الميثاق الإسلامية وهي فرع من فروع الإخوان المسلمين وأصبح فيما بعد الأمين العام لها. وكان مرتديًا حلة من ثلاث قطع وجاءني إلى مكتبي في واشنطن ولم يكن مختلفًا عن الكثير من رجال الأعمال الأغنياء البارزين في منطقة الشرق الأوسط الذين عرفتهم في بيروت ودمشق. وبينما كان يتحدث لاحظت أنه على دراية واسعة وفهم عميق للعديد من القضايا العامة في دول الشرق الأوسط وعلاقاتهم بالولايات المتحدة والغرب. ولم أندهش لعلمي أنه يحمل درجة الدكتوراه من السوربون ويتكلم الإنكليزية والفرنسية بطلاقة. لقد تحدث بإيجابية عن شكل ما من أشكال الديمقراطية الإسلامية وهو نفس الرجل الذي أسس المؤتمر الشعبي

العربي الإسلامي وقد كان يظهر في لباسه العربي التقليدي وهو يستضيف مجموعة من القادة الإسلاميين النضاليين من العالم.

وبالمثل، بعيد خطبتي في الميريديان، تلقيت رسالة طويلة من رشيد غنوشي وهو إسلامي تونسي لبق كان قد لجأ إلى لندن عام 1989 هربًا من حكم قضائي بالسجن مدى الحياة كعدو للنظام السياسي التونسي. وفي حديثه معي، عبّر غنوشي عن سعادته بأن الولايات المتحدة أبدت استعدادًا للتحاور ولم تعتبر الإسلام في حد ذاته عدوًا. ولقد كتب غنوشي ما يلي:

> "لا يضمر المسلمون أي مشاعر معادية تجاهكم أو تجاه مكانتكم كقوة عظمى، إلا إننا نريد حريتنا في أوطاننا، ونريد حقنا في اختيار النظام الذي نشعر أنه مناسب لنا. نريد أن تكون علاقتنا معكم مبنية على الصداقة؛ فنحن نريد الصداقة ولا نبغي التبعية. نحن نرى أن هناك قوى ذات فاعلية لتبادل الأفكار ولتدفق المعلومات وللتبادل الثقافي في عصر تتحكم فيه قواعد التنافس والتعادل عوضًا عن قواعد الهيمنة والتبعية. نحن ندعوكم لإيقاف اعتداءاتكم ضد شعبنا وضد ديننا. نحن ندعوكم لمصالحة تاريخية ولتقارب وتعاون".

لقد كنت أعي تمامًا أن غنوشي كان يأمل في أن أساعده في الحصول على تأشيرة سفر لدخول الولايات المتحدة وهو الأمر الذي رفضناه تكرارًا ومرارًا. إلا أن تصريحاته عكست ما يجب على الولايات المتحدة أن تسمعه من إسلامي متفانٍ إذا ما توفر السبب في الاعتقاد بأن تأكيداته كانت صحيحة. إلا أنّه مثل الترابي، الذي يكن له الإعجاب والمحبة، قد وضح لي جانبًا آخر؛ وعلى الرغم من كونه سنيًا فلقد أيد الثورة الإيرانية بزعامة أية الله روح اللّه الخميني وردد وصفه لأمريكا "بالشيطان الأكبر" كما وصف إدارة بوش "بأكبر تهديد للحضارة والدين والسلام العالمي".

وفي وقت حدوث عاصفة الصحراء عام 1991، تلك الحرب التي سببها

صدام حسين بعد غزوه للكويت انضم غنوشي بحرارة إلى صف صدام معلناً في خطاب: "لا بد وأن نعلن حربًا لا تتوقف ضد الأمريكيين حتى يغادروا بلاد الإسلام وإلا سنحرق ونحطم كل مصالحهم في طول وعرض العالم الإسلامي بأكمله؛ على الشباب المسلم أن يكون جادًا في تحذيره للأمريكيين بأن أي ضربة ضد العراق ستعطي الفرصة لضرب المصالح الأمريكية والغربية في طول البلاد الإسلامية وعرضها". ونتيجة لكل ذلك كان مؤيدًا متحمسًا لحماس وعارض عملية السلام العربية الإسرائيلية ويدين كل دولة تمد يدها إلى "العدو الصهيوني" وداعيًا الفلسطينيين بألا يقبلوا أي حل وسط.

من الممكن أن يكون غنوشي والترابي وآخرون أمثالهما مخادعين، يخبرون الأمريكيين بما يودون سماعه والتنفيس عن مشاعرهم الحقيقية العدائية ضد أمريكا كل في بلده. ومن الممكن أيضًا أنهم ما داموا يعرفون الاستجابات المناسبة لجدلهم فربما يبحثون عن تقديم فرصة للانخراط. ومهما كانت دوافعهم فإن الانخراط المتزايد والحوار معهم يمكن أن يختبر نواياهم الحقيقية.

إن النفوذ المتزايد للأحزاب الإسلامية في العالم العربي كما هو واضح في فوزهم في الانتخابات في كل من مصر والأردن والمغرب وفلسطين واليمن والكويت والجزائر يتطلب مناخًا متميزًا. لقد أوصيت سابقًا بأنّه على الولايات المتحدة أن تنخرط مع أحزاب معينة أو منظمات معينة للتعرف عليها في المقام الأول ولمعرفة ما يعبرون عنه وذلك بهدف التفرقة بين تلك التي تلجأ للعنف وتؤيد الأيديولوجيات المتطرفة وتلك التي لا تلجأ لمثل هذه الأساليب، بغية تحديد أرضية مشتركة بيننا. ويجب أن يتركز هذا الحوار على موقف هذه الجماعات بالنسبة لأمور عديدة مثل كون الشريعة أحد مصادر التشريع أو كونها المصدر الوحيد للتشريع، وموقفها من حقوق المرأة وحقوق الإنسان بوجه عام، وكذلك موقفها بالنسبة لموضوع تداول السلطة ضمن نظام انتخابي، وحقوق الأقليات السياسية والدينية، واللجوء إلى العنف، والتفسيرات الجهادية، وكذلك بالنسبة لحسم النزاع العربي الإسرائيلي.

ومن ثم فإنّ الهدف لا يجب أن يكون فقط "تحسين صورة أمريكا" فقط في العالم الإسلامي وإنما الانخراط مع الأحزاب المعنية والمنظمات في عموم الدول الإسلامية وذلك لتعزيز مصالحنا القومية وأهداف سياستنا الخارجية. وفي الوقت نفسه يجب علينا أن نعترف بأن نفوذنا وتأثيرنا في تطور هذه الجماعات والحركات الإسلامية سيكون بالضرورة محدودًا؛ يمكننا أن نساعد في تشكيل النتيجة النهائية ولكن لا يمكننا تحديدها. ومن ثم فإنّ تجديد المجتمع الإسلامي لا بد وأن يأتي من داخل تلك المجتمعات إذا ما أردنا أن يكون هناك تعايش ذو معنى مع الثقافات والمجتمعات الأخرى. وفي هذا السياق يُذكر في القرآن (13: 11): ﴿لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

فبينما نتحاور مع جماعات إسلامية مختارة يتوجب علينا في نفس الوقت أن نكون حذرين في التعامل مع الأصوليين والمتطرفين واستخدام كل الأدوات التي في حوزتنا في مجال السياسة الداخلية والخارجية وكذلك منظماتنا للأمن القومي. إن أجهزة المخابرات والأمن والدبلوماسية يجب أن تعمل بتنسيق وذلك بهدف محاربة ومكافحة الأصوليين والمتطرفين في الداخل والخارج. لا بد وأن تتفتح عيوننا لما أعلنته هذه الجماعات من حرب مقدسة ضد الأعداء وأوضحوا بكل جلاء ماهية هؤلاء الأعداء. وكما كرر أسامه بن لادن ورفيقه أيمن الظواهري في الكثير من التصريحات بأن "العدو القريب" هو الأنظمة الفاسدة المارقة في العالم الإسلامي والعربي والتي لا تتوافق ومفهومهم للدولة الإسلامية السلطوية، وكذلك "العدو البعيد" وهو الولايات المتحدة والدول الأوروبيّة وإسرائيل.

ومع ذلك، فلا بد للولايات المتحدة أن تبتعد عن الثقة الزائدة في محاولاتها لحل العجز في أمور مثل الديمقراطية والاقتصاد والتعليم وحقوق الإنسان في عموم الشرق الأوسط، ومثل اللجوء إلى التدخل والأعمال العسكرية حيث إن هذا الأسلوب لا يؤدي إلى نتائج تسهل الطريق للإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتغيير في المنطقة أو الوقوف ضد تهديد الأصوليين والمتطرفين

الإسلاميين ومحاربتهم. وعوضًا عن ذلك يجب على الولايات المتحدة ألا تتصرف بأسلوب يعود بالفائدة على هؤلاء الأصوليين والمتطرفين، ولعل تهميش هؤلاء الأصوليين وذلك عن طريق تقوية ودعم موقف قوى الاعتدال في عموم المنطقة وعبر استخدام أسلوب "القوة الناعمة والخشنة" هو هدفنا الأساسي؛ فالتغيير في العالم الإسلامي لا بد وأن يأتي من الداخل إلا أنه يمكننا مد يد المساعدة للتأثير على اتجاه هذا التغيير وذلك من خلال سياستنا المدعومة بالحقائق والمعلومات والتي تخدم مصالحنا القومية وتجنب "صراع الحضارات".

من الصعب قياس نجاحنا في هذا الكفاح على المدى الطويل وهو كفاح يجب أن يستمر وليس الحرب بمعناها الكلاسيكي. ولقد أعطى دونالد رامسفيلد (وهو أحد دعاة الحرب في العراق وضد الإرهاب) صورة واقعية وقياسًا دقيقًا حول كيفية قياس النجاح أو الفشل عندما قال: "هل نحن قادمون لكي نستحوذ ونقتل أم نردع ونثبط همم الإرهابيين الذين تزيد أعدادهم كل يوم وتفوق عدد المدارس الدينية ورجال الدين الأصوليين الذين يجندون ويدربون الإرهابيين ويستخدموهم ضدنا"

إن هذا السؤال لا يزال معلقاً في جو تسوده نُذُر الشؤم.

الفصل الثالث

بيروت

كانت أول زيارة لي إلى بيروت عام 1965، وقد كنت في ذلك الوقت شاباً أمريكياً في بداية حياتي العملية في السلك الدبلوماسي. وكانت بيروت أول مهمة أجنبية كلفت بها. عندما رأيت بيروت من خلال زجاج الطائرة التي وصلت إلى مطار بيروت ليلاً ـ بهرتني الأضواء المتلألئة التي أضاءت ظلام شرق البحر الأبيض المتوسط.

كانت بيروت في ذلك الوقت تعد نموذجًا للمدينة التي يتعايش فيها مجتمعات دينية وطائفية متعددة ـ مسيحيون، ومسلمون، ويهود ـ إلى جانب التيارات السياسية التي توجد في المنطقة العربية. فقد كانت بيروت مدينة تمتاز بالتعددية من كل مذهب ولون وفكر وثقافة. ولقد نجحت بيروت في إذابة الثقافات الغربية بالشرقية، من خلال مزيج من اللغات التي تتدفق دون توقف حيث يعيش في مدينة بيروت أبناء الكنيسة والجامع والمجمع أو المعبد (اليهودي) في احترام ووئام متبادل بين "أهل الكتاب". وكان يوجد داخل البرلمان اللبناني ممثلون للتيارات والأحزاب السياسية.

كانت بيروت في الستينيات مركزًا للجواسيس وشبكات التجسس في

الشرق الأوسط، كما تقع بيروت في بؤرة الصراع العربي الإسرائيلي إلى جانب القوى المتنافسة في الحرب الباردة. لذلك كانت بيروت ولبنان بحق نموذجًا للبلد المتسامح الذي يحوي بداخله الثقافات والديانات والتيارات الفكرية والسياسية دون حواجز وانشقاقات.

في بداية عملي، أُرسلت إلى بيروت من قبل الإدارة الأمريكية لدراسة اللغة العربية، في هذه الأثناء تسلمت أولى مهامي الدبلوماسية في القسم السياسي بالسفارة الأمريكية. وبعد سنة من دراستي للغة العربية، في معهد الخدمة الأجنبية، أصبحت سكرتيرًا ثالثًا بالسفارة ومترجمًا للسفير الأمريكي في لبنان. كما كنت أيضاً أُعتبر حلقة الاتصال بين السفير وكثير من المواطنين المسلمين والجماعات اليسارية والجماعات الوطنية التي تؤيد شعار القومية العربية.

كانت بداية خدمتي في السلك الدبلوماسي هي الترجمة، أي أن أكون مترجمًا للسفير الأمريكي؛ وساعدتني هذه المهمة كثيرًا في توسيع علاقاتي بالقادة اللبنانيين من مختلف الأحزاب والتيارات السياسية، المتطرفة منها والمعتدلة، اللبنانية والعربية إلى جانب رجال الدين. وشكلت اللقاءات الجماعية في الصالونات السياسية والترفيهية التي كانت تعقد غالبًا في الأمسيات، وهي أوقات جميلة في بيروت، انطباعاتي عن مدى التناقض في الحياة الاجتماعية بين التقليد والحداثة. علي سبيل المثال كان يوجد كازينو يعرف بكازينو لبنان Casino Lebanon ويقع في الجانب الشرقي لبيروت ويرتاده الوجهاء للعب القمار والترفيه، هؤلاء الوجهاء كانوا ينقسمون إلى فئتين، الفئة الأولى ترتدي الزي اللبناني التقليدي، والفئة الأخرى ترتدي الثياب الرسميّة. وهذه الفئة الأخيرة تهوى لعب الورق في صالات خاصة كان يأتي إليها الشخصيات العربية المشهورة مثل الممثل عمر الشريف. وعندما أتذكر هذه الأمسيات والأماكن ينتابني شعور بالحنين وبمدى خطورة وأهمية الوضع الذي يمكن أن أتعامل معه في بلد مثل لبنان له أثره على المنطقة بأسرها.

كان أحد أهم الملامح التي شدت انتباهي في بلد مثل لبنان هو نظام الاعتراف بحصة كل من الإطراف المتعددة ذات الانتماءات الطائفية والسياسية والعرقية داخل البرلمان والحكومة. وقد تأسس هذا النظام على أساس الميثاق الوطني عام 1943- طبقًا لهذا تعطى حصة من المقاعد لكل الطوائف المتعايشة داخل لبنان - ذات الأغلبية المسيحية والطوائف الإسلامية بما فيها الدروز. وكانت نسبة الحصة لكل من هذه المجتمعات للفوز بمقاعد البرلمان بناء على نظام تمت الموافقة عليه بالإجماع عام 1932 حيث يعطى المسيحيون ستة مقاعد والمسلمون بكل طوائفهم خمسة، بما في ذلك الدروز الذين يعتبرون طائفة لها جذور إسلامية، إلا أن طقوسهم وفلسفة عقيدتهم مأخوذة من مصادر أخرى. وبما أن لبنان يتميّز بهذا التراث، أي نظام الحصص لتخصيص المقاعد بناء على النسبة والتناسب بين القوى السياسية. لم يكن هناك داع لكي يعقد اتفاق آخر على غرار اتفاق 1932 - حتى قامت الحرب الأهلية وعقد اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية اللبنانية عام 1989. بعدها أعيد النظر في نظام الحصص وتخصيص المقاعد الموزعة على المسيحيين والطوائف الإسلامية داخل البرلمان وأصبح 50 - 50 بعدما كان 6 إلى 5 وفقاً لاتفاق 1932.

طبقًا لهذا التصنيف والذي يقوم على أساس ديني بالدرجة الأولى لتخصيص المقاعد - فإنّ رئيس جمهورية لبنان مسيحي ماروني، ورئيس الوزراء مسلم سني ورئيس البرلمان مسلم شيعي. وهكذا كانت المساومة السياسية في الاتفاق الوطني اللبناني تعكس رؤية أو رغبة المسيحيين الذين لا يريدون أن ينخرطوا في الكيان العربي الإسلامي (ما يعرف بسوريا الكبرى)، ويعكس أيضًا رغبة المسلمين الذين لا يريدون أن يصبح لبنان خاضعاً لنفوذ القوى المسيحية الغربية.

تفكك بيروت

بينما ينظر إلى لبنان على أنه نموذج لنظام التعايش المشترك بين الطوائف الدينية والسياسية، والذي يبدو ظاهرًا نظامًا ناجحًا، إلّا أنّه من الداخل يعد نظاماً ضعيفاً وهشاً. كنت أشعر أنّه لو تعرّض لأيّ خدش بسيط ستظهر الخلافات الإقطاعية والعقائدية، وبالتالي تُحدث هذه الخلافات ضررًا كبيرًا لهذا البلد. فقد كان لبنان بالفعل على حافة صراع كبير لعدة أسباب منها أولاً: التغير الديموغرافي، زيادة عدد المسلمين من ناحية التعداد السكاني والذي جاء في مصلحة المسلمين لمراجعة نظام تخصيص المقاعد والمناصب داخل الوزارة والبرلمان، ثانيًا: تغير في الائتلافات والتحالفات السياسية، وثالثًا: التدخلات الخارجية من دول الجوار مما أدى إلى وجود خلافات في الأفق غير محسومة.

للأسف، تفككت بيروت من داخلها وأصبح لبنان فريسةً للقوى الخارجية والصراعات الداخلية بين طوائفه وأحزابه السياسية. ففي عام 1967 عندما هزمت إسرائيل القوات المسلحة العربية في حرب الستة أيام كما يطلق عليها نكسة 67، كانت ضربة قاصمة بالنسبة للعرب حيث احتلت إسرائيل القدس والضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان - هذه الضربة جعلت العرب يغضبون من الولايات المتحدة باعتبارها الحليف الأساسي والداعم لإسرائيل.

في كانون الأول/ديسمبر 1968، استوقفني مشهد الدخان المتصاعد من حطام 14 طائرة مدنية لبنانية تحطمت على المطار نتيجة لعملية جوية من الصاعقة الإسرائيلية. وقد رأيت مشهد الدخان وأنا واقف على ربوة عالية في مطار بيروت الدولي. وقد جاءت هذه العملية رداً على هجوم قامت به جبهة التحرير الشعبية الفلسطينية على طائرة العال في مطار أثينا وقد أعلنت الجبهة مسؤوليتها عن هذا الهجوم، وبالتالي جاءت ضربة إسرائيل لترد على هذا الهجوم الفلسطيني.

وقد كنت وقت هذا الحادث مع اثنين من أصدقائي وهما لبنانيان

يهوديان وسط الدخان الكثيف وقد سألاني ما الذي عليهما فعله. وأجبتهما ببعض التردد أن عليهما الرحيل مع عائلتيهما لأن الوضع كان سيئًا وقد يزداد سوءاً.

بعد فشل الانقلاب ضد الملك حسين في الأردن في أعقاب أحداث أيلول/ سبتمبر الدامية حيث تحطمت عدة طائرات تابعة لخطوط طيران متعددة نتيجة الهجمة من بعض الإرهابيين الفلسطينيين، نزح كثير من الفلسطينيين إلى لبنان هاربين من الأردن، فأصبح لبنان الملجأ الأساسي للمهاجرين الفلسطينيين والقاعدة لمنظمة التحرير الفلسطينية. هذا الوضع شجع إسرائيل على اقتحام لبنان عام 1982 لطرد جبهة التحرير الفلسطينية، وكانت النتيجة دمار بيروت التي أصبحت منذ 1975 ممزقة داخليًا لمدة خمسة عشرة سنة، وهي مدة الحرب الأهلية التي دارت بين فصائلها الدينية والعلمانية.

في عام 1976، كان الرئيس الماروني سليمان فرنجية متخوفًا من تفوق الفصائل الإسلامية على القوات المسيحية، لذلك لجأ إلى الرئيس السوري حافظ الأسد ليتدخل ويرسل قوات عسكرية لمساعدته في استقرار الوضع داخل لبنان. ومع حلول عام 1989 كان الصراع الداخلي في لبنان على وشك الانتهاء بتوقيع لبنان على اتفاق الطائف في السعودية لإنهاء الحرب الأهلية بعدما خسر لبنان كثيرًا من الأرواح فضلاً عن صورة بيروت الجميلة. وبذلك دخل لبنان نفقًا سياسيًا مظلمًا من الصراعات الداخلية حتى أصبحت كلمة اللبننة مرادفًا للبنان وتعبيرًا عن الوضع المأساوي فيه.

مقابلة الإمام موسى الصدر

في عام 1966، طلبت مقابلة شخصية هامة هو زعيم شيعي متميز. وقد فتحت هذه المقابلة الباب لي وللإدارة الأمريكية في واشنطن فرصة لفهم الفكر الشيعي

الذي يلعب دورًا مهمًا في لبنان وفي المنطقة بشكل عام كما برز في ثورة إيران عام 1979، وظهور حزب الله في لبنان، وتعاظم وضع إيران في الشرق الأوسط عقب الحرب على العراق عام 2003.

بالرغم من دراستي للإسلام في جامعة جورج تاون وشعوري بأن لدي قدراً لا بأس به من الاستيعاب للتاريخ الإسلامي وأركان الدين إلى جانب وجودي في بيروت كأول مهمة لي في بداية حياتي العملية في السلك الدبلوماسي، لا شك في أن فترة خدمتي في بيروت قد أمدتني بخبرة عملية لمعرفة أهمية الخلاف والانقسام بين السنة والشيعة، وهما المذهبان الأساسيان في الإسلام.

يتمركز الشيعة في وادي البقاع وفي الجزء الجنوبي من لبنان، وعدد كبير منهم ليسوا على قدر كبير من التعليم، ومعظمهم مزارعون ويعيشون في مناطق لا تحوي مدارس أو مراكز للرعاية الصحية ولا طرقاً ممهدة أو خدمات أولية أساسية؛ والذين ينزحون إلى بيروت يعيشون في مساكن ومناطق عشوائية، والقادرون منهم هاجروا إلى الخارج في الخمسينيات. حين بدأ لبنان ينتعش اقتصاديًا، بدأ الشيعة وكثير من المهمشين في الانضمام إلى تيارات سياسية علمانية مثل الماركسية والمنظمات اليسارية أو إلى حركات القومية العربية.

في ذلك الوقت برزت شخصية دينية من الشيعة هو موسى الصدر، وبالرغم من أنه ولد في إيران وجميع أجداد الصدر عاشوا في لبنان، إلا أنّه في الحقيقة يعتبر دخيلاً؛ لذلك ظلت هناك تساؤلات كثيرة حول أسباب رجوعه إلى لبنان مدينة أجداده. وبعد رجوع موسى الصدر إلى مدينة صور بلبنان عام 1959، نصب نفسه قائداً في المجتمع الشيعي في لبنان. وقد أصبح شخصية لها وزنها وعلى حكومة بيروت أن تأخذه مأخذ الجد. علماً أن عائلته من نسل أهل البيت مما أضاف إليه قبولاً أكثر لدى الشيعة.

في أعقاب اندلاع الحرب الأهلية في لبنان عام 1958، لم تتعاون حكومة

فؤاد شهاب بصورة كبيرة مع الصدر، وبالتالي لم يستطع الصدر أن يحصل على امتيازات كبيرة يفيد بها أبناء طائفته من الشيعة في مدينة صور، إلا في بعض المشاريع الصغيرة مثل بناء مدرسة للتعليم الفني والمهني وقد تم تمويلها من الحكومة وبعض رجال الأعمال الشيعة - وكان يريد المزيد لهم ليهدّئ مجتمعه مما قد يخلق جوًا من الاستقرار. إلا أن هذا المطلب كان صعب المنال خاصة وأنّ فئة كبيرة من ذاك المجتمع كانت تعيش في فقر وحرمان. إن الثقافات المتعددة الموجودة في لبنان والأغلبية المسيحية المارونية ثم المسلمين السنة والدروز، كل هؤلاء كانت تمثلهم منظمات وأحزاب سياسية تعمل على ترويج مصالحهم؛ أما بالنسبة للشيعة فلم يكن لديهم سوى القائد موسى الصدر الذي أنشأ المجلس الأعلى الشيعي عام 1969 وقد ارتبط باسم القائد موسى الصدر مدى الحياة.

لذلك بدأ نفوذ السيد موسى الصدر يقوى بعد إنشائه لهذا المجلس، فقد كان طموحه أن يكون للشيعة في لبنان دور أساسي وليس هامشيًا؛ لذلك قررتُ مقابلة هذا القائد الزعيم لكي أعرف منه كمصدر أولي وأساسي عن وضع الشيعة في لبنان. فقد كانت السفارة الأمريكية تهتم بإنشاء علاقات واتصالات مع المسيحيين والسنيين والدروز ومؤسساتهم، ولم تهتم أبدًا بعمل علاقات أو اتصالات مع المجتمع الشيعي. فلم يكن لدى الإدارة الأمريكية أي معلومات عن الأحوال السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية عن الشيعة في لبنان والتي بدأت قوتهم تزداد وتنمو.

وقد بدأت في عمل مساع كثيرة واتصالات مع المقربين من موسى الصدر حتى أستطيع مقابلته، وبعد عدة أسابيع من الانتظار، تلقّيت اتصالاً هاتفيًا من أحد معاونيه لكي يبلغني موافقة الإمام على مقابلتي، لكن كان عليّ أن أذهب إليه بسيارتي الخاصة دون أي مرافقين، وحدد مكان المقابلة في المدينة القديمة في صور، وفي مبنى مدرسة ثانوية عند ملعب كرة القدم. وقد وصف لي المتحدث المكان المحدد للانتظار عند أريكة حجرية تحت شجرة،

على أن أجلس حتى يأتي الإمام، وبالطبع كنت سعيدًا بهذه الأخبار كما كنت على يقين من أنني إذا طلبت الإذن من السفارة فسوف يستشعرون الخطر ويطلبون مني إلغاء المقابلة ـ لأسباب أمنية ـ لذلك قررت المقابلة على مسؤوليتي الشخصية.

وفي اليوم والساعة المحدّدين في تشرين الأول/أكتوبر عام 1966 ذهبت بسيارتي بيجو 404 من بيروت إلى مدينة صور ووصلت إلى المكان المحدد وانتظرت أكثر من ساعة ونصف الساعة حتى ظننت أنه كمين لي، أخيرًا جاءت سيارة مرسيدس سوداء، وكان مع الإمام اثنان من الحراس فتحا له باب السيارة وبرز شخص قوي البنية نافذ العين وله لحية سوداء، وكان يلبس عباءة وغطاء رأس أسود، كان عليّ أن أعترف أنني أُخذت عندما شاهدت هذا الرجل ولكني ذهبت إليه وحييته تحية باللغة العربية ورد عليها بالمثل. جلسنا نتحدث حوالي ثلاث ساعات وكان الحوار يشمل أحوال الشيعة والوضع السياسي في لبنان، والعالم العربي، والصراع العربي الإسرائيلي.

وفي أثناء الحديث أثنيت على الجهود التي يبذلها الإمام للنهوض بالمجتمع الشيعي في جنوب لبنان مثل المدرسة التي أنشأها للتعليم الفني والمهني في مدينة صور، والتي كنت قد زرتها بالفعل وقلت له إنّها مدرسة جيدة. وسألته عما إذا كان من الممكن إنشاء صناعة خفيفة لمساعدة الفقراء من الشيعة، فقال لي إنها ليست فكرة صائبة ومن الأفضل الاهتمام بالزراعة فهي أكثر إفادة للمجتمع الشيعي حيث الأغلبية من المزارعين؛ وقد علمت منه أنه يوجد مشاكل اجتماعية وصحية تحتاج إلى جهود كثيرة خاصة وأن كثيرًا من القرى في الجنوب تفتقر للخدمات الصحيّة.

وقد تكلم الصدر عن اهتمامه بمستقبل لبنان والمنطقة بشكل عام. وركز على أن العنصر الخطير في لبنان من وجهة نظره هو الأوضاع المتردية والسيئة للشيعة في لبنان نفسه. فقد تعمدت الحكومة أن تهمل الجنوب اللبناني إلى أن

أصبحت هذه المنطقة بؤرة معاناة حقيقية لكل من يعيش فيها. وبوصفه قائداً دينياً للشيعة، عليه أن يعيد القيم الدينية لهذا المجتمع حتى يستعيد ثقتهم واحترامهم لذاتهم، وركز كثيرًا على العنصر النفسي لأبناء هذا المجتمع نتيجة لأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة، هذا بالإضافة إلى عدم الاعتراف بأي حقوق لهم بالمقارنة مع الفئات والمجتمعات التي تعيش في لبنان. وبوصفه قائداً دينياً ذا شخصية زعامية، وضع موسى الصدر أجندة سياسية، كما قال الرجل عن نفسه "أنا أخذت رجل الدين إلى الحياة الاجتماعية بعدما أزلت عنه غبار سنين عديدة".

العمامات السوداء والعمامات البيضاء

بالرغم من جهود الإمام موسى الصدر ومحاولاته لسلوك كل السبل السياسية لتحسين ظروف مجتمعه الدينية، إلا أنه لم يكن يُعرف عنه التطرف أو التعصب لطائفته، بل على العكس كانت رسالته الأساسية هي كسر الحواجز التي تفصل وتجزىء لبنان والعالم العربي.

في الحقيقة، أثنى الأستاذ الدكتور فؤاد عجمي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة جون هوبكنز، على شخصية الإمام موسى الصدر والدور السياسي الذي لعبه في حياته. لقد كان الإمام موسى الصدر على قناعة تامة بأن كل البشر إخوة بالرغم من الاختلافات العقائدية بينهم، وكان عندما يشير الإمام إلى رجال الدين المسلمين، كان يقول دائمًا لا فرق بين العمامات السوداء التي يرتديها الشيعة والعمامات البيضاء التي يرتديها السنة.

في أحد أيام الجمعة خطب الإمام في الجامع الرئيسي في مدينة صور، وأعلن بعد انتهاء الخطبة أنه سيذهب ليتمشّى وطلب من المصلين أن يشتركوا معه. وبينما كان الجمع محتشداً حوله وقف عند محل لبيع

المثلجات وكان هذا المحل ملكًا لرجل مسيحي، ولم يكن يشتري منه أحد من أهل الشيعة إلا أن الإمام طلب من صاحب المحل أن يعطيه من هذه المثلجات لأنه أراد أن يكسر الحواجز بين المسلمين والمسيحيين، فالشيعة كانوا يعتبرون أن الطعام والشراب الذي يصنعه أو يبيعه المسيحيون نجس لذلك أراد أن يكسر الحواجز الدينية والاجتماعية والمعتقدات الخاطئة على غرار السيد المسيح. وعندما وقف الإمام ليشتري من هذه المثلجات سأل الرجل أي نوع من المثلجات تريد أن تبيعها اليوم؟ وهو بذلك أراد أن يقول إن المسيحيين ليس بهم نجس أو محرمات.

طغاة باسم الدين

طرح الأستاذ الدكتور فؤاد عجمي مواقف كثيرة للإمام موسى الصدر تدل على سماحته الدينية، فقد خطب في كنيسة كاثوليكية في فترة الصيام الكبير عند المسيحيين في عام 1975 في وقت وصل فيه الاحتقان الطائفي إلى الذروة منذرًا بحرب أهلية. وكانت ملاحظاته عن الدين والسياسة تكشف ما لديه من روح تؤمن بجميع الأديان والطوائف كما كان لديه قناعة كبيرة ووعي بأن القادة الدينيين إذا ما امتلكوا زمام السياسة فسوف يواجهون نفس الأخطار والانتقاضات التي توجه للقادة العلمانيين.

وقد بدأ الإمام خطبته بقوله: "نحمدك اللهم ونشكرك، ربنا، إله إبراهيم وإسماعيل، إله موسى وعيسى ومحمد، رب المستضعفين وإله الخلق أجمعين... نحمدك اللهم ربنا على أن وفّقتنا بعنايتك، وجمعتنا بهدايتك، ووحّدت قلوبنا بمحبتك ورحمتك. وها نحن نجتمع بين يديك في بيت من بيوتك، وفي أوقات الصيام من أجلك. قلوبنا تهفو إليك، وعقولنا تستمد النور والهداية منك، معتبرين أنك دعوتنا إلى أن نسير جنباً إلى جنب في خدمة خلقك، وأن نلتقي على كلمة سواء لأجل سعادة خليقتك. فإلى بابك اتجهنا،

في محرابك صلينا. اجتمعنا من أجل الإنسان الذي كانت من أجله الأديان، وكانت واحدة آنذاك، يبشر بعضها ببعض، ويصدق أحدها الآخر... كانت الأديان حيث كانت في خدمة الهدف الواحد، دعوة إلى الله وخدمة للإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة. ثم اختلفت عندما اتجهت إلى خدمة نفسها أيضاً، ثم تعاظم اهتمامها بنفسها حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف واشتد، وازدادت محنة الإنسان وآلامه".

ثم أكمل قائلاً: "كانت الأديان واحدة تهفو إلى غاية واحدة: حرب على آلهة الأرض والطغاة، ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة. ولما انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون وجدوا أن الطغاة غيروا اللباس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدؤوا يحكمونهم باسم الأديان، ويحملون سيفها".

وما زالت هذه الخطبة للإمام الصدر تتردد في وقت احتدام الخلافات الطائفية الدموية والحروب الأهلية ليس فقط في لبنان بل في كل العالم الإسلامي. إن أحداث 2001/9/11 قد جاءت بهذه الصراعات داخل الأراضي الأمريكية، وهي تظهر بشكل واضح في مناطق وبلدان كثيرة في العالم، إن نتائج الصراعات الدموية بين الطوائف الإسلامية لها تأثير سلبي ليس فقط على الشرق الأوسط والدول الإسلامية بل وأيضًا على الولايات المتحدة والمجتمع الدولي بشكل عام.

للأسف، لم يُعْطَ الإمام الصدر الفرصة لكي يكمل المشوار الذي بدأه والهدف الذي أراد تحقيقه (خدمة الإنسانية) لمواجهة المصالح الطائفية. ففي عام 1978 وهو في رحلة إلى ليبيا اختفى الإمام موسى الصدر. وبالرغم من أنّه لم يعثر على جثته مما جعل كثيراً من مريديه يعتقدون أنه لا يزال حياً... وقد كان بعضهم ينظر إلى نشاطه السياسي كتهديد للقادة الدينيين ولمؤسسات دينية وعلمانية في لبنان وأنحاء الوطن العربي.

حزب الله والطريق إلى الإرهاب

بحسب عقيدة الطائفة الشيعية التي تؤمن أن قادتها هم الخلفاء الشرعيون للنبي محمد، مما يجعل هؤلاء القادة هدفًا لاغتيالهم ومعارضتهم، انضم الإمام موسى الصدر إلى قائمة الشهداء الأبطال، وقد كان ملهمًا لكثير من أتباعه أن يحاربوا ويموتوا في سبيل الله. إلا أن هؤلاء الأتباع لم يلتزموا بهدف الإمام موسى الصدر في أن يعيش الجميع في سلام ووئام من أجل خدمة الإنسانية لكنهم اتخذوا سبيلاً أكثر عدائية للطوائف والأديان الأخرى نتج عنه إنشاء حزب في عام 1982 يعرف بحزب الله، وهو منظمة مسلحة تهدف إلى جعل لبنان دولة إسلامية على غرار إيران التي أصبحت دولة إسلامية تحت لواء آية الله روح الله الخميني.

وقد انخرط حزب الله منذ بدايته في الجهاد المسلح وأعمال المقاومة المسلحة من أجل تحقيق الغرض وهو جعل لبنان دولة إسلامية. وكان الزعيم الروحي لهذا الحزب السيد محمد حسين فضل الله وكان شعاره أن المؤمن القوي أفضل من المؤمن الضعيف عند الله، مشيرين إلى أن النبي محمد كان قائداً - خليفة وكان قائداً دينياً - إماماً وهذا يعني أنه منتهى الشرعية أن تدافع عن نفسك وعن أرضك وعن مصيرك، وأنّه على الإنسان أن يواجه القوة بقوة مثلها أو أعظم منها. وبالتالي فإن كل السبل للدفاع عن النفس مشروعة تماماً. وبالرغم من أن الإمام السيد فضل الله قد شرّع التفجيرات واستخدام الأحزمة الناسفة إلا أنه أدان الاعتداءات التي وقعت في 9/11 في الولايات المتحدة وتفجير القطار في مدريد (أسبانيا) في آذار/ مارس 2004.

وهكذا بعدت رؤية حزب الله عن رؤية الإمام موسى الصدر في الستينيات والسبعينيات؛ فقد أصبح الشيعة أكثر عنفاً داخل لبنان والمنطقة ويلجؤون أكثر إلى استخدام المتفجرات والأحزمة الناسفة والانتحاريين

لمقاومة السفارات الأجنبية والقواعد العسكرية الأجنبية. بعد الهجوم الإسرائيلي على لبنان عام 1982 برز حزب الله كإحدى أهم القوى شبه العسكرية في المنطقة؛ فقد تبع حزب الله الجماعات المتأسلمة أو الإسلامية المسلحة لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وهي التي رفضت توقيع سلام مع إسرائيل.

لم يكن صدفة أن يطلب السكرتير العام لحزب الله السيد حسن نصر الله من ياسر عرفات ألا يدخل في محادثات سلام مع إسرائيل بعد انسحابها من جنوب لبنان عام 2000 ويزعم أن السبيل الوحيد هو المقاومة وليس المفاوضات لإجلاء إسرائيل عن المنطقة. وتجلت هذه الرؤية في صيف 2006 في النزاع المسلح بين إسرائيل ولبنان حيث أكد حزب الله أن المقاومة المسلحة هي السبيل الوحيد للتعامل مع إسرائيل.

الالتزام الأمريكي

انتهت مهمتي الأولى في لبنان عام 1969. وبعد عدة سنوات عملت فيها بصفة مساعد سكرتير لشؤون الشرق الأدنى، رافقت الرئيس كلينتون في أول اجتماع له مع رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في مدينة نيويورك خلال اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر 1993، وبعدما أطلعت الرئيس كلينتون على القضايا المشتركة مع لبنان طلب مني التأكيد على الرسالة التي يجب أن يركز عليها في اجتماعه مع رئيس الوزراء اللبناني.

ولقد كنت أعرف رفيق الحريري منذ عدة سنوات عندما كنت سفيرًا لأمريكا في سوريا من عام 1988 ـ 1991، وكانت لي علاقة وثيقة مع رفيق الحريري. كان الحريري يعمل على تحرير لبنان وإخراجه من براثن الحرب

الأهلية التي استمرت حتى عام 1990 وقد بدأت في عام 1975. وبوصفه رجل أعمال ومليارديرًا، عمل بجدية على استعادة اقتصاد لبنان ليعطيه أملاً في المستقبل، ولكي يصبح بلداً مستقلاً يجب إزاحة النفوذ السوري عن سياسة واقتصاد لبنان إلى جانب الوصول إلى حل شامل للصراع العربي الإسرائيلي.

لذلك اقترحت على الرئيس كلينتون أن تلتزم الإدارة الأمريكية بتحرير لبنان سياسيًا من سوريا، بحيث يصبح لبنان دولة ذات سيادة على جميع أراضيها وأن لا ترتبط الوساطة الأمريكية بين سوريا وإسرائيل بالشأن اللبناني وألا تكون هناك أي اتفاقات بين سوريا وإسرائيل على حساب لبنان. وعندما علم الحريري بهذه التأكيدات من الرئيس كان في غاية الامتنان له.

العودة إلى بيروت

بعد التوقيع على اتفاق الطائف عام 1989 في السعودية، وبعد نهاية الحرب الأهلية اللبنانية كما أشرت سابقًا، بدأ لبنان يخوض طريقًا صعبًا لاستعادة عافيته. وسنحت لي عدة مناسبات لزيارة هذا البلد عدة مرات؛ في عام 1993 كنت على متن طائرة هليكوبتر تحلق فوق رأس بيروت مع وزير الخارجية الأمريكية وارن كريستوفر في طريقنا إلى القصر الجمهوري في بعبدا، ولكن ما رأيته وأنا في الطائرة كان مروعًا، فقد رأيت حطام المدينة القديمة بعد أن كانت نجمة متلألئة في منطقة الشرق الأوسط؛ مرة أخرى في شباط/فبراير 2000، لم أكن في مهمة رسمية وقد وصلت إلى مطار بيروت الدولي، تمشيت في شوارع بيروت بمفردي بدون حرسي الخاص لأتذكر أيامي الأولى في بيروت وذهبت عيني إلى الكورنيش حيث كان يقع منزلي لكنه أصبح أثرًا بعد عين؛ ثمّ تذكرت المظاهرات التي هزت شوارع بيروت في أعقاب نكسة عام 1967 لإدانة الولايات المتحدة على إلحاق الهزيمة بالعرب. كانت هذه الأيام الخوالي قد مرت

أمام عيني كشريط ذكريات. وكنت أتمشى في شارع الحمرا هذا الشارع الجميل ودخلت إلى صيدلية لكي أشتري كريمًا واقيًا من الشمس إلا أن الصيدلي توجس مني لأني أجنبي ولكن عندما علم أني أمريكي وقد رأى صورتي في الجريدة طلب مني أن ألزم الإدارة الأمريكية أن تساعد لبنان على حقن الدماء وإنهاء العنف الدائر في شوارعها، فأكّدت له أنّ أمريكا ملتزمة بإعادة السلام للشرق الأوسط.

خطاب من رئيس الوزراء

عندما سرت إلى مبنى البرلمان انبهرت بالمباني الكثيرة التي في وسط المدينة وبمشروع إعادة الإعمار الذي بادر به رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري. هذه المشاهد أعطتني أملاً في قدرة لبنان على بناء نفسه من جديد ماديًا ومعنويًا حين يكتشف اللبنانيون هويتهم الحقيقية. وبعدما رجعت إلى الولايات المتحدة كتبت مقالة قصيرة عن رحلتي إلى بيروت في تمعن لتأملات أعربت فيها عن تفاؤلي بمستقبل البلاد. وبعد كتابتي لهذه المقالة بوقت قصير وصلني خطاب من رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري يقول فيه:

> قرأت مقالتك بإعجاب وسرور كبيرين واستمتعت بما ذكرته عن ذكرياتك لبيروت والأيام الخوالي الجميلة المتلألئة بالأضواء على شواطئ المتوسط. هذه الصورة عن بيروت هي التي تدفعنا لكي تستعيد مجدها ونطور فيها لتكون صورة طبق الأصل لما وصفته عنها. وكما تعلم فإن صورة لبنان وبيروت قد تشوهت بسبب سنوات الحرب المدمرة وأنه لا بد من أن يستعيد لبنان عافيته ويتغيّر للأفضل، ولقد كان لمقالتك أفضل الأثر للعمل من أجل تحسين صورة لبنان وبيروت وإعادة بنائه من جديد.

وهذه ليست بالمهمة السهلة؛ فقلب بيروت بدأ ينبض مرة أخرى - هذا النبض سوف يسرّع مهمة اللبنانيين في استعادة الزمن الجميل لبيروت والاستمتاع بالموسيقى والطعام والحيوية التي تتميز بها ليالي بيروت مثل ارتياد المقهى المفضل الذي يقع أمام مبنى البرلمان لألتقي مع الأصدقاء الصحفيين وهناك نستعيد نبض المدينة ونمسح ذكريات الحرب الأليمة.

أشكرك مرة أخرى على الكلمات الرقيقة التي وصفت فيها بيروت ومحاولات استرجاعها مرة أخرى بيروت الجميلة - وأنا أنتظر أن تزور لبنان قريبًا وأن أستضيفك في المقهى المفضل لديك.

لكن، هذه المقابلة التي وعدني بها صديقي رفيق الحريري لم تتم، فقد اغتيل في شباط/فبراير 2005 بطريقة مأساوية من الجهات التي تعمل على إفشال الاستقلال اللبناني ووحدة أراضيه ونظام التعددية الذي يسود هذا البلد الديمقراطي، ولكن ربما يستطيع ابنه سعد الدين الحريري إتمام الطريق السياسي الذي بدأ يشقّه والده رفيق الحريري.

بعد انتخابات 2006 والمواجهة السياسية بين الأغلبية البرلمانية بقيادة فؤاد السنيورة والمعارضة التي يقودها ميشال عون وحزب الله، عاد الشلل السياسي مرة أخرى إلى لبنان. هذا الوضع الخطير استمر طوال عام 2007 برغم محاولات الجامعة العربية لتحلّ الوضع المعقد داخل لبنان وتفك أزمته في عام 2008، إلا أن المعارضة ما زالت تحارب لكي يتوصل الفريقان إلى اتفاق حول الرئيس الجديد(*).

إن تشكيل حكومة وحدة وطنية وتعديل قانون الانتخابات لعام 2009 ما زالت أموراً معلقة. وبالرغم من هذا الوضع المعقد إلا أن الأمل موجود في أن

(*) انفرجت الأزمة نسبيًا بعد وساطة دولة قطر والتي انتهت بانتخاب العماد ميشال سليمان رئيسًا للجمهورية اللبنانية في حزيران/يونيو 2008 (المترجم).

يحاول اللبنانيون استعادة ماضيهم وتراثهم القديم في التعايش السلمي ونظام الحصص بين الطوائف والتيارات السياسية المتعددة، ويتخلصوا من حالة اللاخسارة واللّاربح.

وأهم شيء هو التوصل لحل قضية النزاع العربي الإسرائيلي وإحلال السلام الشامل للمنطقة، وألا يظل لبنان ملعبًا للحرب بالوكالة لصالح لاعبين لا تهمهم مصلحة البلد ولا منطقة الشرق الأوسط.

الفصل الرابع

دمشق

شعرت برجفة وقشعريرة في الهواء صبيحة يوم من أيام تشرين الأول/ أكتوبر عام 1988 عندما غادرت مكان إقامتي في مبنى السفارة في دمشق. وكسفير جديد للولايات المتحدة في سوريا كنت في الطريق لتقديم أوراق اعتمادي من الرئيس رونالد ريغان إلى الرئيس السوري حافظ الأسد، التي تشير إلى صفتي الرسميّة كدبلوماسي ممثلاً للرئيس ريغان والولايات المتحدة إلى الرئيس الأسد وسوريا. (خطاب الاعتماد هو خطاب رسمي يرسله رئيس دولة إلى رئيس دولة أخرى يطلب منه رسميًا قبول الاعتماد الدبلوماسي للسفير).

واصطحبني مساعد عسكري في الزي الرسمي للحرس الرئاسي إلى الليموزين التي تنتظرنا في الخارج وعلى مقدمتها العلمان الأمريكي والسوري في تناسق. ولقد كانت السفارة تقوم بأعمالها من خلال رئيس البروتوكولات في وزارة الخارجية السورية. وكان الوصول إلى هذا المستوى من العلاقات محدودًا للغاية. وكانت زيارات وزير الخارجية جورج شولتز ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى ريتشارد مورفي وعدد قليل من أعضاء الكونغرس مهمّة، لكنّها لا تتيح كثيرًا إمكانية الوصول إلى القيادة السورية. ولقد كان الحوار بين

البلدين قد قل كثيرًا حتى وصل إلى درجة من الصعب أن تسير بها الأمور لخدمة مصالح أي طرف. ولقد كانت ذكريات قصف المدمرة نيوجرسي للسوريين ومواقعهم وضربهم بصواريخ جو أرض في جبال لبنان عام 1983 انتقامًا من استهداف طائرات الاستطلاع غير المسلحة، لم تغب هذه الذكريات. ولقد كانت اتفاقية السابع عشر من أيار/مايو 1983، بين إسرائيل ولبنان قد ولدت في أعقاب غزو إسرائيل للبنان عام 1982. ولقد كان الأسد يعارض هذه الاتفاقية حيث اعتبرها تهديدًا مباشرًا لمصالح سوريا السياسية والأمنية.

وبشكل عام، فلقد كان السياق السياسي غير واعد؛ ففي لبنان كانت هناك حرب أهلية مزقته كثيرًا وكان ذلك في الغرب. أما في الجنوب فمحاولات إحياء ممارسات السلام العربية الإسرائيلية فشلت، هذا علاوة على أن قضية الإرهاب الخطيرة كانت تعكر صفو العلاقات الأمريكية السورية وخاصة في أعقاب محاولة تفجير طائرة الخطوط الجوية الإسرائيلية المتجهة من لندن إلى تل أبيب عام 1968، وهي عملية اتهمت فيها سوريا مباشرة.

ولقد وضّح خطاب الاعتماد الذي كنت أحمله من الرئيس ريغان بالإضافة إلى تعليمات شولتز وزير الخارجية كل مهمتي باختصار: فقد انحصرت في تمهيد الطريق لحوار مستدام وفعال بين البلدين حتى يمكن للمصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط أن نتقدم. فبدون سوريا لم يكن بوسعنا أن نساعد على إنهاء الحرب المأساوية في لبنان والتحرك قدمًا لعملية السلام العربي الإسرائيلي بشكل شامل. هذا بالإضافة إلى بتر عمليات إرهابية معينة والسيطرة على الاتجار بالمخدرات وتعزيز الأمن الإقليمي والسير قدمًا بأجندة حقوق الإنسان. ولقد قال لي وزير الخارجية أنه يتوجب علي البحث عن أرض مشتركة ومحاولة التقدم إلى الأمام إلا أنه يتوجب علي أيضًا ألا أنسى دوري الأول وهو أنني أمثل بلادي. وبسرده لي قصة السفراء الجدد إلى العالم الكبير تأكدت من أنني لن أنسى ماهية الدولة التي يعنيها. ولقد كان هذا الأمر بالذات مهمًا في عملية تكليفي إلى سوريا حيث إن علاقاتنا كانت عدائية وجدلية.

أبو الهول دمشق

بعد عملية التكليف الأولى إلى بيروت في منتصف الستينيات كان حافظ الأسد قد ظهر على الساحة كلاعب كبير في سوريا والمنطقة. ولقد أدركت بصفتي السفير الأمريكي الجديد أن لقائي الأول معه سيكون مهمًا جدًا إذ يتعلق بنجاح أو فشل مهمتي. فبعد موافقة مجلس الشيوخ في واشنطن عام 1988 على تعييني، فكرت مليًا كيف سيكون هذا اللقاء الأول. ولقد قمت بقراءة كل المعلومات المَحدودة عن الأسد والتي تمكنت من الحصول عليها، وتحدثت مع زملائي وآخرين ممن تعاملوا معه أو عرفوا الكثير عنه.

كان الرئيس الأسد أكبر مني بتسع سنوات. فلقد ولد عام 1930 في قرية قرداحة في الشمال الغربي من سوريا. وتنتمي عائلته إلى طائفة من المسلمين الشيعة المعروفة بالعلويين. ولقد كانت النقطة الحاسمة في حياته (كما أخبر الكاتب السير باتريك سيل) عندما قدم وهو في سن التاسعة من قريته كطفل الجبل المنحدر من أقلية مسلمة، وذلك لكي يتلقى العلم في مدينة اللاذقية الساحلية. ولقد كانت هذه الفترة هي بداية تعليمه الرسمي وخطوته الأولى في الطريق الطويل إلى دمشق ورئاسة الجمهورية.

وفي الوقت الذي كلفت فيه بهذه المهمة كان قد مضى على حكم الأسد لسوريا 18 سنة منذ عام 1970، وكان يحكمها بيد من حديد بعد وصوله إلى الحكم في انقلاب قضى فيه على من كانوا يحكمون سوريا من البعثيين اليساريين. ومن ثم أصبح رئيسًا عام 1971. ولقد كان الأسد عسكريًا وارتفع نجمه سريعًا في القوات الجوية كما هو الحال في حزب البعث لكي يصبح وزيرًا للدفاع؛ ولعب دورًا حاسمًا في حرب الستة أيام في حزيران/يونيو عام 1967. إلا أن الهزيمة المفاجئة للمصريين والأردنيين والسوريين في الجبهات الثلاث قد أصابته بصدمة كبيرة. ففي خلال ستة أيام شهد تدمير سلاح الجو السوري واحتلال إسرائيل لهضبة الجولان وجبل حرمون (الشيخ)، الأمر الذي

أعطى لإسرائيل موقعًا تشرف منه على كل سهل دمشق وتدمّر قرية القنيطرة الدرزية.

ولقد استعادت سوريا القنيطرة عقب حرب أكتوبر عام 1973 إلا أن الأسد قد احتفظ بها مهدمة كرمز للعمل المنقوص غير المكتمل للحرب والسلام. وعلى مرّ السنين، تغلب الأسد على شعور الفشل الذي أحس به في نكسة عام 1967 وبدأ يشدّ قبضته على السلطة وشق لنفسه ولبلده دورًا استراتيجيًا في الشرق الأوسط.

غير أن أكثر النصائح قيمة هي تلك التي تلقيتها من إسحاق رابين الذي كان يزور واشنطن عام 1988 كوزير للدفاع في إسرائيل. وكنت في ذلك الوقت نائب وزير الخارجية الرئيسي لشؤون الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا؛ ولقد دعاني وزير الدفاع فرانك كاردوس أنا وزوجتي إلى عشاء رسمي على شرف رابين. وقد انحنى كاردوس نحو رابين وأخبره بأنني سأضطلع بمسؤولياتي في وظيفتي الجديدة في دمشق. وكان رابين معروفًا بأنه لا يتحدث في الأمور التافهة. ولقد نظر إليّ وتوقف برهة ثم نفض سيجارته وقال: "ستتعامل مع أكثر الحكام العرب ذكاء في العالم العربي. فهو بلا شك أكثر القادة صعوبة في التفاوض، ومن ثم فعليك أن تكون حذرًا وتتجنّب المنافذ في أي اتفاق تصل إليه معه وذلك لأنه سيسوق عربة وينفذ من هذه المخارج. وما يتفق عليه سيلتزم به وينفذه ويمكنك الاعتماد عليه. ولقد كانت هذه خبرتنا مع الأسد". نفخ رابين سيجارته مرة أخرى ورسم ابتسامة على وجهه وصاحبني وتمنى لي كل التوفيق.

وصاحبني راكبو الدراجات النارية في الشوارع المحاطة بالأشجار في منطقة الرمانة في هذا الصباح من شهر تشرين الأول/أكتوبر واقتربنا من أسفل جبل قاسيون وهو الجبل الصغير الذي يطل على دمشق ويعتبره المسلمون جبلاً مقدسًا والذي يعتقد أن آدم عاش فيه وأن إبراهيم تعلم فيه مبدأ وحدة الرب.

وعلى الرغم من أن النبي محمد لم يدخل دمشق إلا أنّه يقال إنه زار هذا الجبل. وبعد ذلك مررنا بالمقر الرسمي للأسد ومكتبه وتقدمنا في اتجاه قصر المهاجرين وهو قصر صغير جميل ويعد مثالاً للمعمار الدمشقي والذي أصبح فيما بعد مقر إقامة أول رئيس لجمهورية سوريا.

توقفت السيارة في مدخل المبنى القديم، ونزلت منها ومشيت بضع خطوات تجاه حرس الشرف ثم توقفت ووقفت منتبهًا. وتقدم ضابط حرس الشرف في زيه الرسمي الجميل وخطا خطوة الإوزة تلك الخطوة التي تذكرنى بالعسكرية السوفياتية، وعلى بعد أقدام منى استل سيفه اللامع ووضعه أمام عينيه. وكان النصل على بعد بوصات من وجهي وصاح مرحبًا بي وتبعته لاستعراض حرس الشرف. ثم صحبني رئيس المراسم داخل المبنى حتى الطابق الثاني حيث كان الأسد وأعضاء حكومته وفريق من أعضاء السفارة ورؤساء الأقسام فيها.

تقدمت ناحية الرئيس الأسد وواجهته فى منتصف قاعة الاستقبال، وكان محاطًا بوزرائه ومعاونيه، وبدأت أقدم له زملائي وقرأت خطابي الموجه إليه من الرئيس ريغان وسلمته إياه بعد ذلك، ثمّ تصافحنا ودعانى أنا برفقة واحد من أقرب مستشاريه وهو وزير الخارجية ويدعى ناصر قدوره إلى غرفة مجاورة لحديث خاص لمدة عشرين دقيقة، وذلك طبقًا للبروتوكولات المعمول بها. وفى غرفة أخرى كان هناك خمسة سفراء ينتظرون تقديم أوراق اعتمادهم، إلا أن حديثنا جعلهم ينتظرون لما يزيد عن الساعة وقد كان مقدمة لاجتماعات طويلة ومفاوضات على مدى الثلاث سنوات اللاحقة.

وبعد فترة تبادل للمزاح واحتساء القهوة، تساءل الأسد عن اسمي الأرمني وأصولي العائلية. ورويت للحاضرين كيف أنّ أبواي تمكنا من الهرب تجنبًا للمذابح التركية في الفترة ما بين 1915 ـ 1918 عندما بدأت الحكومة التركية في حملة الإبادة الجماعية ضد الأرمن وكيف أنهم غادروا البلاد هربًا إلى سوريا

حيث وجدوا ملاذًا آمنًا. وكان والد أمي موظفًا في الشرطة في المدينة الأرمينية "خاربوط" وقد تم إعدامه ونجحت والدته وأختيها في المجيء إلى حلب في الشمال السوري لفترة قصيرة ثم أخذتهما إلى المدينة الساحلية جبيل (بيبلوس) في لبنان حيث كان هناك ملجأ دانمركي للأيتام من صغار البنات. وفي سنوات حياته الأولى هرب أبي من طابور الموت الذي أجبر الأرمن على السفر على الأقدام من منازلهم في شرق تركيا إلى المدينة السورية دير الزور وقد شكلت هذه المرحلة فترة عذاب للكثير من الأرمن الذين ماتوا.

ولقد كان هروبه من قرية عائلته في هادجين في شرق تركيا قد أوصله إلى مدينة حلب حيث تتواجد هناك مجموعة أو جالية كبيرة من الأرمن. وهناك، وجد ملاذًا آمنًا مع أسرة عربية حيث عمل كعامل في إسطبل العائلة. وأثناء هذه الفترة قام بعمل شجاع حيث أنقذ بنتين من أرمينيا أخذتا إلى حريم شخصية تركية مرموقة ومن أعيان حلب. ولقد آثار أسر هاتين الفتاتين حفيظته وتأثره بخبرات رهيبة ومرعبة كان قد شاهدها، فقرّر أن ينقذهما، ومن ثم أخذ حصانين من الإسطبل في ليلة من الليالي وقام بترتيب هربهما من منزل هذا التركي وأخذهما إلى كنسية أرمينية في المدينة حيث وجدتا ملاذًا آمنًا.

ولقد وجدت الفتاتان طريقهما إلى الولايات المتحدة حيث كان هناك أخ أكبر لهما يعيش في ورسستر في ولاية ماساشوستس. وكان أخوهما الذي حصل على الجنسية الأمريكية قد دعا أباه فيما بعد للهجرة إلى الولايات المتحدة حيث أصبح مواطنًا أمريكيًا.

وفي هذه الأثناء أبحرت أمي إلى هافانا في كوبا لتذهب إلى المدرسة وتنتظر فرصة الذهاب إلى أمريكا. وبناء على صورة رآها ذهب أبي إلى هافانا ليقابل ويتزوج أمي ويأتي بها إلى الولايات المتحدة لبدء حياتهما وتربية أولادهما.

وأخبرت الأسد أنه بفضل أعمال أبي في حلب ولدنا أنا وأخي في أمريكا.

إذا كان هناك شخص قد أخبر هذا الصبي الأرمني في حلب أثناء هذه الأوقات العصيبة والسنوات المفجعة أنه سيكون له ابن سيصبح سفيراً أمريكيًا في سوريا لكان أبي قد نعت هذا الشخص بالجنون. وهذه هي عظمة الولايات المتحدة، فأنا ابن لاجئين؛ ونحن أمة مهجّرة وأمريكا أرض الفرص الكبيرة. إني أعرف أنك انخرطت مع رؤساء جمهورية ووزراء خارجية وأعضاء من الكونغرس وشيوخ وقابلت كل هؤلاء، إلا أنه من سوء الحظ أنك لم تزر الولايات المتحدة طيلة حياتك لكي تراها على طبيعتها. أحب بلدي وأشعر بأنني متميز وأتشرف بخدمتها كممثل لها في بلدكم سوريا، هذه الدولة ذات التاريخ القديم الثري والتي لعبت وما زالت تلعب دورًا مهمًا في منطقة الشرق الأوسط.

ولقد تأثر الأسد كثيرًا بهذه الملاحظات، وواصلت الحديث قائلاً إنّ زوجتي لها علاقات أسرية مع سوريا، فوالدة فرانسواز زوجتي ولدت في أسرة أرمينية في حلب وعاشت هناك حتى بلغت سن التاسعة عشرة عندما سرق قلبها ضابط فرنسي وسيم كان في سوريا أثناء فترة الانتداب الفرنسي وقررا الزواج. وما كان من الأسد إلا أن تفوه بملاحظة بارعة قائلاً "إنّ أهالي دمشق سيغارون من روابط أسرتي بمدينة حلب التي تعد ثاني أكبر مدن سوريا". وأصبح الأسد مسترخيًا في حديثه قائلاً إن الأرمن في سوريا تميزوا كثيرًا وأصبحوا أصحاب مهن عديدة، كما أنهم برعوا في التجارة، والأهم من كل ذلك أثبت الأرمن أنهم مواطنون يكنون الولاء والمحبة لسوريا". وكانت هذه هي ملاحظتي الأخيرة التي أشرت فيها أيضًا إلى حب الأرمن لأمريكا في نفس الوقت.

ثم أشرت بعد ذلك إلى ملاحظاتي الرسمية في مراسم الاحتفال في القاعة الجميلة حيث لخصت مهمتي للأسد كسفير للولايات المتحدة: "السيد الرئيس: إن حكومتي جادة في بدء حوار على مستوى عال مع حكومتك بالنسبة للقضايا الأساسية التي ذكرتها. فبلدانا يلعبان دورًا مهمًا في منطقة الشرق الأوسط، وليس لدى الولايات المتحدة أجندة سرية بالنسبة لسوريا. لقد كانت علاقاتنا تتسم بالعدائية ولم تكن سلسة، لدينا مشاكل خطيرة بيننا، ومع ذلك يمكننا التوصل إلى

أرضية مشتركة ومصالح متبادلة، دعنا نؤسس لعلاقة مبنية على ذلك وعندما تكون هناك مشاكل دعنا نحاول حلها؛ إلا أنني أود أن أعلن هنا بصراحة إننا لسنا مهتمين بالحوار من أجل الحوار فقط، إذ إننا نود تحقيق نتائج ايجابية".

وعند هذه النقطة ألقيت بالبروتوكول جانبًا وأنا أدرك جيدًا أن العملية تستدعي نوعين من الشجاعة والمبادرة التي يمكن لنا من خلالها بدء حوار مفتوح، أو ستكون فترة إقامتي ووظيفتي في سوريا ليست سوى لحمل الرسائل الرسمية التي أتلقاها من واشنطن لتوصيلها للرئيس السوري. ومن ثم استرسلت في حديثي قائلاً: "السيد الرئيس، لكي نبدأ الحوار لا بد أن تتيح لي ولسفارتي الفرصة للوصول إليكم والوصول إلى وزرائك وحاشيتك. يمكنك بسهولة أن تبعدني حتى أستطيع التمتع بالعيش في مقر إقامتي الجميل في دمشق وحضور الاستقبالات الرسمية واحدة بعد الأخرى وذلك على مدى الثلاث سنوات القادمة المكلف بها. ويمكنني أن أرسل التقارير إلى واشنطن عن كل ما يدور بخلدك وماهية سياسات حكومتك. إلا أنني لا أفضل القيام بهذا العمل بهذه الطريقة؛ سيدي الرئيس، لم أُرسل إلى دمشق للقيام بمثل هذا العمل ومن ثم إذا كنا بحق جادين لتحسين علاقاتنا فهناك طريق آخر يمكننا أن نسلكه، إذ إنه يمكننا أن نتعامل سويًا مباشرة وبطريقة حازمة وموثوق بها. وإني آمل أن توافق على هذا المنحى".

وتوقفت عند هذه النقطة وانتظرت بعصبيه استجابة الرئيس ولم أدرك أنني ذهبت بعيدًا. ونظر إليّ المدعو "أبو الهول دمشق" وحدق فيَّ بروية وبنظرة خارقة، كما عرفت فيما بعد أن من عادته التفكير قبل الإجابة. وبعد لحظة حرجة من السكوت نظر إلى وزير الدولة للشؤون الخارجية ناصر قدوره وقال "إني أتفق مع السفير، دعنا نسير على هذا المنوال". وقام من على كرسيه وصافحني وتمنى لي النجاح في مهمتي الدبلوماسية.

وقلت لنفسي، والآن وبعد تمنيات كل من رابين والأسد التوفيق في مهمتي

فربما يكون هناك فرصة للعمل من أجل السلام، وهذا العمل سيكون صعبًا ومحبطًا، إلا أن ذلك ما هو إلا بداية وفي خلال السنوات القادمة سنكون قادرين على تحقيق تحسن هيكلي في العلاقات الأمريكية السورية والنتائج الإيجابية التي سعينا إليها بالنسبة لبعض القضايا: اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية في لبنان وأعطى هذا البلد الفرصة لإعادة بنائه؛ وانضمام سوريا إلى تحالف عاصفة الصحراء؛ التحالف السياسي والعسكري الذي قادته الولايات المتحدة ضد صدام حسين بعد غزو الكويت؛ وقرار الأسد الحاسم بالنسبة للمفاوضات وجهًا لوجه مع الإسرائيليين، والتي سمحت لنا بالتقدم إلى مؤتمر مدريد؛ ودور سوريا الأساسي في الإفراج عن الرهائن الأمريكيين في لبنان الذين احتجزتهم جماعات مدعومة من إيران؛ والاتفاق مع الأسد على منح اليهود السوريين نفس الحرية في السفر التي يتمتع بها المواطنون السوريون الاخرون؛ والانخراط مع السوريين لمناقشة قضايا خلافية مثل الإرهاب وحقوق الإنسان. وبينما كان الطريق إلى دمشق طويلاً وصعبًا، إلا أنه ثبت أنه يقودنا إلى محطات أعتقد أنها قد خدمت مصالح الولايات المتحدة.

السلام مع أعدائك

على الولايات المتحدة الانخراط في التحدث مع أعدائها، تلك هي مهمة الدبلوماسية. إن لب الصراع العربي الإسرائيلي هو القضية الفلسطينية. إلا أن الجوهر الجيوسياسي وصميمه هو الجبهة السورية الإسرائيلية، ومن دون اتفاق سوري إسرائيلي لن يكون هناك سلام شامل بين إسرائيل وجيرانها العرب، ويأتي بعد ذلك مباشرة اتفاق لبناني إذا ما تحقق تقدم على المسار السوري الإسرائيلي. وبدء محادثات سلام بين إسرائيل وسوريا لا بد وأن يحتل سلم الأولويات بالنسبة لرئيس الولايات المتحدة ووزير الخارجية، ومنذ مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 أُحرز تقدم كبير في المفاوضات السورية الإسرائيلية بالنسبة

لقضايا الأمن والسلام وتطبيع العلاقات وترتيبات الأمن وحرية الوصول إلى المياه، وكان كل من المفاوضين السوريين والإسرائيليين قد تناقشوا في 85% من القضايا وتم حل هذه القضايا أو تقريب وجهات النظر وحصر نقاط الخلاف بينهما. ولقد كانت الولايات المتحدة المتحدث عن كل من الطرفين في هذه المفاوضات كما أنها كانت مستودعًا لتاريخ هذه المفاوضات.

ومن الأمور المفيدة في هذا السياق متابعة كيف تطور هذا الدور؟ ففي عام 1991 كان لدى كل من بوش وجيمس بيكر استراتيجية أوسع وأكبر بكثير من تحرير الكويت وعدم السماح لمثل هذا النوع من الاعتداء ضد دولة أخرى وذلك في أعقاب نهاية الحرب الباردة، ولقد عرف كل من بوش وبيكر أن المشهد الجيوسياسي قد تغير بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتحرير الكويت على يد تحالف واسع يمكن أن يسهل أو يعطى فرصة أخرى لتقدم مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية، وبناء على ذلك وقبل الانتصار الذى تحقق لعاصفة الصحراء، بدأ كل من بوش وبيكر في بذل جهود مكثفة لفتح ثغرة حتى يعود العرب والإسرائيليون إلى التفاوض، وأما في دمشق فلقد وصلتني تعليمات بالمساعدة في التحضير حتى يتمكن الأسد من حلحله الموقف وتخفيف تعنته بالنسبة لمواقفه الثابته تجاه إسرائيل.

من الكيان الصهيوني إلى إسرائيل

في لقاءاتي الأولى واجتماعاتي مع الأسد لم يشر إلى الدولة العبرية باسم إسرائيل وإنما كان يسميها الكيان الصهيوني. إلا أنني أدركت لاحقًا أن معلوماته عن إسرائيل ومعرفته بالمجتمع الإسرائيلي والسياسة المحلية كانت قليلة. وكان لدى الأسد مستشار متميز من أصل فلسطيني يدعى أسد الياس؛ كان هذا الأخير يتكلم ويقرأ العبرية وكان يستشيره الرئيس بالنسبة للأمور الإسرائيلية وشؤون المجتمع العبري. وكانت غرفة الياس في القصر الرئاسي مملوءة أو مكدسة من

الأرض حتى السقف بالصحف والمجلات الإسرائيلية التي علاها الغبار. ومن الواضح أنه كان يحن لوطنه السابق وكانت آراؤه جامدة متحجرة، الأمر الذي أثر كثيرًا على فهم وجهة نظر الرئيس.

وأثناء مقابلاتي مع الرئيس الأسد كنت أتناقش معه موضوع السياسة الإسرائيلية والسياسة المحلية كلما أتيحت لي الفرصة. وكان ينصت إليّ بعناية ثم يبدأ في التحدث عن تاريخ الشعب الإسرائيلي ويرجع أصوله إلى إمبراطورية الخزر القديمة (وليس إلى أصوله الشرق أوسطية) التي تحوّل سكانها إلى اليهودية في القرن الثامن ثم هاجروا إلى بولندا وشكّلوا قاعدة لليهود الغربيين (الإشكناز). وفي رأيه التاريخي كقومي عربي كان يعتقد أن الإسرائيليين أجانب بدرجة كبيرة وغربيين زُرعوا في الأرض العربية. وكان ينظر إليهم مثل كل من الفرنسيين أو الإنكليز الذين قسموا الشرق الأوسط في الفترة ما بين عام 1916 وعام 1922 وذلك طبقًا لاتفاقية سايكس بيكو.

إلا أن فكره قد تطور أثناء الفترة التي قضيتها في دمشق على الأقل بالنسبة للسياسة الإسرائيلية المعاصرة. وأصبح مطلعًا على سياسة التحالفات والائتلافات السياسية الإسرائيلية وأهمية عوامل مثل حزب شاس المتطرف ورئيسه الروحي الحاخام رابي أفيدا يوسف. وتوقف عن تسمية إسرائيل بالكيان الصهيوني وبدأ يسميها باسمها إلا أنه استمر في تفسير الدور الذي يلعبه اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة وسيطرة هذا اللوبي على الإدارة الأمريكية، وهو يعكس بذلك تصورًا واسع الانتشار في العالم العربي بأن الجالية اليهودية تقوم بالضغط كثيرًا على الإدارة الأمريكية ولها نفوذ سياسي كبير في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. وفي أثناء لقاء وفد من الكونغرس الأمريكي مع الأسد قدمت الوفد وأشرت إلى شخصين من الوفد يعتبرهما الأسد جزءًا من اللوبي اليهودي. وكان أصدقائي في الوفد مشدوهين ولكنني أعرف عن الأسد حبه للفكاهة السياسية، فضحك وقال إنّه سيكون مهتمًا بسماع ما سيضطرون لقوله. ولقد كان اللقاء وديًا وشعرت بأن حاجزًا نفسياً آخر قد تصدع ولو قليلاً.

اتفاقية سايكس بيكو

أثناء إقامتي في دمشق التي امتدت حتى ثلاث سنوات، خصّني الأسد بالعديد من القصص، فروى لي كيف أن اتفاقية سايكس بيكو كانت وراء كل العلل والاضطرابات التي يعاني منها الشرق الأوسط المعاصر، ويسترسل في تفسير كيف أن البريطانيين والفرنسيين من الاستعماريين كانوا يرسمون خطوطًا في رمال المنطقة للرهان على مناطق الانتداب التي ستوكل إليهم. ولقد كان سايكس هو الوكيل الإنكليزي وبيكو الوكيل الفرنسي اللذان تواطآ وتآمرا في هذا المشروع الإمبريالي البارع. ولقد كان للفرنسيّين النية لخلق "لبنان الكبير" ودعم دولة متعددة الأديان وإعطاء المسيحيين وجاليتهم مكانة مرموقة ودورًا سياسيًا بارزًا بين السنة والشيعة والدروز. ولقد كان هذا المشروع طبقًا لما يرويه الأسد على حساب سوريا، إذ إنه يعتبر سوريا ولبنان أمة واحدة، وهذا هو السبب الذي دعاه إلى عدم التحرك للسماح بفتح سفارة سورية في بيروت، أو سفارة لبنانية في دمشق؛ فالدولتان بالنسبة له يشكّلان "سوريا الكبرى"، أمة عربية واحدة.

وكان الأسد يشعر باستياءٍ كبير من الفرنسيين الاستعماريين. ولقد ذكر مرة كيف أنه شعر بالغضب عندما كان صبيًا لرؤية القوات الفرنسية في شوارع سوريا، كما شعر بالمذلة لاحتلالهم بلاده. كما أنه كان ممتعضًا بنفس الدرجة من الانتداب البريطاني على فلسطين وإنشاء دولة يهودية، وكان ينظر إلى كل تلك الأمور على أنها مظهر من مظاهر الإمبريالية الغربية في قلب العالم العربي. أما بالنسبة للعراق والكويت، فكان دومًا يعلق على الكيفية التي تم بها رسم الحدود في الخليج العربي ويشير إلى أن العراقيين يعتبرون الكويت المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق. وفي هذا السياق الشامل كان الأسد يسعد عندما كان يتحدث في مواضيع لا رابط بينها، وفي النهاية كعادته يصل إلى قناعة بأن الصراعات في لبنان والتوترات بين إسرائيل وجيرانها العرب وغزو صدام للكويت

يمكن إرجاعها في النهاية إلى معاهدة سايكس بيكو. وكنا بعد كل هذه القصص التاريخية ونظرته إليها نبدأ أنا والأسد في التصدي للقضايا الحالية.

ولقد علمت فيما بعد أن ما كان يبدو لي من قصص لا رابط بينها كانت بالنسبة إليه رسائل سياسية حادة وصائبة موجهة للمحاور الغربي. ففي واحدة من اللقاءات التى تمت بينى وبينه في البداية كان يصف بكل تفصيل المزاعم التي قدمها المبعوث الخاص للشرق الأوسط فيليب حبيب وذلك في أوج الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982. فلقد اندفعت القوات الإسرائيلية إلى لبنان يقودها الجنرال شارون وذلك بهدف إجلاء ياسر عرفات ورفاقه ومنظمة التحرير من لبنان والرحيل عنها حيث إن الفلسطينيين قد أنشأوا دولة داخل الدولة. ولقد أكد له السفير فيليب حبيب أن الإسرائيليين ليس لديهم النية في الهجوم على بيروت ودخولها. ولقد كان القلق يساور الأسد في تأسيس إسرائيل لنظام مناصر لها فى بيروت مما يهدد سوريا ومصالحها، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى نكسة سياسية واستراتيجية بالنسبة له. وعندما بدأ الإسرائيليون في القيام بذلك شعر الأسد أن عليه أن يرد على ذلك. وأخبرني أنه في عدة مرات كانت الطائرات الإسرائيلية تحلق فوق دمشق للضغط عليه حتى لا يتحرك إلا أنه قال إن عينه كانت مركزة على الموقف في جبهة القتال على الأرض وعرف أن اليهود لن يكونوا قادرين على أن يصمدوا خاصة من وجهة النظر السياسية. وقد فعل كل ما يمكنه فعله لتخريب خطط إسرائيل في لبنان، ولقد نجح في ذلك، وانسحبت إسرائيل من مواقعها في الجنوب اللبناني عام 2000.

ولقد كان الأسد يريد أن يوصل رسالة لي في هذا الاجتماع وهي ألا ترسل له رسائل مزيفة. وقد أوضح لي أنني إذا فعلت ذلك فإنه لن يعتبرني بعد ذلك محاورًا صالحًا في هذه الظروف. ولقد كان هذا الأمر مؤلمًا لي شخصيًا لأن ما لم يعرفه الأسد هو ان السفير حبيب هو أحد السفراء المحنكين وأنني أكن له الاحترام الكبير. هذا علاوة على كونه معلمًا لي في السلك الدبلوماسي. ولقد خدمت في هذا السلك عندما كنت ملازمًا في الجيش الأمريكي (شعبة المخابرات)

في كوريا الجنوبية عام 1961. وقد أخبرت الأسد بأن حبيب كان يخبره بما كان الإسرائيليون يخبرونه به، ويعني ذلك أنه كان صادقًا.

عاصفة الصحراء

في تشرين الثاني/نوفمبر 1990 كانت إدارة بوش تبذل جهدًا كبيرًا في حشد ائتلاف عسكري سياسي لحملة عاصفة الصحراء وذلك لإخراج صدام حسين من الكويت بعد الاعتداء الذي شنه عليها. ولقد أظهر بوش فهمًا كبيرًا لتاريخ السياسة والثقافة العربية، ومن ثم فلقد أوضح لمستشاريه في مجلس الأمن القومي الأمريكي أنه لا يريد غزو واجتياح عاصمة عربية على يد قوات امريكية، وكان يعني بذلك مدينة الكويت.

وقد سألني وزير الخارجية بيكر، ما العمل لإقناع الأسد باشتراك القوات السورية في هذا التحالف؟ وقلت له حينئذ: لقد قمنا بعمل رائع في جعل حافظ الأسد يتخذ قرارًا سياسيًا للمشاركة في ائتلاف تقوده الولايات المتحدة ضد منافسه صدام حسين إلا أن جعله يرسل قوات إلى هذا البلد فربما يتطلب ذلك عقد اجتماع قمة بين الرئيس بوش والأسد؛ وكان رد بيكر بالإيجاب: "حسنًا ابدأ في الترتيب لهذا الاجتماع"

وبعد مجهود كبير استطعنا تنظيم اجتماع قمة فى جنيف وتم الاجتماع فى 23 تشرين الثانى/نوفمبر عام 1990، وقبل الاجتماع ببضعة أيام أخبرنى بيكر أنه لن يستطيع اصطحاب الرئيس بوش إلى اجتماع جنيف، فهو في طريقه إلى عواصم دول أمريكا اللاتينية لحشد الدعم حول قرار مجلس الأمن بخصوص العمل العسكري الذي ستقوم به قوات التحالف في الكويت. وقد طلب مني اصطحاب الرئيس بوش على طائرة سلاح الجو الأمريكي (1) وإخباره عن كيفية التعامل مع الأسد وذلك للتأكد من حصولنا على استجابة إيجابية من الأسد.

وكان الرئيس بوش عائدًا من رحلة إلى آسيا وتوقف في القاهرة للقاء الرئيس حسني مبارك. وكان يتوجب عليّ مغادرة دمشق على وجه السرعة؛ فحجزت مقعدًا على آخر رحلة متوجهة إلى القاهرة في هذا اليوم. وبينما كانت الطائرة على وشك الإقلاع تحدث قائد الطائرة عبر مكبرات الصوت عن إغلاق المجال الجوي لمطار القاهرة وذلك لقدوم الرئيس الأمريكي فأصبت بالهلع والذعر. والأمر الأوّل الذي فكّرت فيه هو أن وزير الخارجية بيكر لن يتفهم فشلي في التواجد على طائرة سلاح الجو الأمريكي (1). فطلبت التحدث مع قائد الطائرة المتوجهة إلى القاهرة وأبرزت جواز سفري الدبلوماسي. وشرحت له أنني السفير الأمريكي في دمشق وأنني في مهمة دقيقة ويتوجب علي السفر مع الرئيس بوش للقائه بالرئيس السوري في جنيف، وطلبت منه أن يتصل بالسلطات المصرية في القاهرة ليعرف ما إذا كان سيسمح لنا بالهبوط.

ولحسن الحظ نجحت الخطة ووصلنا إلى القاهرة في وقت مناسب لكي نركب طائرة السلاح الجوى الأمريكي وذلك قبل أن يركب الرئيس الأمريكي الطائرة ومن ثم أقلعنا جميعاً إلى جنيف.

وجاء برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومي إلى القسم الخلفي حيث كنت أجلس. وبينما كانت الطائرة على وشك الإقلاع أومأ لي سكوكروفت بالذهاب إلى غرفة المداولة لإطلاع الرئيس عما تم. ولعدة ساعات كان لي شرف إطلاع الرئيس عما يمكن أن يتوقع من الرئيس الأسد والقضايا التي من المحتمل أن يثيرها وأسلوبه الصعب في التفاوض ودور مساعدي الرئيس الأسد. واقترحت أيضًا على بوش كيف يمكنه التعامل مع الأسد كما اقترحت على الرئيس الأمريكي أيضا أنه إذا ما حان الوقت لاتخاذ قرار بخصوص الالتزام السوري العسكري بإرسال قوات لتنضم لقوى الائتلاف الدولي فعليه أن يتحدث على انفراد مع الأسد وبصحبته مستشار الأمن القومي، وأخبرته أن الأسد سيطلب اصطحاب وزير خارجيته فاروق الشرع. هذا الأمر سيسلط الضوء على الأهمية التي أعطاها بوش للطلب العسكري. كما اقترحت أيضًا أن يقوم الرئيس خلال

الاجتماع السري، بالتركيز على الدور المركزي الذي لعبته سوريا على مستوى مبادرات الإدارة الأمريكية بالنسبة للسلام العربي الإسرائيلي، حيث إن هذا الأمر يجعله يميل إلى تلبية مثل هذا الطلب.

واستمرّ اجتماع جنيف كما توقعنا مع المواقف الصعبة التي وقفها الأسد والتشدد الذي أبداه إلا أنه أبدى استعداده للتوصل إلى اتفاق. ولقد نجح بوش في استمالة الأسد بطريقة فعالة وخرج من الجلسة الخاصة مع الأسد وهمس في أذني قائلاً "لقد نجحت".

"أبليت حسنًا أيها الرئيس" قلت له وأنا أشعر بارتباك حيث إنني لم أكن معتادًا على مجاملة الرؤساء وتهنئتهم على آرائهم.

ومن ثم نجح الرئيس بوش في إقناع الأسد وإلزامه بتقديم قوات سورية للمشاركة في أعمال الائتلاف العسكري إلا أن ذلك تطلب منه الدفاع عن هذه القضية. وفي نهاية اليوم وكجهود إضافية من جانب بيكر في دمشق التحقت القوات السورية بقوات التحالف ودخلت الكويت في دور داعم وذلك في مؤخرة ساحة المعركة، ولقد مثل هذا العمل إنجازًا تاريخيًا بالنسبة للرئيس بوش ووزير الخارجية بيكر، فاستمالة الأسد وإلزامه سياسيًا وعسكريًا بمشاركة سوريا في الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة ضد دولة عربية مجاورة وبعد ذلك انخراط سوريا في مفاوضات وجهًا لوجه مع إسرائيل، كل هذا ليس عملاً عاديًا وإنما عملاً بطوليًا.

اختبار الثبات والتحمل

أثناء قيام بيكر بجولاته المكوكية الطويلة والناجحة بين دمشق والقدس، فقد أطلقنا اسم "دبلوماسية المثانة " على هذه الجولات والاجتماعات واللقاءات مع الأسد؛ ولقد حذّرت بيكر مسبقًا بأن الرئيس الأسد يفخر بحقيقة مؤداها أنه لن

يذهب إلى الحمام مهما طالت جلسات الاجتماعات. هذا علاوة على أن الغرفة التي نلتقي فيها غالبًا ما تكون دافئة، فاسدة الهواء، وفيها تُقدّم عدّة مرات القهوة العربية والليمون. وإذا كنت تشرب كثيرًا فإنك لا بد وأن تقصد الحمام. فنظر إليّ بيكر وقال " إدوارد، أنا وزير خارجية العالم الحر، فإذا كان الأسد يستطيع ذلك، فأنا يمكنني ذلك أيضاً".

ولقد نفذ بيكر ما وعد به، إلا أنني أثبت أني أقل تصميمًا وعزمًا، فأثناء الاجتماع الطويل مع الأسد - 9 ساعات و46 دقيقة في الثالث والعشرين من نيسان/أبريل عام 1991 - فشلت في اتباع النصيحة التي أسديتها لوزير الخارجية وشربت الكثير من القهوة، وفي الساعة السادسة أرسلت مذكرة إلى بيكر مذكرًا إياه بأن يثير إحدى القضايا. ولكن القصد من الرسالة في الواقع كان الاقتراح بأخذ قسط من الراحة. نظر بيكر إلى المذكرة وأومأ بيده بأنه على خير ما يرام وشبك رجليه.

وبدأت أتصبب عرقًا ولحسن الحظ أعطاني الأسد الفرصة للخروج وذلك عندما بدأ يردد قصة سايكس بيكو التي حفظتها جيدًا. ومن ثم فيمكنني مغادرة الغرفة بدون أن يفوتني أي تبادل للآراء ذات الأهمية. وأومأت إلى فاروق الشرع وزير الخارجية أنني مضطر إلى التكلم عبر الهاتف، وأومأ برأسه، فغادرت الغرفة. وعند رجوعي كان الأسد ينهي قصته وظننت أن خطتي قد نجحت.

إلا أنني عرفت عند رجوعي من وزير الخارجية السوري أنه بعد مغادرتي الغرفة أبدى بيكر ملاحظة للأسد يفهمه فيها أن دجيريجيان ذهب إلى الحمام لكي يجري اتصالاً. وفي وقت متأخر من هذا العام كنت أقدم يمين الولاء في حفل تم في وزارة الخارجية حيث أصبحت مساعدًا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. ولقد أشار بيكر لهذه الحادثة وذكر أنه والرئيس بوش قررا أن يستدعياني وإرسال شخص آخر إلى دمشق يستطيع أن يصمد للنقد والتحليل.

الضفادع ذات الأجنحة والدبلوماسية المكوكية

وفي هذا الاجتماع الطويل دعانا الأسد ولأول مرة لتناول الغداء معه في الغرفة المجاورة أو الملحقة بمكتبه في الجناح الرئاسي. ولم يكن تبادل الأفكار في الصباح واعدًا. فلقد تمسك الأسد بموقفه وخاصة في موضوع المفاوضات المباشرة مع الإسرائيليين، وكان مصممًا على المشاركة الكاملة للأمم المتحدة ومؤتمر دائم الانعقاد حتى الوصول إلى اتفاق؛ وهي شروط لم يوافق عليها الإسرائيليون.

وجلسنا إلى الطاولة، وكنت أجلس بجانب الأسد وبيكر كان يجلس أمامه مع مترجم ووزير الخارجية. وقدمت لنا الكثير من "المازه" أو "المقبّلات" وقال بيكر "يقولون في تكساس وهو المكان الذي جئت منه أنه إذا كان هناك ضفدع له أجنحة فإن خصيته لن تلامس الأرض عند نزوله إلى اليابسة". وتردد المترجم واستدار الأسد وسألني بالعربية ماذا يعنى بيكر بهذا القول. فابتسم بيكر وقال "أظن أن ما قلته لا يترجم". وقلت إنّه يتوجب على بيكر استخدام عبارة أخرى، ثم نظر بيكر إلى الأسد وقال: "لو لم يتوقف الكلب عن الجري لكان من الممكن أن يمسك بالأرنب"، وظل الأسد مرتبكًا ومشوشًا وعدنا إلى العمل بعد الغداء إلا أننا واجهنا عقبات أكثر.

وأثناء المفاوضات بعد أن تمكن بيكر من الحصول على موافقة الأسد بالنسبة للعديد من القضايا الهامة بدأ الأسد في التحدث مرة أخرى، كما لو أن الاتفاق السابق الذي توصلنا إليه معه لم يحدث. ونظر بيكر مليًا إلى الأسد عبر الطاولة وأغلق حافظته: "سيدي الرئيس إني لا أظن أننا لم نتمكن من الوصول إلى اتفاق معك" ومال ناصر قدوره على كتف الأسد وقال بالعربية: "إنّه غاضب" واندهش الأسد لكون تكتيكاته في التفاوض قد كان لها وقع شديد وأنها أغضبته. ومع ذلك فإن تكتيكات بيكر في التفاوض والتي تدل على الحنكة كان لها مفعول في النهاية، وانسحب الأسد بعدما

ترك له بيكر الباب مفتوحًا للتوصل إلى أرضية مشتركة بالنسبة لنقطتين معقدتين.

وفي الثالث من أيار/مايو اتصلت ببيكر لكي أخبره أن وزير الخارجية فاروق الشرع تحدث معه وأفاد بقبول عرض بيكر الذي ينص على حضور مراقب من الأمم المتحدة ليشارك في مؤتمر السلام وأن المؤتمر قد ينعقد مجددًا وذلك بالإجماع وأصبح الطريق الآن مفتوحًا للعمل مع كل من الإسرائيليين والعرب.

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن بيكر قام برحلات مكوكية مكثفة (16 رحلة) وفي آخر رحلة له حصل على اتفاق من الأسد على المشاركة في مؤتمر دولي للسلام يتم انعقاده في مدريد (تشرين الأول/أكتوبر عام 1991) واتصل بي بيكر من لشبونة ليخبرني بأن لديه خطاباً من الرئيس بوش للرئيس الأسد، ولكي يؤكد أهمية هذا الخطاب كان بيكر يريد أن يسلمه مباشرة إلى وزير الخارجية السوري. وفي الواقع كان الخطاب يتضمن الاقتراح الأساسي الذي تقدمت به أمريكا لسوريا وهو قبول مفاوضات وجهًا لوجه بحيث تكون هذه المفاوضات مباشرة وذلك في إطار مؤتمر دولي تعقده الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مع تأكيدات من الولايات المتحدة بأن المؤتمر سيكون مبنيًا على قراري مجلس الأمن رقم 242 والقرار رقم 338 ومبدأ الأرض مقابل السلام، ويعني ذلك أن تنسحب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام 1967 في مقابل سلام مع جيرانها العرب. وبنبرات متقطعة طلب مني بيكر أن أسأل الشرع السفر إلى لشبونة خلال الأيام القادمة واستمالة السوريين لاتخاذ قرارات سريعة.

لم يكن أمرًا سهلاً. ومن ثم اتصلت بالشرع وشرحت له الموقف فتذمر وأبدى امتعاضه من المخطط وقال إن هذا أمر مستحيل. وأنّه على أي حال سيحاول الحصول على موافقة رئيسه. وظللت أضغط عليه وبعد يومين وافق على الذهاب إلى لشبونة، وشعرت بالراحة بعد ذلك وأخبرت بيكر بالأمر. وبعد ذلك أدركت أنه ليس من الممكن أن أصل إلى لشبونة في الوقت المناسب حتى

أتمكن من حضور الاجتماع وذلك على رحلة من الرحلات التجارية المعدة. وطلبت من الشرع إذا كان من الممكن أن أسافر معه في طائرته الرسمية السورية، وعندما وافق على ذلك، أسرعت إلى مساع للحصول على موافقة وزارة الخارجية للسفر على طائرة الدولة المضيفة.

وفي اجتماع لشبونة بدأ الشرع في استيعاب أهمية خطاب بوش وشرح له بيكر أن هذا يمكن أن يكون نقطة تحول في المساعي المبذولة من أجل السلام العربي الإسرائيلي، وهذا بالطبع يعتمد على استجابة سوريا.

وعند عودتنا إلى دمشق بعد الاجتماع في لشبونة بدأت أعمل جادًا للرد على العديد من الأسئلة التي سيطرحها كل من الشرع والأسد فيما يتعلق بمضمون الخطاب. ولقد دقق كل منهما في كل كلمة في هذا الخطاب وبدآ في الاستفسار عن النقاط المهمة المتضمنة. لقد كانت المناقشات مع الشرع حادة وفي بعض الأوقات كانت تتفجر مبادلات غاضبة. كل منا كان يقع تحت الكثير من الضغوط ـ هو بسبب الأسد الذي كان يحاول تحليل مقترح الولايات المتحدة، وأنا لأنني كنت أتلقى مكالمات من وزارة الخارجية يوميًا يستفسر كل من وزير الخارجية والرئيس عمّا إذا كانت استجابة الأسد وشيكة.

وأخيرًا ذات مساء طلب مني وزير الخارجية الشرع أن أقابله. في الواقع ظننت أنه بالنسبة للساعة المتأخرة التي أتت فيها المكالمة، ربما يكون قد أطلق سراح أحد الرهائن في لبنان. وكنت سعيدًا لظني هذا. وعندما وصلت إلى مكتب الشرع وجدته مسترخيًا بدرجة كبيرة وعلى وجهه ابتسامة، وقال لي إنّه يحمل أخبارًا سارة وسلّمني مظروفًا أبيض موجهًا إلى الرئيس بوش. فشكرته على ذلك وألقيت ملاحظة قائلاً: "آمل أن يكون الرد والاستجابة إيجابيّين"، وأعطاني أيضًا نسخة من الخطاب وطلب مني قراءته قائلاً إنه يريد أن يحصل مني على استجابة وردّة فعل. وقلت له إن هذا ليس بالأمر المهم وإنما الذي يهم رد فعل الرئيس بوش ووزير الخارجية. فضحك وقال إنه يتفهم الأمر إلا أنّه والرئيس الأسد

يريدان أن يعرفا رأيي في هذا الموضوع. وقرأت الخطاب، كان يتألف من بضع صفحات وبعد ذلك قرأته مجددًا.

استغرب الشرع المدّة الطويلة التي استغرقتها لقراءة الخطاب، فنظرت إليه وابتسمت قائلاً إنني أبحث عن الثغرات، ثم ضحك وقال: هل وجدتها؟ وأجبته: جعلتني متوترًا وعصبيًا لأنني لم أجد شيئًا، وسألني عن رأيي فأجبته: سعادة الوزير، قل للرئيس الأسد أنني أظن أنه اتخذ قرارًا تاريخيًا من أجل السلام.

وشعرت بالابتهاج واندفعت عائدًا إلى السفارة لإرسال نص الخطاب إلى وزارة الخارجية لكل من بيكر والرئيس. حقًا كان قبولاً واضحًا لخطاب بوش وكانت الملاحظة التحذيرية في الخطاب تفيد بأنه في حال فشل المبادرة فإن الأسد يحتفظ بحق الرجوع إلى مواقف سابقة وبدور مركزي للأمم المتحدة في أي مفاوضات. وكان الأسد يعمل على شراء ما يكفيه من مبادرة الأمم المتحدة. وكان لا بد من بذل جهود أكبر لكي أحمل الأسد على تنفيذ وعده، غير أن خروجنا من الأزمة كان بسلام وأدى كل ذلك إلى أن تكون المفاوضات المباشرة وجهًا لوجه بين إسرائيل وسوريا، وهو هدف كانت تسعى إليه إسرائيل خلال أربعين سنة. ولقد كان هذا القرار الذي اتخذه زعيم سوريا وحزب البعث على حدود إسرائيل الشمالية اختراقًا كبيراً.

وبينما كان القائمون على الاتصالات بالسفارة يُستدعون لإرسال برقية إلى واشنطن كنت أتحدث مع بيكر على الخط الآمن الخاص بي. أجابت كارون جاكسون مساعده بيكر على الهاتف وطلبت منها التحدث إلى وزير الخارجية فأخبرتني أنه في اجتماع مع وزير الخارجية السوفياتي. وبرد فعلٍ غير متوقع قلت لكارون: "أنا لا أبالي مع من يلتقي ائتني به كي أتحدث معه هذا أمر مهم"، وتوقفت برهة وقالت لي: "هل أنت على ما يرام" وأجبت: "أنا على ما يرام إلا أنني أريد التحدث مع بيكر".

وبعد لحظة قصيرة كان بيكر على الهاتف يتحدث معي قائلاً إنّه من

الأفضل أن يكون الأمر مهمًا: ماذا يجري هناك؟ فأجبته: "أيها الوزير، لقد قابلت وزير الخارجية الشرع وأعطاني رد الأسد على خطاب بوش حيث يُعلن قبولاً غير مشروط. وقال بيكر: "هل أنت متأكد؟"، وأجبت بالإيجاب، وأضفت أنني بعثت له نص الرسالة، وتوقف بيكر، وقال: "لقد قمت بمهمة طيبة." ثم انقطع بعد ذلك صوته وأنهى المكالمة.

وبعد اجتماعهما أدلى كل من بيكر ووزير الخارجية السوفياتي ببيان صحفي، ولقد قرر بيكر أنه قبل أن يناقشا اجتماعهما يريد أن يعلن أنه قد وصلته رسالة مني، وطبقًا لمصادر من سفيرنا فإن الرئيس الأسد قد استجاب لخطاب الرئيس بوش الخاص بمحادثات السلام. وعندما سمعت ذلك عرفت أنني كنت متلهفًا حتى تأكدت أن بيكر قد قرأ النص وتأكد أن الاستجابة كانت غير مشروطة. ولقد أخبرت بيكر فيما بعد مازحًا أنه تركني معلقًا حتى يتأكد من صحة ما قلته له وكانت إجابته: "لقد أدركت تمامًا ما كنت أفعله".

لقد كانت ولايتي كسفير للولايات المتحدة في سوريا (1988 ـ1991) قد تزامنت مع انهيار الاتحاد السوفياتي، ولقد كان لهذه الظروف التاريخية غير العادية مضاعفات في منطقة الشرق الأوسط حيث كان التنافس بين القوى العظمى حادًا. لقد كانت سوريا في المعسكر السوفياتي، ومستفيدًا أساسيًا من المساعدات والأسلحة السوفياتية، ولقد كان لسقوط جدار برلين وتفكك الإمبراطورية السوفياتية. وسقوط الزعماء الشيوعيين من أمثال نيكولاي شاوشيسكو في رومانيا والذي أعدم في كانون الأول/ديسمبر 1989، تأثير كبير على القيادة السورية. فلقد فقدت هذه القيادة الراعي السوفياتي وإحدى القوى العظمى فجأة واختفت روابطها وضعفت سريعًا مع الكتلة السوفياتية. ومن ثم شكلت هذه العوامل عائقًا أمام هذه القيادة، وفي هذا السياق بدأ حوار جديد يتطور على كل المستويات الحكومية لكلتا القوتين العظميين بدءًا من الرئيس جورج بوش

والرئيس ميخائيل غورباتشيف وانتهاءً بالدبلوماسيين السوفياتيين والأمريكيين على الساحة الدولية. وكانت دمشق هي العاصمة بل والمنطقة المثالية لمثل هذا الحوار غير المسبوق. وكنت أنا وزميلي السوفياتي إسكندر زوتوف قد أسسنا حوارًا مهنيًا موسعًا وواقعيًا ومن ثم نشأت علاقة شخصية قوية. وكان زوتوف دبلوماسيًا على درجة كبيرة من الكفاءة وخبيرًا شرق أوسطيًا، ولكي ندشن هذه العلاقة الجديدة كانت زوجتي تفكر في إقامة حفلة عيد ميلاد مفاجئة تكريمًا لزوتوف، وفعلاً قمنا بدعوة ضيوفنا الكثيرين من وزارة الخارجية السورية وغيرهم من الزملاء الدبلوماسيين، ولقد كانت حفلة جميلة. وبعد عدة أسابيع قال لي فاروق الشرع "نحن لسنا منزعجين من علاقتك الوثيقة والحميمة مع زملائك السوفياتيين في دمشق".

ولقد حدثت حادثة مسلية أثناء زيارة زميل سوفياتي لدمشق، وهو خبير في شؤون الشرق الأوسط ومخضرم كذلك ويدعى يفجيني بريماكوف، كنت قد تعرفت إليه في أوائل أيامي كدبلوماسي في بيروت في الستينيات، وكان في هذا الوقت صحفيًا وعميلاً سريًا لدى جهاز المخابرات السوفياتي. وفي السنوات التي تبعت ذلك ارتفع نجم بريماكوف ووصل إلى أعلى المناصب في الاتحاد السوفياتي بما في ذلك منصب رئيس الوزراء، وفي أوائل التسعينيات بينما كان عضوًا في المجلس الرئاسي لميخائيل غورباتشيف وكان مبعوثًا للعراق وذلك قبل نشوب حرب الخليج الأولى، كان يلتقي بصدام حسين ويزور دمشق أيضًا. واتفقنا أن نجتمع سويًا في واحدة من هذه المناسبات، وتقابلنا في مقهى في أحد الفنادق في وسط المدينة في دمشق، وبمجرد ما جلسنا وطلبنا القهوة كان هناك خلية من الندلاء ممن يقومون على خدمة الزبائن ومن الواضح أنهم كانوا يريدون أن يلتقطوا ما كنا نتناقش فيه، ولم يضيّع بريماكوف ضابط المخابرات المتمرس الوقت وأوضح لهم أننا نريد الخصوصية. وبعد بضع دقائق أتى نادل بأصيص زهور ووضعه في وسط المائدة ونظر إلى بريماكوف وابتسم. فاستدعى النادل وقال له إننا لم نطلب نباتات أو أزهارًا، خذ هذا القدر النباتي. لقد كان داخل القدر

ميكروفون مخبأ في الأزهار والنباتات. وسرعان ما أزحنا الميكروفون جانبًا واستأنفنا حديثنا. وقلت له مازحًا "لقد درّبتهم يا بريماكوف جيدًا".

تحرير الرهائن الأمريكيين في بيروت

لقد كان العمل مباشرة على أعلى المستويات مع الحكومة السورية لتحرير الرهائن الأمريكيين في بيروت، واحدة من المهام التي شعرت بأنها تتطلب الكثير من التحديات إلا أنها في النهاية مهمة مجزية على المستوى الشخصي. لقد كان "عماد مغنية" واحدًا من أكثر الخطرين المطلوبين في العالم حيث إنه قد أدين من جانب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في حادث خطف طائرة TWA الرحلة 847 عام 1985 وذلك على يد عملاء حزب الله السريين، وكان قبل موته في حادث تفجير سيارة في دمشق في شباط/فبراير عام 2008، ويُظن أن عددًا من الدول العربية اتهموا بالترتيب لموته. فلقد كان مغنية يتنقل بين إيران وحزب الله، ويقال إنه كانت له صلات باستخبارات الحرس الثوري الإيراني. لاحقته حكومة الولايات المتحدة منذ عام 1983، وهي السّنة التي فُجرت فيها السفارة الأمريكية وثكنات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت، ولقد كان متورطًا في خطف الغربيين في بيروت في الثمانينيات وعمليات أخرى يرعاها حزب الله مستخدمًا اسم الجهاد الإسلامي. ولقد كان العميد وليم هيغينز وضابط المخابرات وليم بكلي قد تم إعدامهما. وأطلق سراح آخرين في أوقات مختلفة حتى آخر رهينة أمريكي كان محتجزًا في لبنان (تيري أندرسون) الذي أطلق سراحه في كانون الأول/ديسمبر عام 1991.

لقد كنت متورطًا في المساعي المبذولة لإطلاق سراح ثلاث رهائن وهم: ميثيلاشوار سنغ وهو هندي مقيم في الولايات المتحدة وكان رئيس قسم إدارة الأعمال في كلية بيروت لإدارة الأعمال وقد أُطلق سراحه عام 1988؛ وروبيرت بولهيل وهو أستاذ في الكلية نفسها، وفرانك ريد مدير المدرسة اللبنانية الدولية،

وتم إطلاق سراحهم تحت رعايتي ومراقبتي، وواجه كل رهينة عملية أسره بكل شجاعة؛ وبما أن لسوريا حضورًا على قدر كبير من الأهمية في لبنان، كما أن لها علاقات وثيقة مع الإيرانيين فلقد ساعدتنا كثيرًا حيث استطاعت التأثير عليهم لكي يستخدموا نفوذهم مع الخاطفين لإطلاق سراح الرهائن. لقد كانت هذه العملية عملية شاقة ومحبطة مع الأخذ في الاعتبار الوعود الكاذبة التي تلقيناها، إلا أنّه عندما نجحنا في إطلاق سراح الرهائن شعرنا بالبهجة كثيرًا. وبدءًا من رئيس الجمهورية جاهدت الحكومة الأمريكية وبلا توقف لإطلاق سراحهم وكان ذلك الإطلاق مبنيًا على مبدأ الدعوة إلى تركهم أحرارًا وبدون شروط. ولم نكن أبدًا نفاوض أو نعقد صفقات مع الخاطفين، ولقد تطلب ذلك مني العمل الدؤوب ومحاولة الضغط على الحكومة السورية لاستخدام كل نفوذها في لبنان وإيران حتى نصل إلى نتائج إيجابية. وكان المحاور الأساسي معي هو فاروق الشرع وزير الخارجية السوري الذي أرسيت معه علاقة عمل. وبوجه عام فإن التحسن في العلاقات مع السوريين وتناميها هو الذي ساعدنا كثيرًا للاتصال بكل من يمكن الاتصال به، وكان السوريون يعملون جادين في هذا المسعى بالنيابة عنا.

وفي كل مرة يفرج عن رهينة كنت أتلقى مكالمة متأخرة في الليل من وزير الخارجية السوري حتى أذهب إليه وأراه. وفي اللحظة التي أحصل فيها على معلومات أسارع للاتصال مع وزارة الخارجية الأمريكية. وعندما كنت أصل إلى مكتب وزير الخارجية السوري كنا ننتظر حتى تصل الرهينة المحتجزة ونراها بأم أعيننا، ولم يكن الوزير يعرف من هو المحرّر القادم، ومن ثم فإنّه بمجرد تسلم السوريين للرهائن في لبنان يصبح هؤلاء المحررون تحت السيطرة السورية. وبعد وصولهم إلى دمشق كنت أسمع أصوات السيارات المدرعة تقترب من الوزارة وأصوات أفراد المخابرات العسكرية الذين جاؤوا بالرهائن من بيروت إلى دمشق.

ثم يأتي الرهائن مرتدين حللاً تم شراؤها من السوق. يدخل هؤلاء إلى مكتب الوزير الشرع ويقدمني الوزير إليهم بوصفي السفير الأمريكي، وفي كل

مرة يأتي رهينة محرر أحييهم وأقول لهم، "مرحبًا أنتم فى الطريق إلى الوطن"، وكانت كل رهينة محرّرة تستجيب بطريقة مختلفة. وكان "سنغ" على سبيل المثال رواقي المسلك(*) فلم ينفعل وعندما أتيت به إلى منزلي كانت تنتظره ممرضة وعلى الرغم من أن الطباخ قام بطهي وجبة شهية له كان سنغ هادئًا وطلب منا كوبًا من الشاي فقط. أما فرانك ريد فلقد عانى الكثير نتيجة للضربات التي كان يتلقاها على وجهه ولم يبذل أي مجهود لإخفاء غضبه لما تلقاه على أيدي خاطفيه، وأما روبرت بولهيل فكان هزيلاً واظهر ارتياحا كبيرا. وعندما رحبت به جاء ليقول: "لا يمكنك أن تكون اكثر سعادة مني يا سعادة السفير . وعندما وصلنا إلى البيت قلت له إن الرئيس الأمريكي يحب أن يتحدث معه مباشرة وذلك عندما يشعر بأنه قادر على ذلك. وقد كان صوته ضعيفًا وكان قلقًا لأن الرئيس لن يكون قادرًا على سماع صوته، وبعد احتساء الشراب مع زوجتينا قمت بالتحدث مع الرئيس الذي عبر عن سعادته لإطلاق سراحه إلا أن ما لا يعرفه بولهيل هو أن الرئيس قد اتصل به من على سطح قارب على ساحل فلوريدا وطلب من السفير تقريرًا عن الوضع والإعلام المرئي وما خططت لأن أقوله للصحافة والإعلام المرئي حيث إن عددًا من الصحفيين قد تجمعوا خارج بيتي وخارج وزارة الخارجية السورية. وبعد إفادة الرئيس عن الوضع قال بوش: "حسنًا سأشاهدك يا إدوارد على شاشة التلفزيون من القارب". ولقد جعلني ذلك أشعر بالعصبية قليلاً.

لقد أدلت مارلين فتزووتر المتحدثة الرسمية باسم البيت الأبيض بتصريح في فلوريدا قالت فيه "نحن سعداء لإطلاق سراح روبرت بولهيل ونحن أيضًا نريد أن نشكر كل من كان له يد في إطلاق سراحه وخاصة الحكومة السورية والحكومة الإيرانية. كان أمامنا العديد من الصعاب مع إيران والإرهابيين وما زال هناك سبع رهائن وسنستمر في الضغط حتى يطلق سراحهم. لم يكن هناك أي صفقات أو مفاوضات مع الخاطفين، أما بالنسبة لسوريا فلقد وفر السوريون

(*) رواقي المسلك أي أشبه بسلوك الكهنة والنساك (المترجم).

المعلومات بصفة مستمرة عن إمكانية إطلاق سراح الرهائن. لقد ساعدتنا سوريا في تسهيل إطلاق سراحهم في الساعات الأخيرة".

هذا المكان يُسمّى بروكلين

لقد كان حوارنا مع القيادة السورية يتضمن نقاشات عديدة عن وضع الجالية اليهودية في سوريا. ولقد سعينا إلى رفع القيود عن سفرهم وحسم مسألة ممتلكاتهم. ولقد أثار الرئيس بوش هذه القضية مع الرئيس الأسد في اجتماع القمة في جنيف، وناقش وزير الخارجية بيكر هذه القضية عدة مرات مع الأسد بالترافق مع العديد من أعضاء الكونغرس. ففي نهاية أحد أجتماعاتي مع الرئيس الأسد حيث كنا نتناول مواضيع أخرى، توقفت بينما كنا نتوجه إلى الباب وسألته عما إذا كان بالإمكان إثارة قضية أخرى وأجابني بالإيجاب، وأشرت إلى اتصالاتي مع موظفي المخابرات عن وضع الجالية اليهودية. وقلت إننا بصدد مسألة إنسانية وليست سياسية أو أمنية ولا تتصل بأي من القضايا الأخرى المتعلقة بإسرائيل، ومن ثم فلا بد من النظر إليها على أنها ليست تنازلاً من السوريين للإسرائيليين. كل ما نطلبه هو السماح لليهود السوريين بالسفر مثلهم مثل المواطنين السوريين. وطلبت من الأسد أن يعين مساعدًا يثق به يستطيع أن يكمل النقاش معي بصدد هذا الموضوع. فتوقف الرئيس قليلاً وبدأ يفكر مليًا ثم قال إنّه عليّ أن أعمل مع ناصر قدوره وزير الدولة ومستشاره الذي يثق فيه، ولقد شجعني مثل هذا الحديث لأنني أعرف أن قدوره يمكنه القيام بالكثير.

وفي الشهور التي سبقت هذا الاجتماع كان لنا اجتماعات عديدة مع قدورة وقابلت قادة الجالية اليهودية. ولكي أكون أكثر حذرًا كنت أرسل زوجتي فرانسواز لكي تحمل رسائل إليهم. وركزنا على مسألة منح تأشيرات خروج لغير المتزوجين من اليهوديات وإعادة لمّ شمل العائلات المنفصلة، هذا علاوة على رفع القيود على بيع وشراء ممتلكاتهم وكذلك إطلاق سراح الإخوة "سوفيد"

الذين قبض عليهم واحتجزوا لاتهامهم بالسفر إلى إسرائيل الأمر الذي كان محرمًا عليهم ويعد خرقًا للقانون، وذلك لأن سوريا في حالة حرب مع إسرائيل. ولقد أخبرني الأسد مرة أنه لا يريد للنساء اليهوديات السوريات مغادرة سوريا والتوجه إلى إسرائيل حيث إن هناك الكثير من الرجال ومن ثم فلا يجب عليهم التزوج من يهود إسرائيليين. ثم اشترط في حديثه قائلاً أنْ لا مشكلة لديه بالنسبة لرحيل اليهود السوريين "إلى هذا المكان الذي تسميه بروكلين" حيث يتواجد الكثير من أفراد الجالية السورية اليهودية هناك إلا أنه سوف يتراجع عن قراره إذا ما قرر اليهود السوريون الهجرة إلى إسرائيل.

وأخيراً وبعد بذل جهود كبيرة قام الأسد بلقاء زعماء الجالية اليهودية وعلى رأسهم الحاخام إبراهيم حمرا وهو رئيس حاخامات اليهود السوريين والدكتور نسيم حصباني. وكان هذا اللقاء لفتة طيبة من الرئيس الأسد. وبعد فترة من الزمن أطلق سراح "الإخوة سوفيد" من السجن ومنح اليهود السوريين نفس الحقوق التي تمنح للمواطنين السوريين الآخرين ومن بينها حق السفر.

ورحبنا بهذه القرارات لكونها نتيجة لحوار على مستوى عالٍ كنا نجريه مع النظام السوري.

وداعًا للأسد

قرب انتهاء رحلتي في سوريا قمت بزيارة حماة وهي معقل الإخوان المسلمين حيث نفذت قوات الحكومة عملاً عسكرياً في رد فعل غاضب لمحاولة الإخوان اغتيال الرئيس الأسد. وكان الشارع الرئيسي (الذي بني وأسس على أنقاض الهجمات التي قامت بها القوات السورية) يذكرني بقرية " بوتمكن". وعلى الرغم من مرور عشر سنوات تقريبًا على هذه الهجمات فإن التراث والميراث الدموي للماضي كان محسوسًا ملموسًا. ولم أر في حياتي مثل هذه اليقظة والانتباه

اللذين كان يتسم بهما رجال الأمن الذين خصصتهم الحكومة لمصاحبتي، هذا باستثناء الفترة التي مررنا بها عند شن حرب عاصفة الصحراء عندما علمنا أن صدام حسين أرسل مجموعة من رجاله إلى سوريا لاغتيالي وذلك عندما نجحنا في إقناع السوريين بالانضمام إلى قوات التحالف ضد العراق. وعندما أوضحت أنني أريد المغامرة بالذهاب إلى شوارع المدينة ما كان من رجال الأمن إلا أن شكلوا قلعة بشرية حولي لحمايتي.

في دمشق تقوم صفوة مشاة البحرية الأمريكية على حراسة السفارة. ولقد تأثرت كثيرًا عندما أخبرني أحد هؤلاء بأنه يضحي بجسده لحمايتي. ولحسن الحظ لم نواجه مشاكل إلا أنه ما يزال سمة من سمات الحياة في سوريا. فالقيادة السورية بدءًا من أعلاها تعتمد على شبكة من الحماية المكثفة، وهذا أمر واضح من خلال تواجد رجال الأمن المسلحين بالكلاشينكوف كل مئة قدم على طول شوارع دمشق السكنية. هناك ضاحية في دمشق (حيث تذهب ابنتي فرانشيسكا لحضور دروس البيانو) تشكل تحديا كبيرًا حيث إنها تأوي العدد الوفير من زعماء المنظمات الأصولية. ومن ثم فإن هذه البيئة المليئة بالمخاطر والتي اعتاد عليها السوريون وتحملوها لم تكن بعيدة عن أذهاننا. وعليه فلقد كنت سعيدًا عندما رجعت إلى وطني مع عائلتي وأنا في مأمن من كل هذا. رجعت إلى عملي الأصلي في واشنطن العاصمة، وفي لفتة طيبة لم تسبق والتي تعكس تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة وسوريا دعاني الرئيس الأسد إلى مقرّ رئاسة الجمهورية وذلك في حفل وداع في 24 تموز/يوليو عام 1991. وفي أثناء الزيارة التي استمرت ثلاث ساعات لاحظت أن ولايتي التي منحها لي ريغان وبوش وشولتز وبيكر والتي حاولت جاهدًا أثناءها الانخراط في حوار صريح ومباشر مع الأسد ووزرائه قد كانت لها نتائج إيجابية.

لقد اعترف الأسد لي بنتائج هذا الحوار وأصر على استمراره بنفس الشكل المنفتح الذي كان عليه ثم استرسل في مقولته قائلاً إنّ هناك نقطتين أساسيتين: الأولى أن على الولايات المتحدة ألا تسعى لفرض مواقفها أو

تعريفاتها على الآخرين، وثانيها أن على الولايات المتحدة أن تدرك أن نموذج الديمقراطية الخاص بها لا يمكن أن يطبق في كل دولة في العالم. وبالرجوع إلى النقطة الأولى المتعلقة بغرض التعريفات قال الأسد إن الأفعال التي سمتها الولايات المتحدة بالإرهابية تعد من وجهة النظر السورية أفعالاً تنفذ وتستمر ونحن في حالة حرب مع إسرائيل وهي محاولات مبررة وذلك من أجل تحرير المناطق المحتلة من قبل إسرائيل ومن ثم فهي تهدف إلى التحرر القومي، وأما بالنسبة لمنحى الولايات المتحدة فيما يتعلق باستهداف المدنيين في الأراضي المحتلة قال الأسد إن هذا المنحى لا بد وأن يأخذ في الاعتبار موت المدنيين الأبرياء من الجانب العربي، وقد أشار إلى غارات سلاح الجو الإسرائيلي وضرباته للأهداف المدنية في سوريا حتى اللاذقية والمناطق التي قتل فيها الكثير من المدنيين السوريين.

أما بالنسبة للنقطة الثانية والتي تتعلق بعالمية تطبيق نموذج الديمقراطية الأمريكي فلقد استرسل الأسد مشيرًا إلى تاريخ سوريا الحديث منذ الاستقلال ومذكرًا بأن الانقلابات العسكرية المتعاقبة نتج عنها حالة عدم الاستقرار التي سادت البلاد، إلا أنه لم يذكر أنه قد أصبح قائد سوريا بعد أن انقلب على منافسيه عام 1970، كما أنه لم يذكر محاولة الإخوان المسلمين لاغتياله عام 1982 والتي أدت إلى الهجوم العسكري على حماة. ولقد علق الأسد على ذلك قائلا إنّه يتوجب على الزعماء في العالم الثالث أن يجلبوا الاستقرار إلى بلدانهم أولاً ثم التوسع في العملية الديمقراطية بعد ذلك. وأضاف إن سوريا تمر عبر هذه العملية بخطواتها المحسوبة. وجهت استجابتي للأسد قائلاً إن المسلك الذي نسلكه لا يتضمن فرض أفكارنا على سوريا أو أي بلد آخر. وعوضًا عن ذاك التوجه نسعى إلى تحديد الأرضية المشتركة بيننا وما إذا كان من الممكن أن نصل إليها، ومن ثم يمكننا الاستمرار فيما نود أن نفعله بعد ذلك للوصول إلى نتائج إيجابية، فنحن نحاول استمالة أصدقائنا وليس فرض إرادتنا عليهم.

أما بالنسبة لملاحظته الثانية فإنني استرسلت قائلاً: "نحن الأمريكيون

نعتقد أن النظام الديمقراطي الأمريكي يمثل "مدينة فوق تل" يمكن للشعوب حول العالم أن تنظر إليها كنموذج. فنحن لا ندعي أن مجتمعنا نظام كامل". ولكني قلت بعد ذلك "إن روعة النظام الأمريكي تكمن في كونه تجربة في الديمقراطية تتطور مع تغير الأزمان وبدون انقلابات، فنحن نعترف بالتعددية في الحياة السياسية في عالمنا هذا، كما نعترف بالمراحل المتعددة للتطور، ومن ثم فنحن نشعر بأن مبادئ الديمقراطية الأمريكية جديرة بالمحاكاة".

وشعرت بعد ذلك أن الأسد وهو أحد أكثر القادة صرامة في العالم العربي سيستجيب للفرقعة التي تعج بالوطنية التي عبرت عنها إلا أنه أومأ برأسه وبدأنا في مناقشة الخطوات التالية في مسيرة مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية.

وفي نهاية زيارتي أخبرته أن إسحاق رابين تحدث معي عنه وذلك قبل مغادرتي واشنطن للاضطلاع بمسؤولياتي كسفير في دمشق، وكان ذلك عام 1988. وبابتسامة على شفتيه سألني: "ماذا قال رابين؟"؛ قلت له إنّ رابين وصفه بأنه أذكى قائد عربي ويصعب التغلب عليه، إلا أن ما يتفق عليه ويلتزم به سيقوم بتنفيذه، ويمكنك الاعتماد على ذلك. ثم سألت الأسد: هل رابين على حق؟ فما كان منه إلا أن توقف لحظة وقال: "بالنسبة لهذا الأمر أنا أتفق مع رابين".

الفصل الخامس

القدس

في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير 1994 بعد أن أدلى إسحاق رابين بملاحظته التي ذكرتها، بدأ فصل جديد من حياتي يتفتح أمامي على الرغم من قصره، وذلك عندما وصلت إلى مطار بن غوريون في تل أبيب وذلك للبدء في مهمتي التي أوكلت لي كسفير للولايات المتحدة في إسرائيل. وكنت مصطحبًا زوجتي "فرانسواز" وطفلينا "غريغوري وفرانشيسكا". وبينما تقدمت طائرة TWA واقتربت من البوابة قيل لنا أن ننزل من الطائرة أولاً وذلك لأن الصحفيين والإعلاميين تجمعوا على الطريق.

وحيث إنني قد حفظت عبارة عبرية تستخدم عند الوصول، قلت: "نحن سعداء أن نكون سويًا". وكان هناك صديق إسرائيلي كان معتاداً على المناداة على سائقي السيارات أخبرني أن هذه اللافتة البسيطة كان لها تأثير طيب وكانت هذه هي أول فرصة نتعرض فيها مباشرة لتدقيق الإسرائيليين من الصحفيين. وأدركت بسرعة أن السفير الأمريكي لإسرائيل يأتي في المرتبة الثانية بعد القيادة الإسرائيلية من حيث الأهمية. وكان السؤال الأول الجاد حول الرئيس كلينتون ولقائه المرتقب مع الرئيس السوري حافظ الأسد في جنيف. فقلت إننا نأمل في

التوصل إلى نتائج حقيقية تمكن من تقدم المفاوضات على المسار السوري الإسرائيلي. ثم بعد فترة قصيرة أدخلونا إلى قاعة كبار الزوار حيث كانت توجد مجموعة أخرى من المصورين الذين أخذوا صورًا لعائلتي مع التركيز على فرانشيسكا وقطتها التي كانت تحتضنها بين ذراعيها لتحميها من الاهتياج والفوضى التي كانت تعم المكان.

وفي اليوم التالي من وصولنا نشرت الصحف صورنا مع تعليق طويل يفيد بتشجيعها لعودة اليهود إلى إسرائيل، حيث إن القطة أعطيت لفرانشيسكا من أصدقاء يهود لنا في نيويورك. حقاً إن السفير الأمريكي وعائلته سيكونان مركزًا للاهتمام وإمعانًا للنظر في إسرائيل.

ولقد فهمت بسرعة شيئًا آخر عن الحياة في إسرائيل، وذلك عندما أخذوني أنا وفرانسواز وفرانشيسكا إلى مكان قريب من السفارة لتجهيزنا بأقنعة للغاز (وكان ابني قد عاد إلى الولايات المتحدة للالتحاق بكليته هناك). لقد كان هذا الإجراء إجراءً احتياطيًا إجباريًا. وشعرت بالخوف والاستغراب - إسرائيل واليهود تحت تهديد الغاز بالرّغم من تفوّقها العسكري في المنطقة وهيمنتها الإقليمية. ولقد كانت صواريخ سكود التي أطلقها صدام حسين أثناء حرب عاصفة الصحراء ذكرى قاسية وموجودة لسهولة تعرضهم للهجوم. وعندما وصلنا إلى المكان حيّانا ضابط من جيش الدفاع ومجموعات من المجندات الرشيقات في جيش الدفاع بدؤوا يطلعوننا بمهنية عن كيفية استخدام الأقنعة. وجهزنا بهذه الأقنعة وبينوا لنا كيفية الحقن بالترياق في حال تعرضنا للتلوث بالغاز. وكان يبدو كل ذلك لنا أمرًا غريبًا. إلا أن زيارتي لمحرقة أوشفيتز من قبل حيث رأيت أسنانًا وكتلاً من الشعر وبقايا قطع من العظام لضحايا النازية من اليهود المحروقين بعد تعرضهم لفرن الغاز، تركت الأثر العميق في نفسي.

الاستقرار في إسرائيل

لقد كان حفل تقديمي لأوراق الاعتماد في اليوم التالي لوصولي إلى إسرائيل، وأستطيع القول إنّ المهمة التي أوكلت لي كانت في غاية الأهمية. وقبل الحفل قابلت رئيس المراسم وكبار الموظفين التابعين لوزارة الخارجية بمن فيهم شيمون بيريز وزير الخارجية. وطلبت رؤية وزير الخارجية لمناقشة خاصة. وأوضحت أنّ هدفي هو تسريع الحوار بين البلدين عبر العلاقة الخاصة بين كل من إسرائيل والولايات المتحدة، وأخبرته أنني كنت أحترم سعيه الحثيث والمتواصل من أجل سلام إسرائيلي مع الجيران العرب وأعربت له عن يقيني بالعمل الشاق والدؤوب الذي يجب علينا سويًا أن نقوم به. وكان بيريز لطيفًا ومهذبًا ولبقًا في ملاحظاته، وأخبرني بأن الإسرائيليين سعداء بتعييني سفيرًا. وناقشنا سويًا اجتماع كلينتون بالأسد، وكان لدى بيريز الأمل في أن هذا الاجتماع سيساهم في دفع مسار السلام إلى الأمام ويمارس الضغط أيضًا على ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية حتى يتم التوصل إلى إعلان مبادئ لحكم ذاتي في غزة والضفة الغربية. ولقد عبر بيريز عن خيبة أمله بالنسبة لعرفات وإدارته للمفاوضات بأسلوب سلطوي يتخطى إعلان المبادئ. ولقد تنبأ بيريز بالتلكؤ والتأخّر في الوصول إلى نهاية ناجحة للمفاوضات.

ولسوء الحظ فإن هذا النمط من التلكؤ وضياع الفرصة سيرسم مجرى المفاوضات المستقبلية مع إسرائيل. وذهبت مع بيريز إلى مكتب رئيس الدولة وذلك لحضور حفل تقديم أوراق الاعتماد ـ على الرغم من أن رئيس الوزراء في إسرائيل هو رئيس الحكومة ويمارس أكبر سلطة في داخل الحكومة حيث إن رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة، ومن ثم فهو الموظف الرسمي المنوط به شؤون البروتوكول. وهبّت يوم تقديمي لأوراق الاعتماد ريح باردة قليلاً تمامًا مثل اليوم الذي قدمت فيه أوراق اعتمادي في دمشق منذ 6 سنوات. ووقفت أنا وعائلتي في نهاية بساط أحمر وبجانبي جوقة عسكرية وحرس الشرف المكون

من جنود نظاميين من جيش الدفاع الإسرائيلي. ووقفنا منتبهين وبجانبنا العلم الإسرائيلي. وبعد استعراض حرس الشرف ذهبنا إلى داخل حجرة الاستقبال حيث رحب بنا وايزمان وبيريز ومجموعة من الموظفين، وقمت بتقديم الملاحظات وأوراق الاعتماد.

وصافحني وايزمان بحرارة وعبر عن امتنانه وتقديره لملاحظاتي ووصفها بأنها تحمل معاني كثيرة. وقدمت إلى الرئيس أعضاء السفارة، وموظفيها الحاضرين وتقدمنا إلى غرفة الاستقبال حيث قُدّم لنا الشراب، وتحدث وايزمان وزوجته "روينا" معي ومع عائلتي. وهنأت وايزمان على تاريخه العسكري والسياسي المجيد وعلى دوره الكبير في التاريخ الإسرائيلي. وأخبرت وايزمان عن علاقته الخاصة مع الرئيس أنور السادات الذي وقع معاهدة السلام مع رئيس الوزراء مناحم بيغن، وهي المعاهدة الأولى التي وقعت مع دولة عربية في تشرين الثاني/نوفمبر 1979. وكان السادات قد أظهر شجاعة في رؤيته المستقبلية والإنجاز الذي حققه نتيجة لتوقيع هذه المعاهدة. وقادتنا هذه المحادثة إلى العديد من القصص عن أنور السادات وبيغن. وقد وصفهما وايزمان "برجُلي المسرح" اللذين عرفا كيف يصنعان المستقبل، ثم تحدثنا عن وصول السادات إلى إسرائيل وفصاحته في الخطاب الذي ألقاه في الكنيست في العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 1977 عندما تنبأ بوقت يمكن لكل من إسرائيل والأمة العربية بدء حياة جديدة من الحب والرخاء والحرية والسلام الذي يعتمد على انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها عام 1967 ثم إمكانية إقامة دولة فلسطينية وتكون القدس عاصمة لكل من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

وفي حديثنا الخاص أوضح وايزمان أن على إسرائيل العمل بنشاط لتحقيق السلام مع سوريا، وسيكون ذلك الإنجاز مكافأة كبرى. ثم تحدث عن أن سوريا ما زال يمكنها إلحاق الأذى والضرر بإسرائيل. ثم بدأ يعيد قصة حرب تشرين الأول/أكتوبر وكيف أن كلاً من مصر وسوريا تآمرتا لشن هجوم مفاجئ على إسرائيل. إلا أن إسرائيل في النهاية كسبت الحرب ولكنها دفعت ثمنًا كبيرًا

واعترف قادتها بالتهديد الذي تشكله دولة معادية على الحدود الشمالية، ولم تعد أهمية العلاقات بين إسرائيل وسوريا بسر كبير.

وبعد توقيعي على دفتر البروتوكولات تقدم صحفي مني وسألني بالعربية عن لقاء كلينتون والأسد وبعد ترجمة سؤاله إلى الإنكليزية، وذلك من أجل فهم الصحفيين الإسرائيليين لما يدور، قلت إنّ هذه الفرصة مهمة لتحديد مستقبل السلام بين إسرائيل وسوريا. ثم سأل الصحفي سؤالاً آخر عن لقاء إسحاق رابين رئيس الوزراء والرئيس حافظ الأسد. وكانت إجابتي لسؤاله مختصرة: "الاتكال على الله".

أرميني في القدس

وبعد المؤتمر الصحفي ذهبنا إلى الخارج ووقفنا احترامًا للنشيد الوطني الإسرائيلي، ثم خرجنا ومشينا على البساط الأحمر بينما كانت الجوقة تعزف نغمات فولكلورية، وتمتعت ابنتي وكذلك ابني بسماع هذه النغمات، ثم تناولنا طعام الغداء مع إيلي روبنشتاين الذي كان كبير المستشارين لرئيس الوزراء رابين والذي كان مسؤولاً عن محادثات إسرائيل مع الأردن. وكان إيلي واحدًا من أذكى الإسرائيليين الذين قابلتهم وقال لي إنني أول سفير أرميني إلى إسرائيل كما إنني أول مساعد أمريكي لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى كما إنني أول سفير للعديد من الدول العربية (مصر كانت الوحيدة التي لم يسعدني الحظ لأن أكون سفيرًا لأمريكا فيها). ثم أخبرني بعد ذلك أن حفل تقديمي لأوراق الاعتماد كان يتسم بعدم الرسمية غير المسبوقة، ثم أردف قائلاً إن انطباعه كان حسنًا بالنسبة لخطابي عن سياسة الولايات المتحدة. ثم أخبرني أنه يفضل أن نلتقي بمفردنا مع الرئيس ثم نظهر جميعًا في المؤتمر الصحفي.

ثم تحدثنا عن المحادثات الأردنية الإسرائيلية وتحدث روبنشتاين عن قلقه

بالنسبة لتعثر المحادثات على المسار الأردني. وحث على النظر إلى صيغة تمكن الطرفين من التركيز على حل القضايا الرئيسية بتفاصيلها في مجموعات عمل وذلك حتى يحدث تقدم على المسارات الأخرى، الأمر الذي سيشجع الأردنيين في النهاية على البحث عن مخرج للمشاكل التي تواجه المتفاوضين. ثم أشار إلى إشكالية معروفة وهي أن العقبات التي تواجه المتفاوضين في مسار من المسارات لا يجب أن تعطل سير المفاوضات في مسار اخر.

اسحاق رابين

قمت بأول زيارة لي كسفير لمكتب وزير الدفاع الإسرائيلي في تل أبيب. فبالإضافة إلى رئاسته للحكومة احتفظ رابين لنفسه بحقيبة وزير الدفاع ووزير الشؤون الداخلية والدينية، ولقد حياني هو ورجال مكتبه، وتصافحنا أمام عدسات الكاميرا قبل أن نجلس سويًا ونبدأ مناقشة مطولة. ولقد أخبرت رابين أنني قدمت إلى إسرائيل لمتابعة الحوار عن كثب بين إسرائيل وسوريا في هذه المرحلة المهمة من الصراع العربي الإسرائيلي وأمامي هدفان: الأول هو المساعدة على الدفع بالمحادثات قدمًا بين إسرائيل وجيرانها العرب، وأما الهدف الثاني فيتلخص في تعزيز العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل على كل المستويات وخاصة الاقتصادية والتجارية والتعاون التكنولوجي. عبرت أيضًا عن مدى الاحترام الذي أكنه له وأخبرته بأنني أتطلع للعمل معه عن كثب. ولقد عبّر رابين عن تقديره لي وتمنى لي التوفيق وقال إنّه يتطلع أيضًا إلى العمل معي عن كثب وأنّه سيكون حاضرًا عند الضرورة.

وناقشنا اجتماع جنيف القادم بين الرئيسين كلينتون والأسد وأوضحت له أن الولايات المتحدة لن تذهب إلى الاجتماع على حساب إسرائيل ولن نقول للأسد إذا فعلت كذا وكذا فإن إسرائيل تفعل كذا وكذا. وسنركز على ما تحتاجه سوريا للتقدم في مفاوضات السلام. فضلاً عن ذلك، فإنّنا لن نخرج عن التزامنا

بأن تكون المفاوضات وجهًا لوجه الأمر الذى كنت أعتبره مهمًا بالنسبة لى ولإسرائيل.

وبينما كان رابين يعتقد أن الولايات المتحدة هى صديق وحليف لإسرائيل إلا أنه كان مرتاحًا لوضع مصير إسرائيل بالنسبة لقضايا الحرب والسلام فى أيدى الأخرين وذاك بدون الانخراط المباشر والمستمر فى العملية. وفى هذه المرحلة من الدبلوماسية فإن الولايات المتحدة كانت تلعب دورًا أساسيًا كوسيط نزيه بين إسرائيل وسوريا وذلك بهدف تمهيد الطريق لمحادثات مباشرة؛ ولأن الرئيس الأسد يصر على أن نكون فى غرفة المحادثات فإننا سنلتزم بذلك.

ولقد أظهر رابين ارتياحه لهذا المنحى إلا أنه عبّر عن قلقه بالنسبة لعدة أمور؛ فهو يعتقد أن البعض في إسرائيل يشعر أن الرئيس الأسد سيعمل على تبادل السفراء وتأسيس سفارات إلا أنه ليس مستعدًا لإرساء علاقات طبيعية. فالتطبيع سيواجه مشاكل الإدراك الحسي، فهو يظن أن الأسد يجد صعوبة في تقبّل مسألة التدفق الحر للأفراد من وإلى سوريا؛ هل يستطيع أن يتعامل مع 50 ألف سائح في سوق الحميدية (السوق المركزي) في دمشق. وكان رابين يأمل في أن يوفّر اجتماع جنيف تعريفًا أكثر وضوحًا للسلام، إلا أن شكوكه كانت واضحة عندما قال "لا بد لنا أن ننتظر ونرى ما سيحدث".

ولقد عبّر رابين عن خيبة أمله الكاملة من ياسر عرفات الذي قال عنه إنَه ما زال يحاول المراهنة على إعلان المبادئ والدخول في مناقشة قضايا الحل النهائي. وكان رابين يظن أن عرفات يدرك مصلحة إسرائيل في التحرك إلى الأمام للتطبيق كعلامة ضعف من إسرائيل. كان على عرفات أن يفهم أننا ما زلنا في المرحلة الأولى من عملية تتكون من مرحلتين. فقضايا الأمن المتضمنة في نقل السلطة ـ تذاكر مرور للانتقال بين القطاعات، بناء واستخدام الجسور، والأهم هو موضوع المستوطنات ـ كل هذه الأشياء ما زالت تشكل مشاكل.

وأصر رابين على أن إسرائيل لا بد لها أن تستمر في السيطرة على الأمن الخارجي أثناء هذه الفترة.

وظن رابين أن تأجيل المحادثات القادمة في واشنطن والتي يرأسها رؤساء الوفود من العرب والإسرائيليين أو اشتراك الجيران من الأردنيين والسوريين يمكن أن يدفع عرفات إلى منحى أكثر موضوعية. ولقد كان رابين يشك في تكتيكات عرفات فهو يظن أن أبا مازن وأبا علاء وهما رفيقا عرفات في فتح ومنظمة التحرير أكثر جدية كمحاورين إلا أن الانقسامات العميقة داخل منظمة التحرير وفقدان الإحساس بالإلحاحية نتج عنه ضياع الفرص.

وغادرت مكتب رابين وأدركت من جديد كيف أن طريق محادثات السلام صعب وشاق إذا أخذنا في الاعتبار الشكوك العميقة التي يشعر بها كل من العرب والإسرائيليين تجاه بعضهما البعض.

ولقد رأيت هذا مرة أخرى عندما جاء طاقم المفاوضات إلى إسرائيل لإفادة رابين في الحال بعد مقابلة الأسد وكلينتون في 16 كانون الثاني/يناير 1994. لقد شاهد رابين المؤتمر الصحفي في نهاية اللقاء وأخبرني أنه لم يستجب لما سمعه؛ لقد كان يأمل في أن يقول الأسد نفس الشيء الذي قاله كلينتون بالنسبة للسلام الإسرائيلي السوري. ففي رأي رابين هناك فرق كبير.

وعندما وصل مارتن أنديك المساعد الخاص للرئيس كلينتون والمدير في قسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا التابع لمجلس الأمن القومي وبصحبته دينيس روس المنسق الخاص للشرق الأوسط إلى القدس، أبلغتهما أن رابين خاب أمله. وعندما جلسنا معه في منزله كان رابين ينصت بعناية للإفادة، ولقد توصل الأسد إلى قرار يفيد بأنه يود أن يتحرك إلى الأمام إلا أنه يريد أن يقنع الرئيس كلينتون أن سوريا تشعر بالقلق وأنه من المهم للولايات المتحدة أن تتفهم وجهة النظر السورية.

ولقد كان هدف الولايات المتحدة من الاجتماع أن نصل إلى نهاية عامة،

خاصة أننا أردنا أن يقول الأسد شيئًا عن إنهاء الصراع وتحقيق السلام مع سوريا ولتسمية إسرائيل باسمها وأن يعلن أنه قد اتخذ الخيار الاستراتيجي للسلام وإدخال "علاقات طبيعية" في لغته وملاحظته. ولقد أفاد الموجودون رابين بأن صحفياً سأل كلينتون عما إذا كان قد سمع الأسد يقول إنّه ملتزم بالتطبيع وكان رد كلينتون بالإيجاب.

إلا أن رابين الذي كان طليقًا في اللغة العربية أخبرني أن الأسد استخدم عبارات مختلفة عن التطبيع (العلاقات العادية) وليس "العلاقات الطبيعية". وأصر رابين على أنه لا يمكن السير في المفاوضات مع السوريين إلا إذا كان هناك "حزمة محددة" تحدد طبيعة السلام بما في ذلك الانسحاب من الجولان وترتيبات الأمن ودور الولايات المتحدة؛ فلقد كان في ذهنه الانسحاب على مراحل في خلال 3 سنوات مثل اتفاقية السلام مع مصر.

ولقد أجاب الأسد على سؤال آخر وقال إن سوريا ستفي بمتطلبات السلام. علمت أن رابين لا يظن أن هذا كافيًا ولم يندهش عندما قال "إن هناك خيبة أمل في إسرائيل بالنسبة لتصريح الأسد إذ إن المواطن العادي الإسرائيلي سيقول إن الأسد لم يذكر شيئًا جديدًا. إلا أن الإسرائيليين الذين كانوا قلقين شعروا بالارتياح؛ فالأسد الذي يقول سلام كامل وتطبيع العلاقات في مقابل إعادة مرتفعات الجولان سيضع إسرائيل في موقف تجد نفسها ملزمة وسيكون ذلك أمر آخر وسنضطر إلى الاستجابة. ثم ذكر رابين عبارة مهمة: "في ظل هذه الظروف لا يمكن تحقيق ما ناقشناه، وكان رابين يشير إلى "وديعة" سرية أعطاها لكريستوفر وارين في آب/أغسطس 1993 لتنقل للأسد وهو يقدم اقتراحًا افتراضيًا يقضي بما يلي: إذا كانت متطلبات إسرائيل للسلام والتطبيع وترتيبات الأمن وعلاقات التطبيع قد نفذت، فإنّ إسرائيل يمكنها أن تتدبر الانسحاب من الجولان إلى خط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967.

واستمر رابين في القول إن ربط كل شيء بالسلام على كل الجبهات

يسمح للأمور بأن تكون منفتحة ويصعب تحقيقها. سوريا لن توقع على اتفاق سلام ما لم تكن كل من الأردن ولبنان والفلسطينيين في القافلة، الأمر الذي يؤدي إلى حقيقة مؤداها أن كل ما ناقشناه ليس له جدوى. ومن ثم إذا لم يعقد اتفاق ثنائي مع سوريا، فلا يمكننا السير على الأساس الذي ناقشناه. وأوضح رابين أنه لا بد من اتفاق ثنائي للوفاء بشروطه.

وتحدث رابين عن إمكانية عقد استفتاء في إسرائيل عن السلام مع سوريا. إلا أنه لم يصل إلى هذه النقطة بعد، لكنّه قال مكررًا: "كل ما تم سرًا أصبح الآن أكثر تعقيدًا".

وبالنسبة لرؤية رابين فإنّ المفاوضات مع سوريا كانت مختلفة نوعيًا عن تلك التي تعقد مع الفلسطينيين. فالثمن لتحقيق السلام مع سوريا هو الانسحاب من هضبة الجولان بشرط أن يكون على مراحل ويخضع لمطالب الأسد، أما بالنسبة للفلسطينيين فالمنحى الذي يجب على إسرائيل أن تسلكه ينحصر في اتفاق مؤقت وليس نهائيًا. وكما اعترف رابين، فإن الإسرائيليين أدركوا أنّ هناك مشاكل مع منظمة التحرير في المفاوضات إلا أنهم لن يتخلوا عن شيء في هذه المرحلة، وذلك بسبب الطبيعة المؤقتة لإطار التفاوض، وهذا هو السبب في أن رابين كان يريد من الأسد أن يعلن علانية وسرًا عن طبيعة السلام مع إسرائيل، وذلك حتى يحصل على موافقة الإسرائيليين على "الانسحاب من الجولان" فهي قطعة استراتيجية من الأرض إلا أن أهميتها تقل في عصر الصواريخ الباليستية.

وكان رابين مستعدًا لاستكشاف المسار التفاوضي للسوريين حتى يرى إلى أي مدى يستطيع الأسد أن يصول ويجول. وطبقًا لرؤيته، فهو يصيب الفلسطينيين بالعصبية إذا ما تخطتهم المفاوضات السورية. وفي سياق هذه الصعوبات مع الأسد وعرفات في مفاوضاتهم وقلقه بالنسبة للولايات المتحدة ومبدئها "في التفاوض باسمنا" مع سوريا، بدأ رابين في النظر بجدية إلى إنهاء معاهدة سلام مع الملك حسين خاصة لأنه ليس هناك مشاكل تتعلق بالأرض بين

إسرائيل والأردن، هذا علاوة على أن اتفاق السلام يمكن أن يكمل المسار الفلسطيني ومن ثم نضع ضغطا على السوريين.

وفي الحقيقة دخل رابين في مفاوضات وجهًا لوجه مع الملك حسين؛ ففي 25 تموز/يوليو عام 1994 وقع كل من الملك حسين ورئيس الوزراء رابين إعلانًا في البيت الأبيض بانتهاء حالة العداء بين الأردن وإسرائيل، ووضع إطار لمعاهدة سلام. وتم التوصل إلى معاهدة سرية بين إسرائيل والأردن ووقعت رسميًا في 26 تشرين الأول/أكتوبر 1994 على الحدود بين إسرائيل والأردن، وقد أعلن الطرفان "نهاية عصر الحروب" بين الدولتين.

كلينتون في جنيف 1994

في اجتماع كانون الثاني/يناير 1994 مع الأسد قال الرئيس كلينتون إن رابين أكد الالتزام الذي قدمه للأسد وذلك عن طريق وزير الخارجية وارين كريستوفر وحصل على تأكيد الأسد لالتزامه لرابين بما يفيد فتح الحدود للتجارة والسياحة وتأسيس علاقات دبلوماسية وتبادل السفراء. وقد أشار كلينتون أيضًا إلى تفاهمات على أن تكون ترتيبات الأمن كافية.

ولقد أجاب الرئيس الأسد مؤكدًا على ما التزم به إلا أنّه قال إن الترتيبات الأمنية لا بد وأن تكون متكافئة، وشدد على أن الأمن المتوازن "يجب أن يكون على قدم المساواة" مبديًا ملاحظة تفيد بأن دمشق أقرب إلى الحدود مقارنة بتل أبيب أو القدس. وقال كلينتون **إن** الولايات المتحدة مستعدة لتوفير ضمانات ناجحة بالأمن بجانب وجود قوات أمريكية إذا كان ذلك مفيدًا للطرفين. وأشار إلى المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، وقال إنّه إذا كان الهدف هو السلام الشامل فالتقدّم في مفاوضات جرش يمكن أن يشجع التحرك على المسار الفلسطيني. وقد أومأ الأسد برأسه، ولكنه لم يعلق على ما قيل. أما بالنسبة للتوقيت فعلى الجانبين العمل لكي يصلا إلى اتفاق بالنسبة لهذا الموضوع.

ولقد أثار الرئيس الأسد قضية الدوافع الإسرائيلية وشكوكه فيما إذا كانت إسرائيل تريد حقًا أن تعقد صفقة معه، وأفاد بأنه لا يرغب في أن يخدع. ولقد أكد الرئيس كلينتون أنه تحدث مع رابين عدة مرات بأن صفقته مع سوريا أمر ضروري للتوصل إلى تسوية سلمية. ولقد عبر الرئيس الأسد عن أمله في أن تكون ثقة الرئيس كلينتون في رابين مبررة. ولقد قال له كلينتون إن الولايات المتحدة تفضل أن ترى إعلانًا للمبادئ يكون ناجحًا سرًا ويعلن عنه علانية عندما يتفق عليه الجانبان. ولقد قال الأسد إنّه يود أن يرى تاريخًا يمكن أن يعلن فيه عن هذا الاتفاق. وكلينتون يود أن يرى التوقيت جزءًا من التفاوض. ولقد أثار الأسد قضية وديعة رابين عام 1993 وصمّم على أن تكون ملزمة للطرفين.

ولإدراكه أن الرئيس الأسد كان قلقًا من التزام سوريا بعملية السلام ويكتشف بعد ذلك أن إسرائيل تتملص منها، فلقد أكد كلينتون للأسد أن هذا ليس انطباعه عن رابين. ثم أخبر كلينتون هاتفيًا أن الأسد مرتاب بالنسبة لأي مفاوضات وخاصة بعد خبرته مع هنري كيسنجر في السبعينيات عندما تُركت سوريا جانبًا واستمرت إسرائيل ومصر في عملية السلام التي انتهت بتوقع معاهدة سلام، ولقد فهم رابين ذلك. وفي الحقيقة فقد حثه في هذا الوقت بعض كبار مستشاريه على التركيز على المسار الفلسطيني وجعل السوريين ينتظرون.

وتحدث الأسد عن إعلان مبادئ كإطار لاتفاق مع ملاحق يمكن أن تكون أساسًا لكل شيء وبدون أي التباس أو غموض، ولقد أكد له كلينتون أن هذا هو رأيه وهو يصدق رابين أيضًا. ولقد وافق رابين على ذلك سرًا إلا أنه قلق من أن أي التزام سري سيعلن عنه قبل التوصل إلى التفاصيل ويولّد بعد ذلك انشقاقات ومعارضات مما يؤدي إلى إفشال أي صفقة طويلة الأمد.

ولقد قال لكلينتون: "أنت تفاوض باسمنا" و"هذا يعد مشكلة، لقد اتفقت على شروط معينة ـ اتفاق ثنائي ينفذ على مراحل". وبانفتاح للحدود مثلما حدث من جانب مصر قبل الانسحاب الكامل، كانت هناك مشكلة كبيرة مع بحر الجليل

واتفاق سايكس بيكو بالنسبة لتعديلات صغيرة على الحدود ـ وكل ذلك يمكن أن يُحدث مشاكل كبيرة إذا ما أصبحت علنًا قبل الأوان. فبالإضافة إلى مصر، كان هناك ظهور للسادات في إسرائيل؛ شعر رابين بأن الأسد لم يقم بأي تحرك نحو سلام يؤمن به الناس. ولقد اعترف كلينتون بشرعية قلق رابين وأخبر الأسد بأننا في حاجة إلى الدبلوماسية العامة وأنه بمجرد موافقة سوريا وإسرائيل على التبليغ عن "إعلان المبادئ" وإذاعته فإن الحاجة ماسة للقاء رابين وذلك بهدف وضع هذا الاتفاق في شكل رسمي وأنه (أي كلينتون) سيستضيف الاجتماع. وأضاف أن رابين قد وافق من قبل على عقد الاجتماع.

بناء السلام خطوه خطوة

لاحظ الأسد أن الموقف يتدهور في المنطقة وأن الوقت ليس في جانب السلام، وطلب من كلينتون أن يقول لرابين: "لا أعرف كم من الوقت لدينا... موقفي يصعب". وعندما سأل الأسد وارين كريستوفر ما إذا كان يعتقد أن 6 أشهر (وهي المدة التي عرضت) كافية لتنفيذ مراحل العملية أجاب كريستوفر بأن هذا الأمر يعود إلى كل من سوريا وإسرائيل.

وفي لقاءاتي معه عبّر رابين عن قلقه من وضعية المفاوضات. وأكد على أن تحقيق السلام الشامل مع العرب يتطلب من إسرائيل بناءه خطوة خطوة على أساس ثنائي مع كل دولة عربية (الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين)، ولقد تعهد بالوفاء بالتزاماته كاملةً بالنسبة لعدد من القضايا في المفاوضات الفلسطينية، وإذا فشل في مسعى الترتيبات الأمنية على المسار السوري فسيشعر "بالشلل" ويفقد قدرته التفاوضية "إن هذه هي المشكلة عندما تفاوض من خلال وسيط" "فعندما توضح استعدادي للانسحاب الشامل، تقوم بتدمير قدرتي على التفاوض. وبمجرد أن تتسرب المعلومات قبل الحصول على كل ما تريده فهناك مشكلة ستواجهني. وإذا ما حدث خطأ فنظامه يمكن أن يصلحه ويعوضه". ففي

رأى رابين، إنّ الأسد يقدم التزامات شفهية وعامة بطبيعتها ويمكن أن ينقضها، بينما رابين نجده ملتزمًا بالانسحاب الكامل الملموس من مرتفعات الجولان.

موت باسل الأسد

في 21 كانون الثاني/يناير عام 1994 اتصل بي رئيس الوزراء رابين ليخبرني بانه تلقى معلومات غير مؤكدة تفيد بأن باسل الأسد ابن الرئيس حافظ الأسد ووريثه السياسي قد قتل في حادث سيارة. وقال رابين إن أبا باسل كان يحبه. ومن ثم إذا كان هذا الخبر صحيحًا، فإننا لا نعرف ما ستنطوي عليه الأمور، وإذا تأكدت هذه المعلومات أرسل تعازي كشأن إنساني خاص من جانبي. وعلقت على هذا الخبر قائلاً: إن باسلاً الذي كنت قد قابلته في دمشق يهوى ويحب قيادة سيارته بسرعة، ومن ثم فإنه من المهم تحديد كيف أن رفعت الأسد الطموح سياسيًا وهو أخ لحافظ الأسد سيستجيب وماذا سيكون دوره عقب موت باسل.

وعلى أي حال، أكدت لرابين أنني سأحاول التأكد من الأمر وسأتواصل معه وأشاطره المعلومات التي سأحصل عليها. واتصلت بسفيرنا في دمشق كريس روسي الذي أبلغني أن خبر وفاته مؤكد (90%)؛ هناك سيارة قد تحطمت على الطريق المؤدي إلى المطار هذا الصباح، ويعتقد أن باسلاً متورط في هذا الحادث، ولقد كان مقررًا أن يقابل الأسد وفدًا من الكونغرس الأمريكي إلا أن وزير الخارجية السوري اتصل بالسفارة الأمريكية ليلغي الاجتماع وذلك لطارئ عائلي. وكانت مكبرات الصوت في المسجد القريب من السفارة ومكتب الرئيس تندب المرحوم باسل الأسد، إلا أن وزارة الخارجية السورية لم تؤكد نبأ الوفاة.

وبافتراضنا أن باسل الأسد قتل في الواقع طلبت من كريس أن يرسل تعازي رابين الخاصة إلى الرئيس الأسد. ولقد علمنا مؤخرًا أن باسلاً كان يقود سيارته بسرعة فائقة (أكثر من 100 ميل في الساعة) في صباح ضبابي وذلك

للحاق برحلة طائرة لوفتهانزا، وقد اصطدمت سيارته بحاجز حجرى عند حافة الطريق ومن ثم انقلبت عدة مرات محطمة رأسه، إلا أنه نقِل إلى مستشفى الأسد حيث وصل أبوه بعد فترة قصيرة وجلس بجانب جثة ابنه لفترة.

وعندما خرج الأسد من الحجرة كان يبكي. اتصلت برئيس الوزراء رابين فى 30 كانون الثاني/يناير 1994 لمناقشة الموقف فيِ سوريا عقب موت باسل والنتائج المتوقعة بالنسبة لمفاوضات السلام معِ سوريا. وحيتنى "ليا رابين" زوجة إسحاق رابين على باب شقتهما الصغيرة فى تل أبيب وسألتنى ماذا أحب أن أشرب. وحيث إن الساعة كانت الحادية عشرة ونصف صباحًا طلبت فنجانًا من القهوة السوداء، إلا أنها نظرت إليّ وكررت السؤال بأسلوب استدعاني لأطلب كأسًا من الويسكي حيث إن هذا هو الخيار المناسب لأن زوجها يحتسي الويسكي في هذا الوقت.

ولقد اتفقت أنا ورابين في تقديراتنا للموقف في سوريا؛ كان حافظ الأسد مسيطرًا على الموقف إلا أنه كان حزينًا جدًا على موت باسل، فهو يمكنه أن يسيطر على أخيه رفعت حتى لا يتمكن من انتزاع السلطة منه كما تم من قبل في الماضي عندما كان مريضًا. ولقد أكد رابين على الرغم من ذلك أن هذا الوقت ليس مناسبًا لدفع الأسد لاتخاذ قرارات خطيرة بالنسبة للمفاوضات، وعقب رابين على ذلك قائلاً: "نحن في حاجة إلى بعض من الفراغ السياسي".

كان رابين غير مرتاح بالنسبة للحالة التي وصلت إليها المناقشات بين الولايات المتحدة والسوريين، ففي لقاء خاص في 17 شباط/فبراير عام 1994 عبّر عن قلقه الأساسي ورغبته القوية في مفاوضات مباشرة وسرية مع السوريين. وأخبرني أن المشكلة الحقيقية كانت "أننا في (إسرائيل) ليس لدينا شريك سوري في المفاوضات، وكان هذا يتم عن عمد لأن الأسد يريد ذلك. فهو يريد من الولايات المتحدة، كوسيط، أن توصل رؤية كلاسيكية عربية إلى إسرائيل". وكرر رابين ما قاله لوزير الخارجية الأمريكية كريستوفر بأنه كان لا

بدّ من توفّر صفقة شاملة حول المفاوضات وأنّ تجنب القضية الأساسية ألا وهي الانسحاب من الجولان وتنفيذها على مراحل هو خطأ اقترفته الولايات المتحدة. فإسرائيل لن تتصدّى للقضية الأساسية بتفاصيلها، وذلك في غياب صفقة كاملة تتضمن شرطًا لطبيعة السلام المتوقع ومراحل الانسحابات وتوقيتها وتنفيذ ترتيبات السلام والأمن.

ويعد هذا النمط من الترتيب مماثلاً لاتفاقيات كامب ديفيد عام 1978 بين إسرائيل ومصر؛ فلقد انسحبت إسرائيل إلى شرم الشيخ ورأس محمد ولم تستأصل المستوطنات أثناء هذه المرحلة. وأسست السفارات في تل أبيب والقاهرة وبدأ التطبيع. أما الانسحاب الكامل من سيناء فقد تم خلال ثلاث سنوات. لقد أكد رابين أن وديعته كانت قد صنعت "على افتراض أننا كنا نتعامل على أساس الصفقة الكاملة، ولقد كنت أتحدث في العموميات إلا أنني أوضحت أن كل التفاصيل مترابطة".

وسألت رابين ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يغير السوريون المسلك الذي اتخذوه، وكانت إجابته كالتالي:" على الأسد أن يتخذ قرارًا. فهو يريد من الولايات المتحدة أن تقوم بالمهمة نيابة عنه حتى يكون في وضع المتفرج. إذ إن هناك قضايا أخرى، فبحر الجليل هو مستودع الماء لإسرائيل، واتفاق سايكس بيكو لم يعط السوريين أي حقوق في "مياهنا" ومن ثم فنحن نريد انسحابًا وترتيبات أمنية على مراحل؛ "لا يمكننا أن نتخلى عن نفوذنا".

وأجبته قائلاً إن وديعته قد بُلّغت للسوريين وأننا الآن الحافظون لهذه الوديعة وحيث إننا نسير وفقًا لمعرفتنا أنه لم يتفق الأطراف على شيء بدون الاتفاق المسبق على كل شيء، فإسرائيل لا يمكنها التخلي عن نفوذها. وسألته عن الكيفية التي تمكننا من التوصل إلى أسلوب خلاق يتجنب الإخفاق الكامل للوصول إلى اتفاق، وكان لدى رابين إجابة جاهزة: "ما أقترحه هو أن يرسل الأسد شخصًا إلى مكان يمكننا فيه استكشاف

هذه المواقف بعمق وسرية تامة، وإذا استمرّينا في محادثاتنا مع الفلسطينيين وأبقيناها سرية لخمسة أشهر فإنّه يمكننا أن نفعل ذلك مع السوريين".

وفي مناقشاتي مع القادة الإسرائيليين دهشت لشدة حماسهم للانخراط مباشرة مع السوريين وخاصة مع الرئيس الأسد. ولقد قال لي الرئيس وايزمان إنّه والأسد كضابطين في سلاح الجو يمكنهما أن ينخرطا في حوار صريح يمكن أن يؤدي إلى نتائج مشابهة لما تم إنجازه مع الرئيس المصري أنور السادات. ولقد عبر شيمون بيريز أيضًا عن اهتمامه المستمر هو وباراك بالمحادثات المباشرة. وعندما كان باراك رئيسًا لهيئة أركان حرب قوات الدفاع كان يحثني سرًا للترتيب لاجتماع بينه وبين رئيس هيئة أركان حرب الجيش السوري "حكمت الشهابي". ولقد اجتمع الرجلان بالفعل لاحقًا، إلا أن محادثاتهما لم تؤد إلى نتائج ايجابية.

وعلى أي حال، فعلى الرغم من أن الإسرائيليين كانوا ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها الوسيط الوحيد الأمين في المفاوضات العربية الإسرائيلية إلا أن المخاطر بالنسبة لهم فيما يتعلق بقضايا السلام والحرب كانت كبيرة، ومن ثم فإنهم كانوا يفضلون المحادثات وجهًا لوجه كما تمثلها المحادثات السرية بين إسرائيل ومنظمة التحرير والتي أدت إلى اتفاقات أوسلو عام 1993 ومعاهدة السلام الإسرائيلية الأردنية عام 1994.

ولقد كان حذر رابين بالنسبة للمحادثات مع السوريين قاطعًا. وبعد بضعة أيام، في عشاء أقيم على شرف السفير الروسي وخبير الشرق الأوسط ألكسندر بوفين تكريمًا لمجموعة من راقصي الباليه بولشوي الشهير، أخبرني بوفين بأنه لا يجب أن يكون هناك ضغوط كبيرة وسريعة على حكومة رابين للدفع بالسوريين، خشية أن يفقد رابين جمهوره السياسي في إسرائيل. ولقد كان لبوفين وجهة نظر يريد أن يؤكد عليها إذ يتوجب على كل زعيم إسرائيلي أن

يفكر مليًا فيما يجري على الساحة الداخلية من اهتمامات ويزن مشاكلها وذلك تحسّبًا للمخاطر التي تتطلبها عملية السلام.

قائمة شندلر

حضرت أنا وفرانسواز بدء الاحتفال في تل أبيب بمهرجان السينما وكان أول أفلام هذا المهرجان فيلم ستيفن سبيلبرغ وعنوانه " قائمة شندلر" الذي يشير إلى رجل الصناعة الألماني أوسكار شندلر الذي قدم رشوة إلى النازيين للسماح له بتوظيف العمالة اليهودية في مصانعه في بولندا ومورافيا وبذلك تمكن من إنقاذ حياة أكثر من ألف يهودي من هؤلاء الذين أرسلوا إلى أوشفيتز. وكان الفيلم يصوّر فظائع الجيتو في أوشفيتز بكل وحشيتها. وقد كان لرؤية هذه المشاهد وقع على الحضور الذين التزموا الصمت التام أثناء مشاهدة الفيلم. وقد جلسنا بجانب سبيلبرغ وقلت له إن مكان وزمان المشاهد يعد عملاً استثنائيًا والحضور كان أيضًا فوق العادة. فالكثير من قادة إسرائيل من أمثال رئيس الوزراء ويهود باراك والعديد من الشخصيات والقيادات الدينية كانوا يشاهدون الفيلم مع زوجاتهم. ولقد شاطرني سبيلبرغ الرأي قائلاً إن كل فرد استوعب الأسى والحزن بطريقته الخاصة وأضاف إن تأثير ووقع الفيلم على الجمهور في ألمانيا كان قويًا. وبعد أن انتهى الفيلم قلت لسبيلبرغ إنّه قدم فيلمًا قويًا وأمسك كلانا بذراع الآخر بطريقة عفوية وطبيعية. هنأ رابين سبيلبرغ على عمله إلا أن الكلمات خانت الكثير من المشاهدين.

وكأرميني أمريكي تأثرت كثيرًا بما شاهدته وأشرت إلى خطاب هتلر في خطبته في 22 آب/أغسطس عام 1939 وأوامره إلى قادته العسكريين للتعامل مع المسألة اليهودية، حيث تساءل: "من يتحدث اليوم عن إبادة الأرمن"؛ وقال سبيلبرغ إن المحرقة كانت "صورة من صور الرعب" وفيلمه يصور صورة واحدة. ولقد قص عليّ كيف أن الممثلين الألمان عندما ارتدوا الزي النازي وجد

أنه من الصعوبة عليه أن ينسبه إليهم. وفي واقع الأمر أخذ سبيلبرغ إجازة لمدَة عام تقريبًا لكي يبتعد عن التوتر الذي أصابه بعد صناعة الفيلم.

وبينما كنا نغادر قاعة السينما ألقى شيمون بيريز بملاحظة مثيرة للاهتمام عندما قال: "إن من الأمور التي تدعو للأسى والحسرة أن اليهود أصيبوا بالعمى وذلك في مواجهة المخاطر الوشيكة". وبعد بضعة أيام قال لى وايزمان عندما كنت فى منزله: "على الرغم من أهمية الفيلم إلا أنّه شعر بأنه يقلل من شأن المحرقة، وذلك لمعالجته أعراضها عوضًا عن أسبابها وبالتركيز على بطولة شخص واحد.

فهم الآخر

كدبلوماسي أمريكي قضى عدة سنوات في الدول العربية تأثرت كثيرًا بقدرة بعض القادة الإسرائيليين الذين حاولوا بحق فهم "الآخر". وبالتأكيد هذا لا ينطبق على كل الإسرائيليين وخاصة المتطرفين منهم. فعلى سبيل المثال هناك رابين ووايزمان وبيريز كل بطريقته الخاصة كانوا جادين بدرجة كبيرة وبذلوا الجهد في محاولة فهم العرب. فهم يعرفون اللغة العربية ودرسوا تاريخ وثقافة العرب وسعوا للاتصال المباشر بهم كلما سنحت لهم الفرصة إلا أن حالة الحرب السائدة بين إسرائيل وجيرانها العرب أعاقتهم عن الاتصال المستدام وتبادل الآراء عن عمق وخبرة، وفي كثير من الأحيان حرمتهم هذه الحالة من صياغة سياسات أكثر جرأة وجسارة.

ففي أمسية من الأمسيات كنا نتناول طعام العشاء في منزل بيريز في القدس ذهب شيمون إلى مكتبه وأخذ كتابًا يتضمن عدة قصائد لنزار قباني وبدأ يقرأ قصيدة عنوانها "من أنت"؛ أدركت أن هذا أمرًا عاديًا. فنحن هنا في منزل أحد الشخصيات التاريخية السياسية الإسرائيلية وها هو يقرأ الشعر العربي لنا.

وبعد الانتهاء من قراءة بعض السطور من قصيدة رومانسية بدأ يوضح بأسلوب رشيق وجهة نظر تتعلق بالسياسة؛ كان يريد أن يعبّر عنها ليؤكد حالات الإحباط لديه مؤخرًا بالنسبة لتقدم المفاوضات مع الفلسطينيين والسوريين، ثم قال "إن العرب يحبون التزحلق على الكلمات"، ثم ردد كلمات القباني "إن أسعد لحظات حياتي هي تلك التي يحاول فيها قلبي أن ينتصر على عقلي"؛ وبأسلوب ساخر قال "إن العرب يحبون استخدام الكلمات كالحلي والزينة عوضًا عن استعمالها كأداة للتعريف الدقيق".

وبالطبع لم يكن أي من الأطراف يفضل اللجوء إلى استعمال الكلمات الغامضة عند الحاجة إليها لتتلاءم مع ضروراته.

وغالبًا ما كانت أعمال العنف والإرهاب تتزامن مع المفاوضات الأمر الذي كان يعطل ويعيق سير المفاوضات ودفعها قدمًا بل وإفشالها في السعي إلى السلام. وفي خطاب السياسة العامة الذي ألقيته في الميريديان أشرت مرارًا وتكرارًا إلى أن هناك دائمًا سباقًا بين العنف والإرهاب على الأرض والمسار السياسي لمفاوضات السلام إلا أنه على الإسرائيليين والعرب أن يكفلوا طريق المفاوضات الذي يسلكونه ويعانونه ويعملون على تهميش الإرهابيين والمتطرفين وهذا بالطبع ينطبق على الجانب العربي كما ينطبق على الجانب الإسرائيلي. فالجماعات الأصولية مثل حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والقاعدة، وكل هذه المنظمات ارتكبت أعمالاً وحشية إرهابية وذلك لتخريب أي تسوية سلمية. كما أن الجماعات المتطرفة اليهودية وكذلك الأفراد قد قاموا بدور مخرب. فهذه الجماعات لا تسعى إلا لحل تطرفي. فبالنسبة للأصوليين هذا يعنى تحطيم دولة إسرائيل والدفع بالإسرائيليين إلى البحر. أما بالنسبة للطرف الإسرائيلي من الإرهابيين والأصوليين، فهذا يعنى التمسك والحفاظ على الأراضي المحتلة وحتى ترحيل السكان العرب من هذه الأراضي. ولقد دفع رابين حياته ثمنًا واغتيل على يد إرهابي متطرف لجهوده لتحقيق السلام وكان لديه الشجاعة لرسم الطريق الوحيد المقبول والسير قدمًا وسط تلك

الظروف الصعبة، وقد قال رابين في هذا الصدد: "سنحارب الرعب والإرهاب وسنسعى للسلام إذا ما توقف الإرهاب".

قداسة الحياة وطهارتها

كانت سياسة رابين أمرًا بغيضًا بل ولعنة بالنسبة للمتطرفين من اليهود. فبعد بضعة أسابيع من تسلمه منصب رئاسة الوزراء في إسرائيل عام 1992، ألقى خطابًا في حفل عسكري لتوزيع الجوائز والأوسمة صرح فيه قائلاً: "على الإسرائيليين أن يتخلوا عن أوهامهم بدين لدولة إسرائيل الكبرى. تذكروا أن هناك شعب إسرائيل ومجتمعاً وثقافة واقتصاداً وأن قوة الأمة لا تقاس بالأرض، الأرض التي تسيطر عليها، وإنما بإيمانها بقدرتها على دعم أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية". ولقد واجهت وجهة نظر رابين السياسية تحديًا كبيرًا في 25 شباط/فبراير عام 1994 عندما اقتحم مستوطن يهودي أمريكي المولد، يدعى برنارد غولدشتاين مسجد الحرم الإبراهيمي في الخليل (وهو يرتدي زي جيش الدفاع الإسرائيلي) وأطلق النار على جمع من المصلين المسلمين كانوا يقومون بأداء صلاة الجمعة في شهر رمضان. أدّت هذه الحادثة إلى وفاة 40 شخصًا على الأقل وجرح آخرين؛ وحتى برنارد أيضًا توفي. ووقع أيضًا هجوم آخر خلال شهر رمضان ضدّ مدنيين عزل أبرياء. ولقد أشعل هذا الحادث مشاعر الكراهية المتأججة وكان سببًا في قيام العديد من المظاهرات والاحتجاجات في الأراضي العربية المحتلة مما كان له أثر كبير على مسيرة السلام، وعرَّض فرص الاستمرار في المفاوضات الفلسطينية للخطر.

ولقد اتصل بي "يوسي بيلين" وهو ناشط من دعاة السلام في حزب العمل وقال لي إن هذا الحدث المخجل لا بد وأن يكون بمثابة حافز للدفع بمحادثات السلام إلى الأمام بقوة أكبر وطلب مني أن أخبر واشنطن بأنه يتوجب على الولايات المتحدة أن تأخذ بزمام الأمور وتقود هذه المسيرة لإقرار سلام

عادل في المنطقة. وعندما رأيت رئيس الوزراء رابين مغادرًا لجلسة طارئة عقدها مجلس الوزراء الاسرائيلي كان وجهه محمرًا وقال "إن هذا الموقف موقف حياة أو موت. فأنا كإسرائيلي وكيهودي أخجل عند رؤيتي ليهودي يرتكب مثل هذه الفظائع. ليس لدي دليل الآن على أن ما حدث هو جزء من عملية منظمة إلا أنني لا أقول إنه لا يوجد في أوساط المستوطنين من يعتبر هذه الأحداث كعمل سياسي. أستطيع أن أفهم ردود فعل الفلسطينيين. ومع ذلك فهؤلاء الذين يؤيدون حماس سيستغلون هذا الحدث لأهدافهم وسيسعون للانتقام. ومن ثم فعلينا أن نجد طرقًا لعزل مثل هؤلاء الذين يؤيدون العنف. والحل الوحيد لا بد وأن يكون سياسيًا. لقد تحدثت مع عرفات وعبرت له عن اشمئزازي، وقلت له إن الحل الوحيد هو تسريع عملية المفاوضات للتوصل إلى إعلان مبادئ، وسنحارب الإرهاب ونستمر في عملية السلام ومفاوضات السلام. وهذه هي الرسالة المهمة".

ولقد كان رد فعل المتطرفين العرب ظاهرًا في السادس من نيسان/أبريل 1994 في مدينة "العفولة" عندما انفجرت سيارة محملة بالمتفجرات واندفعت في اتجاه حافلة، وكانت نتيجة الحادث أن قتل تسعة من ركاب الحافلة وجرح أكثر من خمسين شخصًا. وفي بيان، تبنت كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية حماس هذا الهجوم وأوضحت معارضتها مفاوضات السلام؛ وجاء في البيان: "نحن نطالب السيد عرفات بتعليق المفاوضات مع إسرائيل والقادة الإسرائيليين لمدة لا تقل عن عام لأن كتائبنا بعون الله ستجبر إسرائيل أثناء هذا الوقت على الانسحاب غير المشروط وسحب كل جندي إسرائيلي وخروج المستوطنين من غزة والخليل كخطوة أولية لتحرير الضفة والقطاع، وسنضمن لعرفات سيطرته ورئاسته لهذه المناطق إذا ما كان سيطبق الشريعة والسنة، إنها حرب مقدسة فإما الانتصار وإما الشهادة".

وفي إطلالة تتسم بالتبصر في دور الدين في السياسة الإسرائيلية أخبرني أرييه درعي وهو شخصية قيادية ورئيس حزب المتدينين الأرثوذكس اليهود بأن

رابين طلب من الحاخام أوفيديا يوسف أن ينضم حزب شاس إلى الائتلاف الحكومي الذي يرأسه، وقال بوضوح إنَه بدون حزب شاس لا يستطيع رابين أن يستمر في محادثات السلام مع السوريين وإذا انحاز حزب شاس وانضم إلى المعارضة فإنه سيواجه انقسامًا في الكنيست، ومن ثم لا يستطيع الاستمرار في الحكم فهو يريد أغلبية يهودية. وقال درعي إن شاس بمفرده يُعتبر الحزب الوحيد الذي يؤيد محادثات السلام. ونتيجة لذلك توصل الحاخام إلى قرار يقضي بأن قدسية الحياة أكثر أهمية بكثير من التمسك بالأرض (استمرار التمسك بالجولان) وهذا القرار هو الذي مكن رابين من الاستمرار في التفاوض مع سوريا وذلك بتأييد داخلي من حزب شاس.

ولقد أخبر رابين وزير الدفاع وليم بيري ورئيس هيئة الأركان بأنه لا يوجد أي زعيم عربي يمكنه أن ينخرط في مفاوضات مع إسرائيل ما دام يظن أنه يستطيع تحقيق أهدافه عن طريق الخيار العسكري أو الإرهاب. وقد توصل رابين إلى قناعة بأن هذه هي القيمة الحقيقية لوضعية إسرائيل العسكرية والدفاعية فى مسعاها نحو السلام. فإسرائيل في حاجة إلى قوات مسلحة رادعة، وإذا فشلت في مجال الردع فلا بد من أن تحرز انتصارًا حاسمًا وسريعًا. وقال رابين إنَه لم يقبل أفكار الولايات المتحدة بوضع قوات أمريكية على الهضبة كجزء من اتفاق السلام: "أنا أشعر بالفخر وذلك لأننا لم نطلب من أي جندي أمريكي أن يريق دماءه، فإذا كان لدينا الوسائل فإنه يمكننا أن نقوم بهذا العمل منفردين ومن ثم فإننا لم نطلب من الولايات المتحدة أن توقع معنا حلفًا دفاعيًا". ولقد كان تركيز رابين على العلاقة الاستراتيجية، فهو يرى أن إسرائيل قادرة على التعامل مع كل التهديدات الموجهة ضدها وذلك دون أن تكون جزءًا من تحالف. فالقوات الإسرائيلية مهيكلة بأسلوب يمكنها من التعامل مع أي شكل من التحالفات الموجهة ضدها بما في ذلك اشتراك الاتحاد السوفياتي في هذا التحالف في الماضي.

ففي تحليله يرى رابين أن هناك اتجاهين يتصارعان فى المنطقة: البحث عن اتفاقيات سلام عربية إسلامية، والأصولية الإسلامية والتي وصفها بأنها

خمينية بدون خميني، ولقد حاول ناصر تبني النظام السوفياتي وكان مصيره الفشل. وأما السادات ومبارك فلقد اختارا الديمقراطية الغربية، وكان مصيرهما أنهما قصرا في الوصول إلى الهدف. ولقد تسببت هذه الإخفاقات في إذكاء جذوة الرجوع إلى القرآن والشريعة، وإيران تحاول نشر أيديولوجية لا تتعارض وأفكار القومية العربية وهي تسعى للاضطلاع بدور قوة عظمى في المنطقة، لذا فإن تحليل رابين لما يدور يدل على دراية وعلم بأمور كثيرة.

علاقة استراتيجية بدون حوار استراتيجي

ألمح شيمون بيريز ذات مرة إلى أن سياسة الولايات المتحدة ليست عملية وحازمة كما يجب أن تكون على الرغم من مدحه جورج بوش وجيمس بيكر لمساهمتهما في عاصفة الصحراء ومؤتمر مدريد، وقال إنهما قاما بما يكفي لتغيير كثير من الأمور، وحكى قصته معلقًا على العلاقة الاستراتيجية بين إسرائيل والولايات المتحدة؛ وتتلخص القصة في أن غولدا مائير شكت مرة إلى السفير الأمريكي والي باربور أن الولايات المتحدة لم تستطع أن تعامل إسرائيل كما كانت تتعامل معها من قبل.

قالت: "نحن دولة مستقلة على أي حال". وقال باربور ردًا على مائير: "سيدتي، الولايات المتحدة كانت أول دولة تعترف باستقلال إسرائيل، والسؤال الذي أطرحه سيدتي رئيسة الوزراء هو: هل إسرائيل تعترف باستقلال الولايات المتحدة؟"

إن العلاقة الإسرائيلية الأمريكية علاقة وديّة ومعقدة إلا أني شعرت بالتأثر بما أخبرني به وفد عالي المستوى من عسكريين ومدنيين إسرائيليين وذلك أثناء زيارة قمت بها إلى إسرائيل عام 2007. وفي هذا السياق أتذكر ما قاله هذا الوفد: "على الرغم من تعدد قنوات الاتصال والتنسيق بالنسبة للكثير من القضايا

والعمليات، إلا أنه لا توجد أي حوارات استراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل". وكانوا يشعرون بالتذمر للعديد من المناقشات بما يشمل المحادثات الاستراتيجية التي تتم مرتين كل عام ويقولون إن هذه المناقشات روتينية ولا تشكل أي حوار استراتيجي. وبالنظر إلى المدى الذي وصلت إليه هذه العلاقات والمخاطر المتضمنة في منطقة الشرق الأوسط فإن هناك فجوة خطيرة في هذه العلاقات، إذ يجب على كل من الولايات المتحدة وإسرائيل تأسيس منبر عالي المستوى حتى تشارك كل منهما في تقييم الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في المنطقة، علاوة على تصديهما على أساس مستدام لكل القضايا الأساسية مثل إدارة الصراع العربي الإسرائيلي والوصول إلى حل له، وكذلك قضايا مثل الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل وانتشارها في المنطقة وإمدادات الطاقة والأمن وإيران والدور الذي تلعبه الأحزاب الإسلامية ونفوذ هذه الأحزاب وأخيرًا الأصولية الإسلامية".

فهذا الحوار يسهل فهم مصالح كل الأطراف ومقارباتها بالنسبة لمصادر القلق في المنطقة، وذلك بهدف تجنب سوء الفهم الذي عبرت عنه غولدا مائير في حديثها مع باربور.

وداعًا للقدس

استضافني رئيس الوزراء وزوجته في حفل عشاء في مقر إقامته بالقدس وذلك بمناسبة مغادرتي إسرائيل عام 1994. ولقد كان جو الحفل مفعمًا بالدفء والودّ والصداقة. فرابين وزوجته كانا على قدر كبير من الكرم والسماحة، ولقد شارك في الحفل عدد من أعضاء الحكومة والأكاديميين والكاتب الإسرائيلي آموس أوز وعدد من أصدقائنا الإسرائيليين.

وشرب رابين نخب رحيلي عن إسرائيل وكان الموقف مؤثرًا جدًا، وقال في

كلمته إنه وزوجته يأسفان لانتهاء مدة إقامتي القصيرة في إسرائيل، واعتبرني سفيرًا قام بالكثير من الجهد لدعم العلاقات الإسرائيلية الأمريكية والعمل سويًا من أجل السلام، وقال إنني حضرت من سوريا بعد ولايتي في دمشق وأشار إلى أن سوريا هي جوهر المشكلة والأمل في أن يلوح الحل في الأفق قريبًا. ورفع كأسه وشكرنا جميعًا على كل ما فعلناه لنتعلم الكثير عن جيراننا العرب.

ولقد شعرت بالامتنان لملاحظته، وفي مساء اعتزالي الخدمة شعرت بأنني أنهيت هذه الخدمة بما يفيد الطرفين العربي والإسرائيلي.

وأفصح لي إيهود باراك بأنه كان يرأس شعبة الاستخبارات العسكرية عندما كنت سفيرًا في دمشق، "كنا نراقب نشاطك عن كثب في دمشق منذ وصولك إلى هناك عام 1988؛ وفي البداية كنا قلقين بالنسبة للجهود التي بذلتها لتحسين العلاقات السورية الأمريكية وخشينا أن يكون هذا التحسن على حساب إسرائيل. إلا أننا عندما أدركنا أنك تحاول أن تؤثر على حافظ الأسد أكثر من محاولته التأثير عليك، شعرنا عندئذٍ بالارتياح والاسترخاء وبدأنا النظر إلى التقارب السوري الأمريكي كعامل ايجابي".

وقبل رحيلنا بفترة قصيرة استضفت أنا وفرانسواز ما يقارب 2000 ضيف، وذلك للاحتفال بعيد الاستقلال في الرابع من تموز/يوليو في مقر إقامتنا في هرزيليا. وكان هناك نقاش في الكنيست في القدس بين رابين وزعيم تكتل الليكود بنيامين نتنياهو بعد أن رفض ثلاثة أعضاء منح الثقة للحكومة.

وأخبرني رابين أنه في النهاية طلب من نتنياهو الانتهاء من المناقشة حتى يتمكن من حضور حفل الاستقبال المنعقد في السفارة الأمريكية. واستجاب الأخير بالقول بأنه لا يود مقاطعة الاستقبال. واتفقا على إنهاء النقاش وأسرعا سويًا للذهاب إلى السفارة. ثم قدمت بعض الملاحظات في احتفالنا بيوم الاستقلال وعن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية والبحث عن السلام العربي الإسرائيلي وأثنيت على سياسة رابين في ركوبه المخاطر من أجل السلام

واقتبست ملاحظة أدلى بها رئيس جامعة بن غوريون والتي قال فيها: "الإنسان يحتاج إلى ثلاث خصال هي الصبر والتسامح والتحمل". ثم عقبت على ذلك بالقول إن هذه الخصال تنطبق على كل الإسرائيليين. ثم فاجأنا رابين وألقى كلمة عن العلاقات الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل وأهمية السعي وراء السلام بين العرب والإسرائيليين.

لقد كان الجو السياسي المشحون في الكنيست قد اختفى بدرجة كبيرة بعد هذه الكلمات وتصافح كل من الجنرال شارون ورابين إلا أن رابين ونتنياهو لم يفعلا ذلك.

وداعًا للفلسطينيين

كان هناك حفل وداع لنا أشرف على ترتيبه القنصل الأمريكي العام في القدس إدوارد أبنغتون بالتعاون مع زوجته. وكان هذا الحفل في مقر إقامتهما في القدس مع مجموعة من القادة الفلسطينيين المقيمين في كل من غزة والضفة الغربية. وكان هؤلاء القادة يدينون بالولاء لمنظمة التحرير الفلسطينية ولعرفات إلا أنهم كانوا يدعمون الحكم الديموقراطي ويشجعونه عوضًا عن النموذج السلطوي الذي يمثله عرفات والعالم العربي. ولقد انتقدوا "اتفاق غزة وجرش وهو خطوة انتقالية تعطي للفلسطينيين موطئ قدم في كل من المنطقتين (غزة وأريحا)، وهي خطوة إلى الأمام حتى يتوصل الطرفان إلى اتفاق شامل. صحيح أن الفلسطينيين سيكون لهم الكلمة بالنسبة للأمور التي تتعلق بالاقتصاد والسياسة إلا أن الحاضرين من الفلسطينيين وصفوا هذا الاتفاق بالضيق وأنه لا يعدو أن يكون "سلامًا من أجل السلام، وليس أرضًا مقابل السلام" والذي كان الأساس لمؤتمر السلام في مدريد وكذلك قرارات مجلس الأمن 242 و338. فهم يرون أن هذا الاتفاق لم يتعد المسائل الأساسية مثل المستوطنات والقضايا التشريعية والقدس. وكانت حنان عشراوي وهي المتحدثة باسم الوفد الفلسطيني لعملية

السلام من عام 1991 قد قالت إن "كل شيء مبني على معاناة الإسرائيليين". وكان الهم الأساسي هنا هو معرفة ما إذا كان الاتفاق سيكون لبنة لمحادثات الوضع النهائي أم أنه سيكون نهاية في حد ذاته. والهم الآخر ينحصر في حكم القانون وتجنب الإملاءات الاستبدادية لمنظمة التحرير الفلسطينية ودعم الاحترام لحريات الإنسان. وبينما كانوا يسفرون بأن الانتخابات العامة يجب أن تعقد في الأراضي المحتلة إلا أنهم رأوا أن يكون عقدها في غياب جيش الدفاع الإسرائيلي. وكان الوفد يساوره القلق بخصوص الناخبين وأعدادهم والمخاطر المتضمنة في فوز حماس أو الجهاد الإسلامي. ولقد أشرت إلى أن اتفاق غزة ـ أريحا لا بد أن يُنظر إليه على أنه لبنة للمرحلة التالية للمفاوضات.

أما بالنسبة للانتخابات فلقد قلت إن الفلسطينيين كانوا وما زالوا في وضع جيد يمكنهم من بناء مجتمع ديمقراطي يمكّنه أن يبرهن على احترامه لحقوق الإنسان. وبالنظر إلى تاريخهم وخبرتهم الفريدة في عيشهم بجانب إسرائيل فلديهم الفرصة في بناء مجتمع فلسطيني مبني على المبادئ الديمقراطية التي يمكن أن يكون لها تأثير كبير على العالم العربي وذلك في حال نجاحها. ومع ذلك فالتحدي الذي يواجهونه له شقان: الشق الأول يكمن في تعاملهم مع ميول أوتوقراطية يتسم بها ياسر عرفات، والشق الثاني يكمن في قدرتهم على اللجوء إلى الشعب الفلسطيني الذي سيوفر لهم الحوافز لتهميش نفوذ الجماعات الأصولية كحماس والجهاد الإسلامي. لقد كانت طريق مفاوضات السلام وبناء القاعدة الاقتصادية والاجتماعية لسكان الضفة الغربية وغزة كلها أمور مرتبطة بعضها بالبعض الأخر .

وفي مناقشة بعد ذلك مع رئيس الوزراء إسحاق رابين قال لي رابين: "إننا ندعم قيام دولة فلسطينية ديمقراطية كهدف على المدى الطويل، إلا أن الديمقراطية في العالم العربي في أيدي قادة يمسكون بالبنادق وأجهزة أمنية واستخباراتية وعسكرية. فالفلسطينيون يريدون أولاً ضرورات الحياة الأساسية ـ الغذاء والدواء والخدمات الصحية والتعليم ثم يبدأون في التفكير فيما بعد في

الديمقراطية. فالديمقراطية في العالم العربي مثل انتظار المسيح".

وفي زيارة إلى غزة في تموز/يوليو عام 1994 تقابلت مع ياسر عرفات الذي كان قد وصل مؤخرًا إليها بوصفه رئيسًا لمنظمة التحرير الفلسطينية. وطلب مني أن أركب معه السيارة للإطلاع على مشروع إسكان تبنته حكومة الولايات المتحدة. ولقد ساورني شعور غريب في أن أكون بمعية عرفات وعلم المنظمة يرفرف على مقدمة السيارة وهو يلوح للجماهير المصطفة على الطريق. لقد كان لعرفات سحر على جماهير الشعب الفلسطيني. وسألته ماذا يعني "بسلام الشجعان" وهي عبارة كان غالبًا ما يستخدمها لوصف السلام الإسرائيلي الفلسطيني. ثم أردف قائلاً إنها تعني أن على كل الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء أن ينسوا الكثير من تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي الملطخ بالدماء.

ثم بدأ ينقد بقسوة ويشجب الحكم الإسرائيلي الذي حرم على أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني دخول غزة وذلك لأفعالهم الماضية ضد الإسرائيليين. ثم أردف قائلا إنه في حالة تطبيقه لنفس المبادئ فإنّه لن يتحدث مع القادة الإسرائيليين الذين حاربوا الفلسطينيين في لبنان مثلاً. إلا أنني بدأت القول بضرورة التمييز بين الأعمال الحربية بين القوات المسلحة وأعمال العنف والإرهاب التي ترتكب ضد المدنيين مثل مذبحة مدرسة معلوط على يد أعضاء الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والتي حدثت يوم 15 أيار/مايو عام 1974 وهو يوم الذكرى الثانية والعشرين لإنشاء إسرائيل. ويقال إن بعضًا من أعضاء الجبهة كان متورطًا في هذا الحدث. إلا أن عرفات لم يردّ على ملاحظتي.

رؤية إسحاق رابين

في حزيران/يونيو عام 1994 أدلى رابين بخطاب قوي في مؤتمر في إسرائيل مؤكدًا أهمية مفاوضات السلام لإسرائيل والحاجة للتوصّل إلى حلول وسط.

وبالإشارة إلى سوريا قال: "إن سوريا لديها صواريخ أرضية من النوع والكمية التي يمكن أن تجعل ما عانينا منه مع العراق أشبه بلعب الأطفال. ومن ثم فمن يقولون إنه يمكن تحقيق السلام من أجل السلام، أي السلام بدون الجولان، يكذبون عليكم. كيف يمكنهم القول إنه لكي يُحَقَّق سلام مع مصر كان علينا أن نعيد كل متر مربع، أما بالنسبة لسوريا فيمكننا أن نحقق السلام من أجل السلام... هذا كله هراء، ومن ثم فمن يقول ذلك لا بد له أن يستعد للحرب إذا كان يريد الاحتفاظ بالجولان".

ولقد تلقى الكثير من الملاحظات السياسية بالنسبة لما كان يعتبره مطلبًا لتحقيق السلام مع العرب. وفي ذات مرة عندما كنت أصحبه في زيارة رسمية إلى واشنطن لإلقاء خطاب أمام لجنة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية للشؤون العامة، كنت أجلس بالقرب من إيتان هابر رئيس الأركان. رأيت إيتان وهو يراجع ملاحظات رابين أثناء الغذاء فظننت أنه قد أعد الخطبة قبل مغادرة إسرائيل، إلا أنه قال: "انظر إلى هذا الحشد، عليّ أن أجعل من خطبة رابين خطبة قوية".

ومع ذلك ففي استفتاء دولي قام به معهد زغبي للاستفتاءات سئل كثير من اليهود عما إذا كانوا يؤيدون قيام دولة فلسطينية وكانت إجابتهم بالإيجاب. كما سئل عدد كبير من العرب الأمريكيين نفس السؤال، وأيّد 96% منهم الفكرة. أما 86.6% من الأمريكيين اليهود و80.9% من الأمريكيين العرب فرأوا أنّ السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين مهمّ للغاية بالنسبة إلى الأمن القومي الأمريكي.

وعند تسلمه لجائزة اليونسكو للسلام في باريس في الرابع من تموز/ يوليو عام 1994 ألقى رابين خطابًا رائعًا يُظهر فيه رؤيته للسلام في هذه المنطقة من العالم. وكان يتفهم المخاطر المنطوية على هذه العملية. وأشار في هذا الخطاب إلى ما قاله رئيس جمهورية ساحل العاج الذي مات فيلكسي بوانييه: "دعنا نتقدم ببطء لأننا في سرعة من أمرنا".

وأكمل رابين حديثه قائلاً: "حقًا إننا كنا نتقدم ببطء، فلقد قاتلنا لأكثر من مئة عام على نفس قطعة الأرض: البلد الذي قدر لأبناء إبراهيم أن يعيشوا فيه سويًا... عرف الشعبان الإسرائيلي والفلسطيني المعاناة والألم والحرمان لذا، على كلّ منهما أن يأخذ في الاعتبار قضية إبطاء خطواته قليلاً مع الكثير من الحكمة والعناية وذلك لأنّ قرنًا من الكراهية لا يمكن أن يتلاشى فجأة ونحن نتصافح في واشنطن".

"إن السلام سيتم بناؤه ببطء، يومًا بعد يومًا، وذلك من خلال ما نفعله بتواضع مع التفاصيل اللانهائية العفوية. سيُبنى السلام على يد الشعب. ونحن نتقدم ببطء وبحرص شديد خطوة خطوة لأن أعداء السلام أكثر عددًا مما نتصور"، ولأن المتطرفين على الجانبين ينتظروننا ويترقبوننا، نحن، الإسرائيليين والفلسطينيين على السواء. ومن ثم فلا يجب علينا أن نفشل. وعلينا أن نفكر ونتدبر ونحترس. نحن في عجلة من أمرنا لأننا انتظرنا أكثر من مئة عام حتى اليوم. نحن في عجلة من أمرنا لأننا نود ألا تفقد أم إسرائيلية ابنًا لها تبكيه بالدموع، دموع الألم والمعاناة تمامًا مثل الأم الفلسطينية التي نريدها أن تتوقف عن ذرف الدموع والتنهد بحرارة... نحن في عجلة لأن نرى الضوء في أعين جيراننا الذين حتى الآن لم يروا يومًا واحدًا يتمتعون فيه بالحرية والفرح... نحن في عجلة ومن ثم فنحن نتقدم ببطء. نحن نتقدم بحرص وعناية لأن البعض منّا لن يكون لديه فرصة أخرى.

وفي العام الذي تلا هذا الخطاب، في 4 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1995، اغتيل رابين على يد متطرف يهودي.

الفصل السادس

العودة إلى طريق دمشق

توفي حافظ الأسد عام 2000 وخلفه ابنه بشار الأسد الذي كان يتلقى تدريبًا لكي يصبح طبيب عيون في لندن. ولم يكن مهيأ أو معدًا لأن يصبح رئيسًا للجمهورية، فلقد كان هذا الدور معدًا لأخيه الأكبر باسل وهو شخصية عسكرية دأب أبوه على إعداده عن كثب ليأخذ بزمام السلطة بعد وفاته. ولقد قابلت باسلاً عندما كنت سفيرًا في دمشق وطلبت عدة مرات ترتيب موعد معه حتى خاب أملي في ذلك، غير أن سكرتيري في السفارة تلقى مكالمة من القصر الجمهوري وذلك بهدف ترتيب لقاء معه. وفي اليوم المحدد والساعة المحددة كنت بمفردي أنتظر خارج السفارة بدون أن يكون هناك أي حراس شخصيين حيث ستحضر سيارة ذات نوافذ مغطاة لتأخذني إلى الموعد مع باسل الأسد.

وعندما سمع ضابط الأمن الإقليمي الخاص بي بهذه الترتيبات أخبرني أنه لن يدعني أذهب بمفردي فقلت له إنني أتفهم قلقه ولكنني على يقين بأنه ليس في مصلحة النظام السوري أن يحدث أي مكروه للسفير الأمريكي. ومع ذلك فلقد دونت منكرة تفيد بأنني اتخذت هذا القرار بمنأى عن نصيحته ومن ثم لن يلام إذا حدث أي شيء لي.

لقد كانت رحلة السيارة إلى القصر الجمهوري قصيرة. وبينما كانت تسرع في اتجاه البوابات الخارجية، كان هناك عدد من الأشخاص الذين مررنا بهم وكنت أحسبهم مارة على أرصفة الشوارع يؤدون التحية الرسمية للسيارة ومن فيها؛ وانفتحت البوابات الأوتوماتيكية الثقيلة لنا عند وصولنا. ووجدت نفسي داخل مكتب باسل. كان باسل مرتديًا الزي العسكري ممتلئاً بالثقة. لقد كان لديه معرفة جيدة بالسياسة الخارجية وقضاياها وخاصة تلك المتعلقة بالعلاقات السورية الأمريكية والتي كان من الواضح أن أباه كان يطلعه عليها. وكان يبدو من الواضح أنه على استعداد للاضطلاع بمسؤولياته وبدوره المرسوم والمقدر أن يقوم به. إلا أن القدر أراد عكس ذلك، فبعد حادث السيارة الذي تعرض له في طريق المطار والذي أدى إلى وفاته، كان المنصب من نصيب أخيه بشار الذي أصبح رئيسًا للجمهورية عقب وفاة أبيه عام 2000. لقد التقيت ببشار مرة في إحدى المناسبات العديدة في دمشق وكان صغيرًا ونشطًا ومتعلمًا ويتحدث بإيقاع متقطع. وكان هناك شك فيما يتعلق بقدرته على تولي زمام الأمور كأبيه الأسطوري الذي حكم سوريا بقبضة حديدية، إلا أنه نجح في تدعيم وضعيته عقب موت أبيه مباشرة ويبدو أنه تخطى التبعات السياسية التي تمخض عنها انسحاب القوات السورية من لبنان عام 2005. وفي مناقشاتي مع المؤسسة الإسرائيلية وقادتها فهمت أن لديهم شعوراً بنجاحه في تخطّي العديد من التحديات السياسية، وكان كذلك وما يزال يسيطر على الأمور في البلاد.

بيكر يؤسس لحوار أمريكي سوري

في كانون الثاني/يناير عام 2002 تقدمت إلى الرئيس بشار الأسد باقتراح لبدء حوار أمريكي سوري تحت رعاية معهد بيكر في جامعة رايس حيث إنني وددت تأسيس حوار بين الموظفين الرسميين السابقين والحاليين في كلا البلدين، هذا علاوة على الأكاديميين وممثلين للقطاع العام والخاص. وكنت أعتقد دومًا أن

الأجواء غير الرسمية توفر جوًا ملائمًا لاكتشاف أصعب القضايا في العلاقات بين الخصوم والأعداء وللتحاور معهم بصراحة. وأيقنت أن التوقيت كان مناسبًا لإسداء النصح لحكوماتنا بالنسبة لمشاوراتنا ومداولاتنا والكيفية التي يمكننا بها حسم خلافاتنا.

ولقد وافق بشار الأسد على الترخيص للمشاركين من السوريين في الانخراط بكل حرية في هذا الشكل من الحوار. وكانت هناك مقابلات في كل من هيوستن ودمشق. ولقد انعقدت الجولة الأولى من الحوار في معهد بيكر من العشرين إلى الثاني والعشرين من أيار/مايو عام 2002. وعلى الرغم من بعض العقبات البيروقراطية من الجانب السوري إلا أن حوارنا كانت بدايته جيّدة وكانت هناك عروض افتتاحية لجوانب العلاقات والمشاكل وكانت كلها بناءة من جانب وزير الخارجية بيكر والسيناتور أرلين سبكتر عن ولاية بنسلفانيا ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وليم بيرنز ونائب وزير الخارجية السوري وليد المعلم. ولقد كان تبادل الأحاديث والأفكار بين أعضاء مجموعة العمل السورية الأمريكية والتي تناولت العلاقات الثنائية وموضوع الإرهاب. كان هذا التبادل يتم بأسلوب مباشر لا يكتنفه أي جدل عنيف؛ وعلى الرغم من أن الفوارق في التعريفات بين ما يطلق عليه المقاومة ضد دولة محتلة وماهية الإرهاب على سبيل المثال، إلا أن مناقشتنا المفصلة بالنسبة للأسلوب الذي يجب أن نتبناه بمنأى عن هذه التعريفات وبناءً على تبادلنا للمعلومات الاستخباراتية الحالية والتعاون الحالي بين الدولتين فيما يخص تنظيم القاعدة والمجموعات الإرهابية الأخرى، كان ذلك يتم في جو من التفهم التام. ولقد كان للتصريحات العامة التي كانت إدارة بوش تطلقها بخصوص التعاون في هذا المجال الاستخباراتي أثر كبير في إنقاذ حياة عدد من الأمريكيين وخدمة المصالح الأمريكية. هذه التصريحات لقيت تقبّلاً من الطرف السوري. وفي نفس الوقت الذي علقت به الإدارة "بأن المزيد من التعاون نتوقعه من سوريا" بخصوص جماعات

مثل حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي والتنظيمات الفلسطينية الجهادية الأخرى، أدى ذلك إلى الكثير من المناقشات المرتبطة بهذه القضايا.

أما بالنسبة للمفاوضات العربية الإسرائيلية، فلقد قدم وليد المعلم قصة تاريخ التفاوض على المسار السوري بدءًا من مؤتمر مدريد الذي وفر لنا الكثير من التبصر من وجهة النظر السورية وما تم إنجازه وضياع الفرص في التوصل إلى اتفاق. وكان هناك إجماع بالنسبة لثمانين في المئة من القضايا الرئيسية المتعلقة بالأرض والسلام والأمن والمياه والتي تم التعامل معها في المفاوضات السابقة. ومن ثم فإنّ المفاوضات يمكن لها أن تستأنف من حيث انتهت من قبل الأطراف المعنية وذلك إذا ما توفرت الإرادة السياسية لذلك. ولقد كرر المشاركون السوريون على نحو مضجر أحيانًا التزامهم بالمفاوضات مع إسرائيل والمبنية على إرث المفاوضات السابقة والمتضمنة لوديعة رابين التي تنص على الانسحاب إلى خط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967.

وكان فريق ممثلي القطاع الخاص الذي ناقش القضايا المتعلقة بالتجارة والاقتصاد قد ركز على الحاجة الملحة للإصلاحات الاقتصادية وتحديث وتبسيط البيروقراطية في سوريا ووضع كل من القطاع العام والخاص على قدم المساواة وذلك للدفع بالاقتصاد السوري إلى الأمام. ولقد كانت الشكوى قوية من جانب الوفد السوري من العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة على سوريا، وأما بالنسبة للطريق المختص بالحوار الثقافي والصحافة والإعلام، فلقد ركزت المناقشات على ما يمكن أن يقوم به الطرفان لتحسين الاتصالات بين البلدين على كل المستويات مع التأكيد على التبادل الطلابي والأكاديمي. وفي لقاء على انفراد سأل أحد أعضاء الجانب السوري عما يمكن فعله لتحسين التمثيل الدبلوماسي وزيادة فعاليته في واشنطن. ثم نظرت إلى الدكتور عماد مصطفى وهو واحد من التكنوقراطيين الشباب عبر المائدة التي نتجاذب أطراف الحديث حولها وأخبرت وليد المعلم أنه يتوجب عليهم أن يختاروا شخصا مثل الدكتور مصطفى الذي يتسم بالذكاء والديناميكية والطلاقة في اللغة الإنكليزية وذلك لتمثيل سوريا. وفي

وقت لاحق اختار بشار الأسد الدكتور مصطفى وعيّنه سفيرًا لسوريا في واشنطن. وكان الدكتور مصطفى ينظر إليّ بأنني والرئيس بشار عيّناه سفيرًا لدمشق.

ثم بعد ذلك عقدنا الجولة الثانية من الحوار الأمريكي السوري في دمشق في كانون الثاني/يناير2003 وكان ذلك قبل شهرين من حرب الولايات المتحدة على العراق. وكان لدينا وفد يتكون من 22 شخصًا وكان لدى السوريين عدد مماثل من القطاع العام والخاص والأكاديميين. تكوّن لديّ انطباع عام من هذه الاجتماعات بأن السوريين استمروا في تعليق أهمية كبيرة على علاقاتهم مع الولايات المتحدة وأنهم سيقومون بعمل صعب للتوفيق بين مصالحهم والمصالح العربية. ولقد عبروا عن قلقهم بأن تغض واشنطن الطرف عن سوريا وألا تنظر إليها على أنها تسبب المشاكل في المنطقة. وكانوا مستعدين للانخراط في حوار بالنسبة لكل القضايا. ولقد وفر هذا الاتجاه الفرصة لنا في تحديد الأرضية المشتركة التي يمكن البناء على أساسها. وأكد السوريون أنه بالنظر إلى العلاقات المتوترة بين النظامين البعثي السوري والعراقي فإن علاقاتهم السياسية محدودة بين البلدين وأن العلاقة مبنية بدرجة كبيرة على المصالح الاقتصادية؛ وادّعوا أنهم ذهبوا للعراقيين للضغط عليهم للإذعان لقرار الأمم المتحدة "وألا يذهبوا بعيدًا". ولقد عبروا عن خوفهم من العنف الطائفي في العراق وحذروا من قيام الأعمال الحربية التي يمكن أن تدمر الحملات التي تشن للقضاء على الإرهاب. هذا بالإضافة إلى التعبير عن قلقهم بالنسبة لتدفق اللاجئين العراقيين إلى سوريا وهو هم حاضر في أذهانهم لوجود 2.1 مليون لاجئ عراقي في سوريا عام 2007. وبالنسبة للتحليلات السورية فالعراق لم يعد يشكل تهديدًا خطيرًا لجيرانه. ولقد علق المعلم على الوضع في العراق قائلاً: "إن صدام حسين قد انتهى وما نريده الآن هو البقاء".

وأما بالنسبة لقضية الإرهاب فلقد سألنا السوريين ما إذا كانوا يفهمون ما يريدون فعله لحذف سوريا من قائمة الدول الإرهابية وما إذا كانوا يرغبون في

الدخول في مفاوضات حقيقية وجادة حتى النهاية. وبالرجوع إلى اجتماعنا الأول في هيوستن حيث وضع السوريون لنا الفرق بين "المقاومة" و"الإرهاب" ووجوب التمييز بينهما، أردف أحد أعضاء الوفد السوري معلقًا ومعبرًا عن الحق الشرعي للشعوب المحتلة في أن تقاوم الاحتلال وأن هذا العمل شرعي عندما تكون هناك هجمات على المدنيين العزل وأنه من المستحيل على الولايات المتحدة أن تتغاضى عن دعم منظمة من المنظمات للسبب الأول عندما تقوم نفس المنظمة بعمل الشيء الثاني. ولقد أكد هذا العضو أن الأساس في الأمر هو أن الهجمات الإرهابية التي تقوم بها فصائل أو منظمات لا تتبع الدولة والتي تنظمها من المدنيين الأبرياء هي أعمال إرهابية، وهو أمر غير مقبول من جانب الولايات المتحدة. ولقد كانت هذه نقطة هامة أثيرت وذلك لاختراق الجدل حول ما نسميه بالتعريفات. وعندما جرى التركيز على حزب الله والجماعات الفلسطينية في سوريا مثل حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة، كرر السوريون قولهم بأن سوريا تستضيف 400000 فلسطيني لم يتم دعوتهم وأنهم يشكلون عبئًا اقتصاديًا على البلاد. ولقد كانت جدليتهم تدور حول قوة العلاقات بين السوريين والفلسطينيين وتاريخها وأن كسر شوكتهم ليس أمرًا سهلاً من الناحية السياسية.

ولقد أعطى حافظ الأسد عام 1978 توجيهات بألا يتم شن أي هجمات أو عمليات من الأراضي السورية. ولهذا السبب فلقد أمرت الحكومة السورية أبا نضال بمغادرة سوريا وذلك بعد أن طلب جيمي كارتر من سوريا ذلك. وكرر المعلم القول بأن أي شاهد يشير إلى أن عملية قد يخطط لها من الأراضي السورية سيتم التعامل معها ونحن ننصت إليكم بعناية.

أما بالنسبة للفرص والآمال المنعقدة على المفاوضات بين السوريين والإسرائيليين، فلقد دأب السوريون على تكرار عبارة "الخيار الاستراتيجي للسلام"؛ ولقد قدم أحد المنظرين في إفريقيا ما يمكن أن يكون وجهة نظر أمريكية وأشار إلى الفترة التي تم فيها انتخاب باراك كرئيس للوزراء، وانتهى

بمؤتمر القمة في صيف عام 2000 بين الرئيسين كلينتون وحافظ الأسد. ثم أبرز بعد ذلك ثلاث مشاكل رئيسية كانت قد ظهرت بالنسبة للمنحى الذي اتخذه السوريون بالنسبة للمفاوضات، ويمكن تلخيص هذه المشاكل فيما يلي:

1 ـ الحاجة إلى التواصل مع السوريين على مستوى عالٍ وذلك لتبادل الأفكار والاقتراحات غير الرسمية.

2 ـ الحاجة إلى اقتراحات سورية ملموسة بالنسبة لقضايا المياه والترتيبات الأمنية والعلاقات السلمية الطبيعية.

3 ـ الحاجة إلى بناء الثقة واتخاذ الإجراءات الكفيلة بذلك.

وقد كرر السوريون القول بأن الرئيس حافظ الأسد يمتنع عن بناء هذه الثقة قبل توقيع معاهدة للسلام ومثل هذه الثقة تبنى بعد التوقيع. ولقد تذكرت في هذا السياق بأن الأسد قال لي ذات مرة عندما كنت أتحدث معه وذلك لحثه على إبداء حسن النية تجاه إسرائيل: "أنتم أيها الأمريكيون دائمًا تدفعوننا إلى المغازلة والعناق قبل حفل الزفاف"، وكان السوريون يرون أنهم انخرطوا مع الإسرائيليين بأسلوب يحقق المتطلبات اللازمة للتفاوض، وكانوا دائمًا ينتقدون الولايات المتحدة لعجزها عن التقدم بمقترحات واقعية ملموسة لتضييق الفجوة بين الطرفين وذلك أثناء حكم إدارة كلينتون. كما أنهم كرروا القول بأن الانسحاب الكامل من الأراضي التي احتلت في الرابع من حزيران/يونيو 1967 هو أمر ضروري ولا بدّ منه، وكانوا دائمًا يشيرون إلى وديعة رابين في آب/أغسطس 1993.

أما بالنسبة للعلاقات الثنائية، فلقد كان قانون المحاسبة الذي يقضي بفرض العقوبات يلوح في الأفق بدرجة كبيرة وذلك على خلفية ما قدمه الوفد السوري من اقتراحات.

ولقد أجبنا على كل الأسئلة التي طرحت وكان ذلك من قبل مجموعة من الأمريكيين الذين يعملون في القطاع الخاص. ومارسنا ضغوطًا على السوريين،

ئيت والتسلسل اللازمين لإصلاحات السوق، علاوة على التصدي للإجراء
 يجب أن تتخذ لمحاربة الفساد. كلّ هذه الأمور أساسية، إذا أريد للاستث
نبي أن يكون ذا معنى، إلا أننا أصبنا بخيبة أمل عند اكتشافنا درجة الـ
ـيد التي أبداها السوريون في تأييدهم للإصلاحات في دمشق قياسًا بما أبد
 حماس لهذه الإصلاحات في هيوستن، إذ ربما كانوا يشعرون بالقي
ـوضة على أفكارهم وآرائهم في دمشق مقارنة بهيوستن.

الرئيس بشار الأسد

ـت الرئيس بشار الأسد مرة أخرى في آب/أغسطس 2003 في دمـ
ـرت إلى العمل الذي كنت أقوم به في المنطقة كرئيس للجنة الاستشا
ـوضة من الكونغرس والتي يُستشار أعضاؤها بالنسبة لسياسة الولا
ـحدة العامة في العالم العربي والإسلامي. ولقد علق الأسد على كلامي قـ
 مبادرة الدبلوماسية العامة أمر في غاية الأهمية، وأكد أنها تخص كلاً
ـف السوري والطرف الأمريكي". ليس من المستحسن أن تقدم الولا
ـحدة على تفسير القيم والسياسات الأمريكية بدون الوعي والفهم الأ
ـم الذي تتعامل معه. ويتوجب على الولايات المتحدة أن تبذل مجهودًا لـ
ـهور الأجنبي الذي تسعى إلى التواصل معه وإيصال رسائله بطريقة يفهـ
 الجمهور.

ولقد اختتم الأسد كلامه بالقول: "إن السياسة العامة للولايات المتـ
ـه تحديًا حقيقيًا وذلك للتصور السائد بأن هناك ضرورة في تنفيذ
ـياسات وقيم ومصالح الشعب الأمريكي؛ إني منبهر ومعجب بتطور المجـ
ـيكي وبعلومه وتكنولوجياته والكثير من الأمور، إلا أن السلوك الأمري
ـرفات الساسة قد أدى إلى كثير من المشاكل". وساق الأسد مثالاً على

يقوله مشيراً إلى سياسة الولايات المتحدة في العراق وأثر هذه السياسة على العلاقات الأمريكية السورية.

ثم علقت قائلاً: "إنني أعرف أن الرئيس الأسد يتلقى النصائح من مستشاريه والتي تفيد بالانتظار والتريث توقعاً لفشل سياسات أمريكا في العراق والسياق الإسرائيلي العربي. كما نصحوه أيضًا أنه يتوجب عليه أن يختار الانخراط مع الولايات المتحدة وذلك بالنظر إلى الموقف الاستراتيجي في المنطقة. فكل من الولايات المتحدة وسوريا لهما مصالح مشتركة كما ثبت في الماضي عندما قمنا بما قمنا به في إنهاء الحرب الأهلية في لبنان، وتعاوننا السياسي والعسكري وإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في لبنان إضافة إلى التعاون ضد القاعدة وأخيرًا الاستثمار الأمريكي المحتمل في سوريا للدفع بالاقتصاد السوري، وفي النهاية التسوية الشاملة بين إسرائيل وسوريا".

وبمنأى عن فك الارتباط أخبرته أنه من دواعي الحكمة بالنسبة للسوريين أن يتعاونوا معنا وذلك لتحديد ما إذا كانت هناك أرضية مشتركة للتعامل بصراحة بيننا، وإذا ما أعلنت سوريا صراحة بأن الولايات المتحدة لا تأخذ في الحسبان مصالح سوريا، فإنه يتوجب عليه أن يدرج هذا الموضوع في النقاش. إذ إن للسوريين دورًا إقليميًا يمارسونه ويمكن لهذا الدور أن يكون دورًا مهمًا في مساعدة الولايات المتحدة وهذا يعني انخراطًا بناءًا مستدامًا. فالانطباع لدى الأمريكيين في واشنطن بأن السوريين أصحاب كلمات أكثر من الأفعال ومن ثم فإن هذا الوضع يمكن أن يسبب إشكالاً. إذ يجب على السوريين البناء على ما سبق أن فعلناه سويًا في الماضي وتجنب أسوأ السيناريوهات. وسوريا تحتاج لأن تنخرط معنا كما يستوجب عليها ألا تنتظر مبادرات من الولايات المتحدة. وأشرت إلى وعي السوريين الأكيد بقانون محاسبة سوريا الذي عبّر عن رأي أعضاء الكونغرس. والحقيقة الماثلة بأن هذا التشريع كان يلوح في الأفق وأنه سيتم الموافقة عليه أواخر العام، يبشر بنذر سيئة بالنسبة للعلاقات الأمريكية

السورية. ومن ثم فلقد استدعت الحالة الدعوة إلى الانخراط في النقاش في الشهور المقبلة القادمة.

ولقد أجاب الأسد بأنه يتفهم ما أقوله، إلا أنه يستوجب على الولايات المتحدة أن تعي وتتفهم بأن لديه مصالحه الخاصة والاعتبارات السياسية الداخلية التي يجب أن تؤخذ في الحسبان تمامًا كما يحدث بين الإدارة الأمريكية والكونغرس. وأشار إلى استعداد سوريا لمناقشة القضايا، وفي نفس الوقت قال إن العالم يرى الآن الولايات المتحدة "كقوة عظمى يصعب علينا تكهّن رؤيتها للأمور"، هذا بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة لا يجب فقط أن تقارب هذا المنحى في علاقاتها مع سوريا حيث إنها تركز بصرها واهتمامها على مصالحها فقط بدون الأخذ في الاعتبار المصالح السورية، فمصالح سوريا لا بد وأن تكون جزءًا من هذا الحوار فليس لدينا حوار بنّاء. ثم أردف قائلاً: "لقد انخرطنا في هذا الحوار واتفقنا بخصوص قضية الأرصدة في العراق والجماعات الفلسطينية في سوريا"، إلا أن الولايات المتحدة تقدمت إلينا بقائمة من المتطلبات وهي تتوقع أن كل أمر من الأمور الخلافية لا بد وأن ينتهي حسب رؤيتها. وإذا ما أذعنا بقبول أربعة من خمسة من هذه القضايا، فإن تقريرًا يرسل إلى الكونغرس يفيد بأن سوريا لم تُلَبِّ مطالب الولايات المتحدة. وكان الأسد في هذا السياق يشير إلى حقيقة مؤداها أن الولايات المتحدة تخلق أعداء لها في معظم سياساتها.

واسترسل الأسد في تأملاته وأفكاره بالنسبة للعراق وقال: "إننا لا نظن أن الولايات المتحدة ستنسحب من العراق مبكرا". والسياسة السورية تجاه العراق هي سياسة واقعيّة؛ فنحن لا نعيش على التوقعات. فنظرتي إلى الولايات المتحدة والعراق تكون من خلال مصالح سوريا والعراق معاً. ونحن في حاجة إلى رؤية، إلا أنه ليس هناك أمر واضح الآن والجو يتسم بالضبابية ومن ثم فنحن في حاجة إلى الأمل والطريق الواضح. وعلق الأسد قائلاً: "هناك فراغ سياسي في العراق الآن ومن ثم سيكون من الخطأ اتخاذ أي قرار يتعلق بالعراق عندما تكون الأحوال والظروف من دون أهمية عملية؛ وعلى أي حال فنحن لا

ننتظر من الولايات المتحدة أن تفشل أو تنجح في العراق. فنحن لدينا علاقة طويلة الأمد مع العراق ولدينا وجهة نظرنا، وعلى الجانب الأمريكي أن يبذل جهدًا لفهم من أين نجيء". أما بخصوص الخمس مئة كيلومتر من الحدود مع العراق فلقد كرر قوله: "ليس لدى سوريا القدرة على السيطرة تمامًا على كافة الحدود، إلا أنني طالبت ببذل أقصى الجهد لتأكيد السيادة السورية على الحدود والسيطرة عليها في هذا الوقت الحرج".

ثم أضاف الأسد إن سوريا تسيطر على حدودها في واقع الأمر بما يشمل المخافر ونقاط التفتيش؛ إلا أن عمليات التهريب على طول الحدود لا يمكن ضبطها والسيطرة عليها، وأن على الولايات المتحدة وبحضورها في العراق أن تلعب دورها في السيطرة على الحدود وذلك من خلال الأعداد الهائلة من القوات المتواجدة. ثم تطوع الأسد وقام بطرد عدد من أتباع صدام حسين من سوريا، بمن فيهم عدي وقصي. الذين أتوا للاحتماء في أنحاء البلاد، ثم أردف قائلاً مختتمًا حديثه: "لن ننسى الدور الذي لعبه العراقيون في الثمانينيات عندما قاموا بدعم انتفاضة الإخوان المسلمين في سوريا ضد نظام الحكم". ثم أشار إلى تعاون سوريا مع الولايات المتحدة بالنسبة لتنظيم القاعدة والذي استمر بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. ولقد كانت الاجتماعات أقل من ذي قبل إلا أن استمرار هذا التعاون كان ملحوظًا. ثم قال إن لدى سوريا الخبرة في التعامل مع المتطرفين الإسلاميين والإرهاب ولا بد للولايات المتحدة أن تقدر الخبرة التي يمكن أن تقدمها سوريا في هذا المجال.

وسألت الأسد عما إذ كان بالفعل قد أغلق مكاتب حماس في دمشق كما طلبت منه الولايات المتحدة ودول أخرى، أو ما إذا كان تم نقلها إلى مكان آخر؟ وأجاب الأسد: "سنغلق هذه المكاتب ولكننا لن نطرد أتباع هذه المجموعات من سوريا حيث إنه بدونهم لا يمكننا أن نحصل على وقف لإطلاق النار في الأراضي الفلسطينية". وأردف قائلاً إن المكاتب تم إغلاقها، إلا أنه يتوجب على الولايات

المتحدة فهم أنه طالما بقي الجولان محتلاً من قبل إسرائيل فإن ما يمكن أن يفعله السوريون أمر محدود في المكان والزمان.

وبالإشارة إلى الفرص المتاحة بالنسبة إلى محادثات السلام السورية الإسرائيلية، فلقد قلت "إني أفترض أن التزام الأسد بالسلام هو خيار استراتيجي لسوريا وما زال هذا الخيار قائمًا وأن موقف سوريا يتلخص في العودة إلى بدء المفاوضات من حيث انتهت. ولقد أكد الأسد أن التزامه ما زال قائمًا وهو التزام ثابت ومحدد وذلك من منطلق خيارها ببدء المفاوضات مرة أخرى من حيث ما انتهت إليه. لقد وجدت أن هذا الموقف يتسم بالمهارة، وكان الأسد يصر دومًا على ذلك عندما انقطعت المفاوضات بناءً على مطالب السوريين والآن فهو خيار مهم ويتسم أيضًا بالمرونة.

ثم عرجت على قضية الإصلاحات في ظل حكم بشار الأسد والتي أعلنها كواحدة من أولوياته الكبيرة عندما استلم مقاليد الحكم والتي غرست الأمل الكبير في سوريا بين الشعب بجماهيره العريضة. ولقد صرح الأسد بأنه يوافق على أهمية هذه الإصلاحات إلا أنّه أضاف أن الإصلاحات الديمقراطية يجب تنفيذها تبعًا للتاريخ والتقاليد الخاصة بكل دولة، ومع ذلك فإن النتيجة النهائية يجب التوصل إليها بالإجماع المجتمعي مع الأخذ بعين الاعتبار الأمن الكافي الذي يصاحب هذه العملية.

دمشق 2005

قمت بزيارة إلى دمشق مرة أخرى في كانون الثاني/يناير 2005 وتقابلت مع بشار الأسد وراجعت الكثير من القضايا التي ناقشناها في اجتماعاتنا السابقة. ولقد أصبحت العلاقات السورية الأمريكية علاقات جادة. وقد عانت واشنطن الإحباط على وجه الخصوص بالنسبة لعدم استجابة سوريا لمطالبها بفرض

سيطرتها على الحدود العراقية السورية، حيث كان المحاربون الأجانب يعبرونها إلى العراق للالتحاق بالقاعدة في أرض الرافدين، علاوة على تدفق البعثيين العراقيين والقادة المنفيين الذين اختلفوا مع صدام حسين ولجأوا إلى سوريا لعدة سنوات واستمروا في مساعدة أهل السنة وتحريضهم على التمرد ومدهم بالدعم المادي والمالي. ولقد أمدت واشنطن السوريين بقائمة بأسماء بعض الأفراد الأكثر نشاطًا ودعمًا للمتمردين وطالبت بإيقاف أنشطتهم على الأراضي السورية وترحيلهم وتسليمهم للسلطات العراقية.

ثم سألت الأسد عما إذ كان يخطط لاتخاذ إجراءات ضدهم، ثم بدأ ينفث عن إحباطاته، واسترسل في حديث مطول عن مطالب الإدارة الأمريكية ومعارضتها لسوريا. ثم ذكر في معرض حديثه عن الحاجة إلى منظار ليلي كانت سوريا طالبت الولايات المتحدة بتزويدها إياه وذلك للمساعدة في حراسة الحدود ولم تتسلمه سوريا على الإطلاق. ثم بدأ يظهر تذمره من الولايات المتحدة لعدم توفير فرق فنية من وزارة الخزانة الأمريكية لتساعد السوريين على مراقبة التدفقات المالية التي تصل إلى المتمردين. ثم ادّعى أن المعلومات التي زودتها الولايات المتحدة لسوريا عن المنفيين العراقيين في سوريا كانت في أغلب الأحيان غير صحيحة وغير كاملة.

ثم أعطيته اسم أحد العراقيين الذي يشكل قلقًا بالنسبة لواشنطن وقلت إنني لا أمثل الحكومة الأمريكية وإنما سمحت لنفسي بالقول بأنه إذا تم تسليم هذا الشخص للسلطات العراقية، فإن هذا العمل سيلقى كل التقدير والاستحسان من واشنطن ومن بوش نفسه، الأمر الذي يمكن أن يساعد على عودة العلاقات مع الولايات المتحدة إلى سابق عهدها؛ ولقد كان هذا هو الحال دائمًا، وحيث إننا على وشك عقد الانتخابات العراقية التي كان ينظر إليها على أنها حدث هام يمثل مرحلة جديدة من التاريخ العراقي وأي شيء يمكن القيام به للمساعدة على نشر الاستقرار في العراق لكي نعقد الانتخابات بنجاح، الأمر الذي ستعترف به واشنطن.

ولقد نصحت الأسد بأنه من دواعي الحكمة القيام بهذا العمل الآن قبل الانتخابات حتى يترك أثرًا جيدًا ويكون له وقع كبير في واشنطن. ولقد قام الأسد بكل ما طلب منه وطبقًا للخطوط العريضة المقترحة. ولقد دعم هذا العمل المتأخر وجهة نظر واشنطن بأن أكثر ما يمكن أن تتوقعه واشنطن من دمشق هو "القليل جدًا والمتأخر جدًا".

وعند مغادرتي لدمشق كان يساورني الشعور بأن العلاقات الثنائية بين كل من الولايات المتحدة وسوريا آخذة في التدهور. وفي الشهر التالي وبالتحديد في 14 شباط/فبراير 2005، اغتيل رئيس الوزراء رفيق الحريري في بيروت وكان أصبع الاتهام موجهًا مباشرة إلى سوريا، ومن ثم قررت أن حوار معهد بيكر السوري الأمريكي يحتاج إلى فترة من الراحة، فالطريق إلى الأمام أصبح ملغمًا بالصعاب والمشاكل.

2006 ـ المجموعة العراقية لدراسة الأوضاع وسوريا

وفي العام الذي تلاه تقابلت أنا وبيكر مع وليد المعلم وزير الدولة للشؤون الخارجية السورية ومعه عماد مصطفى في مدينة نيويورك كجزء من أعمال المجموعة العراقية لدراسة الأوضاع، وافتتح بيكر النقاش موضحًا مهمة هذه المجموعة وولايتها، وذلك بهدف إلقاء نظرة على الوضع في العراق واتخاذ التوصيات ورفعها إلى الكونغرس والإدارة.

ثم روى كيف أصبحت سوريا عضوًا في تحالف مع الولايات المتحدة عام 1990 في حملة عاصفة الصحراء. ولقد كان الرئيس حافظ الأسد يثق بنا وكانت حساباته الاستراتيجية صائبة حيث استفادت كل من الولايات المتحدة وسوريا وإسرائيل من قرار انضمامه إلى التحالف الذي أفاد أيضًا المنطقة برمتها؛ من ثم فنحن في حاجة إلى منحى استراتيجي نسلكه تجاه المنطقة، وإذا كان هناك فوضى في العراق فسيكون هذا أمرًا عسيرًا بالنسبة لسوريا والمنطقة.

ولقد كان رد المعلم على هذه التوضيحات للمواقف التي أشرت إليها بالقول إنّ سوريا على استعداد لكي تستعيد الحوار مع الولايات المتحدة إذا قررت الإدارة الأمريكية الانخراط معها في هذا الحوار عوضًا عن سياستها التي تهدف إلى عزل سوريا؛ وهو يعتقد أن الولايات المتحدة في حاجة إلى فتح صفحة جديدة والابتعاد عن مناقشة "السياسات القديمة". وتذكر مجيئي إلى دمشق في أوائل عام 2001 قبل العمل العسكري في العراق عام 2003 وتحذيره لي بأنه في حال إقدام الولايات المتحدة على غزو العراق، فإن العراقيين سيعتبروننا غير صادقين. ولقد كان بيكر يسأل أسئلة واضحة عن إيران وما يمكن لسوريا أن تكون على استعداد لفعله حتى يتحسن الوضع في العراق ولبنان وحتى يمكن استئناف مفاوضات السلام الإسرائيلية السورية. وكانت ردود أفعال المعلم إيجابية بالنسبة لكل القضايا الرئيسية، ولقد عكسنا هذا الحال في تقريرنا الذي أرسلناه إلى واشنطن. وفي واقع الأمر فإننا أوضحنا بالتفصيل ما يجب أن يكون عليه إطار المفاوضات والالتزامات التي يجب أن تضطلع بها كل من سوريا وإسرائيل بالنسبة لعدد من القضايا، وذلك بهدف الوصول إلى سلام إسرائيلي سوري قابل للحياة. وأخبرنا المعلم أن سوريا على استعداد لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل على أساس مؤتمر مدريد؛ واختتم قائلاً: "الكثير من الأعمال قد أُنجزت في العشر سنوات الأخيرة ويمكن الانتهاء منها في خلال بضعة أشهر".

ومن ثم فإنه بالنسبة للسوريين سيكون هذا نصرًا للرئيس بوش؛ ولسوء الحظ تتبنّى إدارة بوش التوصيات المتضمنة في التقرير الذي أرسل إلى واشنطن بالنسبة للانخراط السوري في الحوار مع واشنطن ومشاركة سوريا في مفاوضات السلام. فلقد اختارت الإدارة سياسة عزل سوريا وفرض عقوبات على السوريين.

الفصل السابع

حل النزاع العربي الإسرائيلي

كان هناك ضفدع على ضفة نهر النيل يحاول السباحة إلى الضفة الأخرى عندما تقدم منه عقرب وطلب منه أن يُركبه على ظهره لعبور النهر؛ إلا أن الضفدع نظر إلى العقرب وقال له: "أتظن أنني أريد أن أنتحر؟ إذا حملتك على ظهري، فإنه يمكن أن تلدغني"، فأجاب العقرب: "لا تكن سخيفًا، إذا لدغتك فكلانا سنغرق". ثم تأمل الضفدع ما قاله العقرب وسكت لفترة وجيزة وقال: "إنك على حق، تقدم واركب على ظهري". وفي منتصف الطريق إلى الضفة الأخرى لدغ العقرب الضفدع، وبألم شديد أدار الضفدع رأسه وقال: "لم فعلت ذلك؟" ثم أضاف: "الآن سنغرق سويًا"، فابتسم العقرب وقال: "مرحبًا بك في الشرق الأوسط".

طريق السلام المحفوف بالمخاطر

أصبح العديد من الأنظمة في الشرق الأوسط يتعرض للكثير من النقد والانتقاد من الرأي العام للمواطنين الذين يرون عجز حكوماتهم عن تلبية الحاجة الملحة للإصلاحات الاقتصادية والمشاركة السياسية الموسعة، هذا علاوة على شعورهم المتزايد بالإحباط جراء عجز هذه الحكومات عن التوصل إلى حل للنزاع العربي

الإسرائيلي والتوصل إلى سلام مع الدولة العبرية. وهناك عامل مهم في هذه المعادلة ويتمثل في الأحوال الاقتصادية المزرية للفلسطينيين والتي تستفيد منها المنظمات المتطرفة مثل حماس. فالبطالة المستشرية ونقص الغذاء والماء وانعدام الخدمات الأساسية تغذّي نيران الغضب والكراهية والغيظ والامتعاض في نفوس الفلسطينيين البسطاء ضد كل من إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية.

وأما العامل الثاني فيكمن في فشل مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 في الوفاء بما توصل إليه المشاركون من التزامات تجاه عملية السلام التي تأخرت كثيرًا والتي تعهدت الأطراف المشاركة فيه بمفاوضات مباشرة (وجهًا لوجه) على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام وقراري الأمم المتحدة 242 و338 اللّذين يدعوان إسرائيل إلى الانسحاب من كل الأراضي العربية التي استولت عليها في حرب عام 1967. هذا علاوة على الفجوة الكبيرة بين آراء النخبة والرأي الشعبي العام بالنسبة لعملية السلام، الأمر الذي كان له نتائج وآثار سلبية. فبالنسبة للفلسطينيين فإن فرص التوصل إلى سلام قاتمة بل وتكاد تكون معدومة؛ فهم لا يرون أي تغيير في الظروف الصعبة التي يمرون بها في حياتهم اليومية. أما بالنسبة للإسرائيليين فليس هناك سلام ولا أمن، فعملية أوسلو وبتركيزها على دبلوماسية الخطوات والاتفاقيات المؤقتة لم تأت بأي نتائج على الأرض وزادت من عذابات الفلسطينيين والملل الذي حل بهم.

أما بالنسبة لمعاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، فلقد كانت إنجازًا كبيرًا تحقق نتيجة للمفاوضات المباشرة بين كل من حكومة إسرائيل والحكومة الأردنية وأصبحت هذه المعاهدة أمرًا واقعًا بالنسبة للولايات المتحدة. إلا أن التفاوض على المسار اللبناني الإسرائيلي، فلقد خسر هذا المسار الكثير من الفرص الضائعة منذ عام 1993؛ ففشل مؤتمر القمة بين كلينتون والأسد يشكّل مثالاً للتأزم الذي وصلت إليه المنطقة، فالتوصل إلى اتفاق على هذا المسار كان من الممكن أن يكون له مضامين استراتيجية للمنطقة ككل كما كان من الممكن تعزيز الآمال والتوقعات للتوصل إلى اتفاق حول الوضع النهائي بين الفلسطينيين

والإسرائيليين. وثانيًا نجد أن مؤتمر قمة كامب ديفيد بين الرئيس كلينتون ورئيس الوزراء الإسرائيلي باراك ورئيس منظمة التحرير ياسر عرفات قد قضى على التوقعات العالية التي كان ينتظرها الكثيرون منه ومهد للكثير من أعمال العنف التي تبعته، وكان سببًا في قتل وجرح الآلاف ومعظمهم من الفلسطينيين.

وأما العامل الثالث الذي عطل فرص التوصل إلى سلام فيكمن في المظاهرات التي قام بها عرب إسرائيل احتجاجًا على مصادرة أراضيهم، وكانت هذه الاحتجاجات أيضا تعبيرًا عن تضامنهم مع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أثناء ما يعرف بفترة "انتفاضة الأقصى". ولقد أدت هذه الاحتجاجات إلى مزيد من المواجهات مع قوات الأمن الإسرائيلية مما أدى إلى قتل 13 إسرائيليًا من عرب الدولة العبرية. ولقد كان لهذا التطور في مجريات الأحداث أثر سيىء على الرأي العام الإسرائيلي، وذلك لأن التهديد الذي تتعرض له إسرائيل أصبح يأتي من داخلها وخارجها. وكان للهجمات المتعاقبة التي شنها اليهود الإسرائيليون على الإسرائيليين العرب الأثر الكبير في تفاقم الأمور وتعقّد المشاكل. وبوجه عام فإن المزاج الإسرائيلي العام قد تحول من التفاؤل النسبي إلى التشاؤم والتحرر من الوهم بالنسبة للفرص المرتقبة والمتوقعة للسلام والأمن.

والعامل الرابع الذي عطل من فرص التوصل إلى السلام فيكمن في الرمز السياسي الذي يمثله حزب الله في العالمين العربي والإسلامي كحركة مقاومة وطنية استطاعت أن تحقق ما عجزت الحكومات العربية والجيوش العربية عن تحقيقه وهو تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الإسرائيلي(خروج القوات الإسرائيلية من لبنان عام 2000). ولقد كان للانتصارات التي حققها حزب الله في لبنان عام 2000 و2006 الأثر الكبير في تشجيع الجماعات الفلسطينية مثل حماس والجهاد الإسلامي وحتى الجماعات المنضوية تحت مظلة فتح مثل "كتائب شهداء الأقصى" التي رأت أن العنف والمواجهة هما الطريق الضروري أو على الأقل هما الطريق الملازم لعمليات التفاوض.

وفي واقع الأمر، فإن القضية الأساسية بين العرب والإسرائيليين تتمحور حول موضوع أساسي ألا وهو، "من له الحق في اتباع أسلوب العنف".

فالإسرائيليون يؤكدون حقهم كدولة ذات سيادة في الحفاظ على أمنهم وحماية مصالحهم وذلك باللجوء إلى القوة عندما تكون ضرورية سواء كانت هذه القوة قوة العسكر أو الشرطة. والفلسطينيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم شعب واقع تحت الاحتلال ويرون أن حقهم في اللجوء إلى العنف هو وسيلة من وسائل مقاومة الاحتلال.

المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية

بعد انهيار المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية بعد مؤتمر قمة كامب ديفيد في صيف عام 2000 والعنف المأساوي والقتل الذي أعقب هذا الانهيار ثم انتخاب شارون كرئيس لوزراء إسرائيل وسياسة الانسحابات الأحادية التي اتبعها، بالإضافة إلى تصدع حكومة الوحدة الوطنية الفلسطينية في حزيران/يونيو عام 2007، كل هذه الأحداث تطلبت فكرًا جديدًا للطريقة التي يمكن من خلالها مواصلة عملية السلام.

وحيث إن الأطراف المعنية بدأت المحادثات في أنابوليس في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2007، فإن عليهم أن يتعلموا من النجاح والفشل اللذين تعرضوا لهما في تلك المفاوضات حتى الآن. ولعل أحد الخطوط العريضة الرئيسية لعملية السلام والتي يجب اتباعها تكمن في الحكمة اللاتينية "أسرع الخطى ولكن سر بتمهل"؛ إلا أنه لا يمكننا أن ننظر إلى هذه الصيغة على أنها وصفة للتمهل والتردد في اتخاذ القرار وغياب القيادة وإنما تتضمن هذه الحكمة ما يمكن أن يقوم به الفرقاء من تشمير السواعد والانخراط في المفاوضات بنشاط وديناميكية وجدية وتلقي الدعم من المجتمع الدولي وخاصة الولايات المتحدة وذلك بهدف التوصل إلى ما يمكن الحصول عليه بأسلوب يعتمد على

نقطة معينة من المفاوضات ثم تمهيد الطريق للمراحل التالية من هذه المفاوضات وذلك لتحقيق تسوية شاملة بالنسبة للقضايا النهائية. ولم يكن ممكنًا فرض اتفاق بالنسبة لوضع مدينة القدس في محادثات كامب ديفيد بدون الأخذ في الاعتبار الكثير من الأعمال التمهيدية والمشاورات المسبقة في العالم العربي. هذا بالإضافة إلى أن رئيس الوزراء السابق إيهود باراك كان مصرًا على "إنهاء الصراع" بدون التمكن من الوصول إلى نهاية لقضايا الوضع النهائي الرئيسية، الأمر الذي أدى إلى تغيير صميم عملية اتفاق أوسلو والتي تتضمن سلسلة من الأهداف المؤقتة التي يمكن التوصل إليها.

ولقد كان على كل من حزب العمل والليكود التعامل مع الفلسطينيين كهوية قومية وسياسية منفصلة تمامًا، أما بالنسبة للفلسطينيين سواء كانوا قد أعلنوا على انفراد وضعهم كدولة أم لا، إلا أنهم لن يتمكنوا من تحديد متطلباتهم القومية بدون اتفاق متفاوض عليه مع إسرائيل. وإذا كان هناك من سلام في الشرق الأوسط فإن دولة فلسطينية قابلة للحياة تعيش جنبًا إلى جنب مع إسرائيل ويسود المنطقة السلام والأمن فلا بد وأن تخرج هذه الدولة إلى حيز الوجود من خلال مفاوضات وليس عن طريق أعمال أحادية من أي من الجانبين.

حل الدولتين ودولة ديمقراطية يهودية

يكمن أحد التطورات الهامة على مدى السنوات الخمس الأخيرة في التطور الذي طرأ على فكر بعض قادة الليكود أمثال شارون وذلك بالنسبة للدولة الفلسطينية. من الناحية التقليدية يمثل الليكود مفهوم إسرائيل في يهودا والسامرة. وكان قادة الليكود هم المخططون والمنفذون لسياسة الاستيطان وذلك للتأسيس لوضع أقدام اليهود في هذه الأرض والسيطرة عليها. وفي إعادة تقييم للمخاطر الاستراتيجية توصل أرييل شارون، رئيس وزراء، إسرائيل إلى قناعة بأن اليهود في إسرائيل سيقل عددهم قياسًا بجيرانهم العرب وذلك إذا أخذنا في الاعتبار معدلات النمو

الديموغرافي للسكان العرب فيما بين نهر الأردن والبحر المتوسط؛ ومن ثم فلن تتمكن إسرائيل من أن يكون لها وجود كدولة ديمقراطية يهودية. ولن تظل دولة ديمقراطية ما دامت تستمر في احتلال أعداد أكبر من الفلسطينيين العرب مع كل ما يتضمن ذلك من تدابير. ولن تكون إسرائيل يهودية في وجه الحقائق الديموغرافية في الداخل (يشكل السكان العرب الإسرائيليون 20% من مجموع سكان إسرائيل) وكذلك في الخارج على حدودها مع الأراضي العربية المحتلة. ولقد قرر شارون وآخرون أن فصل إسرائيل عن الأراضي الفلسطينية هو الطريق الوحيد للخروج من هذا الوضع. ويكمن ذلك في حل الدولتين وذلك من خلال تسوية تفاوضية أو من خلال أعمال وانسحابات أحادية إلى حدود آمنة. وعندما عقد شارون العزم وتوصل إلى أن التفاوض مع القيادة الفلسطينية أمر تكتنفه المشاكل، اختار الانسحاب الأحادي من غزة، وتم هذا الانسحاب بنجاح غير أنه أصيب بجلطة دماغية ودخل في غيبوبة، وذلك قبل التصدي لقضية الضفة الغربية.

لقد كان شارون يركز على البعد الفلسطيني؛ وعندما قابلته في القدس بعد أن غادرت الحكومة الأمريكية وأفدته بما تم مع بشار الأسد وما قمت به من مناقشات في دمشق فيما يتعلق بفرص التفاوض مع الجانب السوري، أنصت إليّ بأدب وهو يدون بعض الملاحظات كعادته، ثم صرح ببساطة بأن مخاطر التخلي عن الجولان في ظل الظروف الحالية كبيرة. ومع ذلك فإن قراره الاستراتيجي كواحد من المتشددين يتلخص في أن حل الدولتين مع الفلسطينيين يعد نقطة تحول من الممكن أن تخلق فرصًا للسلام يمكن للولايات المتحدة والعرب البناء عليها.

وأما على الجبهة الإسرائيلية الفلسطينية فإنه من الأهمية بمكان دعم الرئيس الفلسطيني محمود عباس ومنظمة التحرير الفلسطينية والنظر بعين الاعتبار إليها كنقاط يمكن التركيز عليها في المفاوضات، والتحرك قدمًا نحو تسوية حقيقية للصراع.

ولقد بدأ الحوار الإسرائيلي الفلسطيني بطريقة جيدة للخروج من الأزمة وذلك قبل اختطاف حزب الله للجنديين الإسرائيليين على الحدود الإسرائيلية اللبنانية في صيف عام 2006. ولقد تم التوصل إلى تفاهم يلتزم فيه الجانب الفلسطيني بإطلاق سراح جلعاد شاليط العريف الإسرائيلي وذلك بوساطة مصرية. هذا علاوة على وقف إطلاق صواريخ القسام وإعلان لوقف إطلاق النار والتعهد بالحفاظ عليه. وكانت هناك تقارير يمكن الاستناد إليها تفيد باستعداد إسرائيل لإطلاق سراح مسجونين فلسطينيين وتسليمهم لعباس في مقابل وقف لإطلاق النيران.

الديناميكيات السياسية بين فتح وحماس

بعد فوز حماس في انتخابات المجلس التشريعي عام 2006 وقبل الأزمة في غزة عندما سيطرت حماس على القطاع وحل حكومة الوحدة الوطنية بين فتح وحماس في حزيران/يونيو 2007 كان هناك أمل يشوبه الحذر في أن يتكامل الفصيلان وتندمج عناصره ليصبح كيانًا يتسم بالحكم القائم على المسؤولية وتتعدل سياساته المبنية على مفهوم القتالية والنضال. ولقد أثبت الجناح الخارجي لحماس وعلى رأسه خالد مشعل ميوله وسياساته الأصوليّة، بينما كان رئيس الوزراء السابق، إسماعيل هنية ورفاقه في الأراضي المحتلة يحاولون الإمساك بزمام السلطة ومتطلباتها، وكان عليهم الأخذ بخيارات سياسية في غاية الصعوبة. ولقد كان لانهيار حكومة الوحدة الوطنية والمواجهات بين فتح وحماس الأثر الكبير في تفاقم الانقسامات وتفاقم الأوضاع في الجسد الفلسطيني الواحد.

وكان على الولايات المتحدة أن تتجاوب مع الديناميكيات السياسية؛ فبينما كانت تدعم بقوة السلطة الوطنية الفلسطينية كان عليها أيضًا ابتداع سياسات من شأنها إيجاد الظروف التي يمكن أن تشجع حماس على التحرك في اتجاه أكثر اعتدالاً وتقوّي مواقف فتح وتؤازر محمود عباس رئيس السلطة الوطنية.

فالفلسطينيون فقط هم الوحيدون الذين يمكنهم لملمة صفوفهم ويكون للعرب حق النصح والإرشاد الذي لا يمكن تجاهله.

أما اللّجنة الرباعية التي تضم الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة فقد وضعت عدة متطلبات طالبت بها حماس ومن بينها الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود والتخلي عن الإرهاب واحترام كل الاتفاقيات الموقعة. وللعمل على تسهيل الحركة في هذا الاتجاه لا بدّ لحماس من فعل ما فعلته الحكومات العربية من قبل وهو التقبل الكامل لمبادرة السلام العربية الصادرة عن قمة الجامعة العربية التي انعقدت في بيروت عام 2002 والتي نادت بالاعتراف بإسرائيل في مقابل تسوية سلام شاملة مبنية على قراري الأمم المتحدة 242 و338.

وبهذا تكون حماس قد استجابت في هذا السياق للمبادرة العربية التي قبلتها إسرائيل واللّجنة الرباعية الدولية. ولتعزيز الحركة إلى الأمام على المسار الفلسطيني، فإنه يتوجب على اللّجنة الرباعية بقيادة الولايات المتحدة أن تشجع توجهًا متعدد المراحل وواضح المعالم وذلك بهدف حل القضايا السياسية والاقتصادية والأمنية.

إدارة بوش وخريطة الطريق

إن الإطار السياسي لمفاوضات السلام الفلسطينية الإسرائيلية تحتويه خريطة الطريق لعام 2003 والتي حددتها إدارة بوش "بالأداء المبني على أهداف متعددة المراحل وواضحة وبجداول زمنية وعلامات على الطريق لتحديد التقدم من خلال خطوات متبادلة يتخذها الطرفان في المفاوضات في المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية والإنسانية وبناء المؤسسات"، وذلك برعاية الرباعية الدولية.

والغرض من هذه الخريطة هو الوصول إلى تسوية نهائية وشاملة للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وذلك بحلول عام 2005 وكما قدمها الرئيس بوش في

خطاب في 20 حزيران/يونيو عام 2002 وكما هي مفصلة بتاريخ 30 نيسان/أبريل 2002 في بيان أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية. وينتج عن هذه التسوية التي يتوصل إليها الطرفان عن طريق المفاوضات انبثاق دولة فلسطينية مستقلة ديمقراطية وقابلة للحياة تعيش جنبًا إلى جنب في أمن وسلام مع إسرائيل وجيرانها. وستحسم التسوية الصراع العربي الإسرائيلي، وينتهي الاحتلال الذي بدأ عام 1967. وتتم هذه التسوية على أسس مؤتمر مدريد ومبدأ الأرض مقابل السلام وقراري الأمم المتحدة 242 و338 والاتفاقات السابقة التي توصل إليها الطرفان ومبادرة الأمير عبد الله التي صدّق عليها مؤتمر قمة الجامعة العربية والذي أشير إليه من قبل فيما يخص حماس، والذي يدعو إلى تقبل إسرائيل كأحد جيرانها للعيش في سلام وأمن في سياق تسوية شاملة. وتعد هذه المبادرة عنصرًا أساسيًا للجهود الدولية التي تهدف إلى دعم السلام الشامل على كل الجبهات بما فيها المسار السوري والمسار اللبناني.

المرحلة الأولى

تهدف المرحلة الأولى من خارطة الطريق إلى إنهاء الإرهاب والعنف وتطبيع الحياة الفلسطينية وبناء المؤسسات الفلسطينية. ويتطلب من الفلسطينيين في هذه المرحلة التوقف غير المشروط في الحال للعنف طبقًا لخطوات تصاحبها إجراءات تعزيزية تتخذها إسرائيل. وعلى كل من الإسرائيليين والفلسطينيين التعاون الأمني لوقف العنف والإرهاب والتحريض وذلك من خلال الخدمات الأمنية الفعالة التي يعاد تنظيمها من قبل الفلسطينيين. ويقوم الفلسطينيون علاوة على ذلك بالاضطلاع بالإصلاح السياسي الشامل وذلك في محاولة لبناء الدولة بما يشمل سن دستور فلسطيني وإجراء انتخابات حرة ونزيهة ومنفتحة على أساس هذه الإجراءات. وعلى إسرائيل اتخاذ الخطوات الضرورية للمساعدة في عودة الحياة الطبيعية للفلسطينيين، كما عليها الانسحاب من الأراضي

الفلسطينية التي احتلت منذ أيلول/سبتمبر 2000 وصاعداً، ويستعيد الطرفان الوضع الذي كانت عليه الحال من قبل مثل الأداء الأمني والتقدم في التعاون. وعلى إسرائيل أيضًا تفكيك المستوطنات التي نشأت منذ آذار/مارس 2001، وتجميد كل الأنشطة الاستيطانية بما يشمل النمو الطبيعي للمستوطنات.

وبالنسبة للأمن، فالتحدي الماثل يكمن في المساعدة على استقرار الأراضي الفلسطينية وإصلاح وإعادة تنظيم الأجهزة الأمنية وتجريد الجماعات المسلحة والأفراد من أسلحتها ودمجها في بنية القوة الأمنية الجديدة وإقرار السيطرة المركزية للسلطة الفلسطينية بالنسبة لاستخدام القوة. وفي كلا البلدين فلسطين ولبنان، فإن نجاح عملية تجريد الجماعات المسلحة من السلاح ودمج هذه الجماعات في قوة أمنية موحدة تحت سيطرة الدولة سيكون بحق في نهاية المطاف مقياسًا لممارسة سيادة الدولة. أما بالنسبة للناحية الاقتصادية فإنه لا بد للمجتمع الدولي العمل على دعم الإصلاحات وتجنب أي كارثة إنسانية في الأراضي المحتلة وخاصة في غزة؛ ويتم ذلك بالتركيز على أربع قضايا أساسية: دفع المرتبات الشهرية لموظفي المنظمة المدنيين والشرطة، وتمويل البرامج الصحية والتعليمية والاجتماعية للسكان بشكل كبير، هذا علاوة على تغطية النفقات الجارية الضرورية للمؤسسات العامة والخدمات البلدية، وكذلك تمويل مشاريع البنية التحتية. ويتوجب على إسرائيل أيضًا تشجيع زيادة أعداد العمال الفلسطينيين في الاقتصاد الإسرائيلي مع الأخذ في الاعتبار حاجات الأمن المشروعة والعمل على تسهيل حركة البضائع عبر الحدود والمعابر.

المرحلة الثانية

تدعو المرحلة الثانية إلى تأسيس حدود فلسطينية مؤقتة بحلول العام 2003. ولقد رفض الفلسطينيون ذلك، ومن ثم استُبعدت هذه المرحلة وذلك في مقابل التحرك مباشرةً إلى قضايا الوضع النهائي.

المرحلة الثالثة

أهداف المرحلة الثالثة تتركز على دعم الإصلاح واستقرار المؤسسات الفلسطينية وأداء مستدام وفعال للأمن يهدف إلى الوصول إلى اتفاق الوضع النهائي.

وبعد سبع سنوات من عدم الانخراط الجاد والمستدام، بدأت إدارة بوش في دعوة الإسرائيليين والفلسطينيين وعدد كبير من الدول العربية إلى اجتماع في أنابوليس في تشرين الثاني/نوفمبر 2007 وذلك لإعادة إطلاق محادثات السلام في محاولة للتوصل إلى تسوية نهائية بنهاية عام 2008.

وفى عدة لقاءات ومحادثات أجريتها مع وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، أخبرتني الوزيرة بأن المنحى الذي تسلكه الولايات المتحدة نجح في جعل الأطراف تتعامل مع أوجه المرحلتين الأولى والثالثة من خريطة الطريق في وقت واحد، ثم أردفت قائلة إن المرحلة الثانية والتي تتضمن الترتيبات المؤقتة ومسألة الحدود لم تكن نقطة تركيز؛ ومن ثم فلقد رحبت بهذا المنحى لأنني كنت دائمًا أعتقد أن قضية الترتيبات المؤقتة لا يجب أن تكون نقطة بداية.

وعلى أي حال فإن المجهود الذي يتوجب على رئيس الولايات المتحدة ووزير خارجيته القيام به هو الوصول إلى الهدف الطموح الذي وضعته محادثات أنابوليس، ومن ثم فإن على الأطراف أن يبذلوا جهودًا كبيرة للوصول إلى تسويات قد تكون مؤلمة؛ فمن السهل عليهم الذهاب إلى جمهورهم ويقولون: "لاحظوا أن هذا ليس خياري المفضل إلا أن رئيس الولايات المتحدة طلب مني أن أقوم بهذا العمل".

بيان مبادئ لعام 2002

ما هو هام على وجه الخصوص يتلخص في أن يكون هناك حركة موازية قائمة

على تحسين الموقف على الأرض في إطار الالتزامات التي وعد بها الطرفان الإسرائيلي والفلسطيني، وكذلك الانخراط الكبير والحركة في اتجاه قضايا المرحلة النهائية بما فيها مسألة القدس وقضية الحدود وحق العودة والتسوية العادلة لمشكلة اللاجئين ومسألة مصادر المياه. وحيث إن هذه قضايا عسيرة كما يبدو إلا أن النقاش المستفيض في المفاوضات السابقة والوجوه العامة للتسوية تبدو في الأفق.

وبيان المبادئ الذي وقعه آمي أيالون الرئيس السابق للشين بيت وهو جهاز الأمن الداخلي في 27 تموز/يوليو عام 2002، وساري نسيبة رئيس جامعة القدس والممثل السابق لمنظمة التحرير، يوفر إطارًا ناقشته الأطراف وتحاورت بشأنه، وأهم ما ينص عليه البيان هو الآتي:

1. دولتان لشعبين: سيعلن الطرفان أن فلسطين هي الدولة الوحيدة للشعب الفلسطيني وإسرائيل هي الدولة الوحيدة للشعب اليهودي.

2. الحدود: سيُتفق على الحدود الدائمة بين الدولتين على أساس خطوط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967 وقرارات الأمم المتحدة والمبادرة العربية للسلام (المعروفة بالمبادرة السعودية).
   - ستُبنى تعديلات الحدود على أساس عادل ومنصف لتبادل الأراضي سيُتفق عليه الطرفان طبقًا للحاجات الحيوية للطرفين بما يشمل الأمن وتواصل الأراضي والاعتبارات الديموغرافية.
   - سيكون للدولة الفلسطينية رابطة بين الكيانين الجغرافيين: الضفة الغربية والقطاع.
   - بعد تأسيس الحدود المتفق عليها لن يكون للمستوطنين اليهود مكان في الدولة الفلسطينية.

3. القدس: ستكون القدس مدينة مفتوحة وعاصمة للدولتين. وأما حرية الأديان والوصول بحرية كاملة إلى الأماكن المقدسة ستكون مكفولة للجميع.

- ستقع الأحياء العربية في القدس تحت السيادة الفلسطينية، والأحياء اليهودية تحت السيادة الإسرائيلية.
- لن يكون لأي طرف السيادة على الأماكن المقدسة، وستكون لدولة فلسطين الوصاية على الحرم الشريف لصالح المسلمين، وسيكون لإسرائيل الوصاية على الحائط الغربي لصالح الشعب اليهودي، وسيظل الوضع الحالي كما هو بالنسبة للمقدسات المسيحية، ولن يكون هناك أي حفريات داخل الأماكن المقدسة أو تحتها بدون الموافقة المتبادلة.

4. حق العودة: من منطلق الاعتراف بآلام وأحوال اللاجئين الفلسطينيين فإن المجتمع الدولي وإسرائيل والدولة الفلسطينية ستساهم في إنشاء صندوق لتعويضهم عن ممتلكاتهم وبيوتهم.
   - سيعود اللاجئون الفلسطينيون فقط إلى دولة فلسطين، وسيعود اليهود إلى دولة إسرائيل فقط.
   - سيقدم المجتمع الدولي التعويض اللازم لتحسين أحوال الكثير من اللاجئين الذين يرغبون في البقاء في البلاد حيث يقيمون حاليًا أو مقار إقامتهم أو من يرغبون في الهجرة إلى دولة ثالثة.
5. ستكون الدولة الفلسطينية دولة منزوعة السلاح وسيكفل المجتمع الدولي أمنها واستقلالها.
6. إنهاء الصراع: عند التنفيذ الكامل لهذه المبادئ ستنتهي كل الدعاوى من كلا الطرفين وينتهي بذلك الصراع العربي الإسرائيلي.

يمكن أن نرى هنا الملامح العامة لاتفاق انبثق نتيجة لانخراط كل من الفلسطينيين والإسرائيليين في الحوار على هذه القضايا. ويمكن التفاوض على الخلافات. وما نحتاجه هنا هو الشجاعة السياسية والإرادة من كلا الطرفين لترجمة هذه الأفكار الرئيسية إلى اتفاقات.

المفاوضات الإسرائيلية السورية واللبنانية

يبدو أن المسارين السوري الإسرائيلي والمسار اللبناني الإسرائيلي قد أصبحا في طي النسيان بالنسبة لأجندة عملية سلام مدريد وذلك نتيجة للتركيز على المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية. إلا أنه يمكننا تحمل هذا الوضع لفترة قصيرة؛ وكلما مر الوقت فإن الفشل في حسم هذه القضايا المعلقة والتي تنطوي على مخاطر كبيرة يمكن أن يشكل تهديدًا للسلام والأمن لعموم المنطقة تمامًا كما ثبت من الأحداث الدراماتيكية التي حدثت عام 2006 ضمن سياق المواجهة بين حزب الله وإسرائيل في لبنان والتي هددت بتوسيع الصراع الإقليمي والذي من الممكن أن يشمل سوريا.

سوريا

على الرغم من الكآبة التي اتسمت بها الآمال المرتقبة في السنوات الأخيرة، إلا أنه ما زال هناك فرصة لتحقيق تسوية سلمية شاملة بين إسرائيل وسوريا. ولقد لاحت هذه الفرصة من خلال التقدم في المفاوضات السابقة، هذا بالإضافة إلى تصور كل منهما بأن الآخر قد قام بتطبيق اتفاقيات فك الارتباط بأسلوب لا يشوبه أي عيوب، وأخيرًا من خلال تحليل كامل لمصالحهم الحالية والمستقبلية. ومن الواضح أن تحقيق أي تسوية يتطلب الإرادة السياسية القوية من جانب القيادة السياسية لكل من إسرائيل وسوريا والولايات المتحدة. ولعل هذا الأمر يعدّ من الأمور الهادفة والحاسمة لمستقبل الشرق الأوسط والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

لقد كانت كل من إسرائيل وسوريا أقرب بكثير من الوصول إلى اتفاق في مناسبتين فريدتين (آب/أغسطس عام 1992 وتشرين الثاني/نوفمبر عام 1995)، إلا أن المفاوضات لم تستكمل للوصول إلى نهاية ناجحة. ولقد أدت هذه

المفاوضات إلى توقع عام لملامح اتفاق وكانت هذه الملامح معروفة بشكل واضح. ولقد نتج عن هذه المفاوضات سلسلة من "الدروس" عن الخبرة التي مر بها الطرفان بالرغم من أن هذه الدروس لم تكن إيجابية بالضرورة. لقد كان ينظر إلى كل طرف من الأطراف الثلاثة (إسرائيل والولايات المتحدة وسوريا) على أنّه فشل من جانبه في ما كان يجب عليه فعله بالنسبة للقضايا الأساسية في المفاوضات؛ فكل طرف كان ينظر إليه بأنه طرف تنقصه الإرادة السياسية أو العزيمة.

ومن الأمور التي لا تدعو للدهشة هي أن كل ما يقوله الطرف الإسرائيلي يختلف تمامًا عما يقوله الطرف السوري. ومثال ذلك تفسير كل منهما لوديعة رابين؛ فإسرائيل تؤكد أن رابين في عام 1993 قد قام بإيداع شهادة فرضية وشرطية تضمنت فكرة التبادل بالانسحاب من الأراضي المحتلة في الجولان في مقابل قبول سوريا لمتطلبات إسرائيل المتعلقة بالأمن وتطبيع العلاقات في سياق منظومة للسلام. ولقد تضمنت هذه الصيغة جدولاً على مدى خمس سنوات وتطبيقًا مرحليًا يتسم بدرجة عالية من التطبيع الممكن من الجانب السوري مقابل انسحاب محدد للمرحلة الأولى. ومن وجهة النظر الإسرائيلية فإن تعبير رابين عن رغبته في الانسحاب إلى خطوط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967 لم يكن التزامًا مطلقًا وغير مشروط. وبالرغم من كل ذلك فإن سوريا تفسر هذا التعهد من جانب رابين كالتزام ثابت بالانسحاب الكامل إلى خطوط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967 والتي يقول السوريون إنه تم التصريح به من خلال المتحدث الأمريكي والإسرائيليين مباشرةً.

وعلى الرغم من الاعتراف بالدور الضروري للولايات المتحدة كوسيط نزيه، إلا أن كلاً من الإسرائيليين والسوريين أشاروا إلى أن الولايات المتحدة ارتكبت العديد من الأخطاء أثناء المفاوضات ولم تقم بدور فعال. وتشير كل من سوريا وإسرائيل على وجه الخصوص إلى انعدام القيادة والعزم على تتبع فرص في المفاوضات في مراحل أساسية مهمة (على سبيل المثال عندما صرح رابين

بوديعته المذكورة أعلاه في آب/أغسطس عام 1993 وتشرين الثاني/نوفمبر 1995 عندما كان شيمون بيريز رئيسًا للوزراء. فلقد وصلت المباحثات إلى طريق مسدود وكذلك في آذار/مارس عام 2000 في مؤتمر القمة بين كلينتون وحافظ الأسد الذي انتهى فجأة). وفي العام 2008، بعد أن كفّت إدارة بوش عن لعب هذا الدور النزيه، اتّجهت أنظار كل من سوريا وإسرائيل إلى تركيا، حتى تلعب هذه الأخيرة دور الوسيط.

وأما محادثات الكواليس الخلفية من خلال وسطاء بين سوريا وإسرائيل أثناء ولاية رئيس الوزراء نتنياهو فلقد أحرزت بعض التقدم، إلا أنها لم تؤد إلى نتيجة ناجحة وتركت كل جانب يشك في نوايا الجانب الآخر. ومع ذلك فقد تحقق الكثير من التقدم في المحادثات الإسرائيلية السورية منذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 وبعد التفاوض على أمور أساسية كالأرض والسلام والأمن والمياه والعلاقات المتداخلة لهذه العوامل.

خطر استمرار الوضع على ما هو عليه

بينما يكون النقاش حول الماضي في هذا السياق وثيق الصلة بموضوع المفاوضات إلا أن التحدي الأساسي يكمن في الكيفية التي يمكن بها استئناف المفاوضات بين سوريا وإسرائيل. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما إذا كانت الحكومة الإسرائيلية راغبة وقادرة على التوصل إلى اتفاق مع سوريا، ويتم هذا الاتفاق على أساس الانسحاب الشامل. غير أن الجانب الآخر من هذه المعادلة هو ما إذا كان بشار الأسد راغبًا في التقدم بصفقة شاملة كاملة تجعل من الاتفاق اتفاقًا مقبولاً من الناحية السياسية من جانب الطرف الإسرائيلي، آخذين في الاعتبار خبرات المفاوضات السابقة.

إن معظم المراقبين لا يتوقعون حربًا بين سوريا وإسرائيل على المدى القصير إلا أن الخطر يتزايد إذا لم يصل الطرفان إلى تسوية. فنجد مثلاً أن

استمرار الوضع على ما هو عليه يمكن أن يؤدي إلى تنشيط الجبهة بين حزب الله المدعوم من الدولة السورية وإسرائيل على الحدود اللبنانية. وفي أسوأ الحالات يمكن أن يجر هذا الوضع دولاً عربية أخرى إلى الصراع. فالنزاع حول منطقة مزارع شبعا على الحدود اللبنانية السورية يمكن أن يعد مثالاً عن حالة التأزم الحالية في المنطقة التي لا تعدو أن تكون مساحتها عشرة أميال مربعة من الأرض الخضراء التي تروى نتيجة ذوبان الجليد والمتاخمة للحدود مع سوريا ولبنان وإسرائيل والتي استولت عليها إسرائيل في حرب الستة أيام عام 1967. وعلى الرغم من الالتباس الظاهر حول الحدود حيث إن كلاً من سوريا ولبنان يدعيان ملكية لبنان لها والتي لم تكن طرفًا في الحرب ويجب بالتالي إعادتها إلى لبنان. غير أن إسرائيل تؤكد أن هذه الأرض جزء من مرتفعات الجولان وقد استولت عليها من سوريا في الحرب وترفض التخلي عنها وعن مصادر مياهها الغنية وإرجاعها إلى لبنان. وقد أصدرت الأمم المتحدة عدة قرارات تشكك في ادعاءات إسرائيل. ولقد استغل حزب الله احتلال إسرائيل لمزارع شبعا كمبرر كبير لهجماته المتكررة والمستمرة على إسرائيل. وحيث إن النزاع لم يحسم فإنه يظل مصدرًا محتملاً لتفجر صراع في المنطقة.

هذا المأزق، بالإضافة إلى سوء الفهم والشكوك سيؤدي إلى زيادة تأجج وتفاقم الوضع. وستقع الحكومة الإسرائيلية تحت ضغوط متزايدة وإنفاق مواردها الضرورية، وذلك في محاولة للإبقاء على تفوقها التكنولوجي في الميزان الإقليمي العربي والتعامل مع أنظمة الدفاع الصاروخي من طراز "آرو" وما يستجد من تطور في هذا المجال. وعلى الرغم من القيود الاقتصادية الخطيرة وغياب الراعي السوفياتي السابق لسوريا فإن هذا البلد سيقع تحت إغراء السير في الاستحواذ على العتاد الحربي لتحديث بنية قوته وتطوير أسلحة أكثر للدمار الشامل (فسوريا لديها برنامج طويل الأمد للأسلحة الكيميائية والبيولوجية).

وبالنظر إلى الأنظمة التي يمكن لسوريا أن تستخدمها مع هذه الأسلحة (صواريخ أرض أرض) فإن موقفًا مثل هذا سيعمل على زعزعة الاستقرار.

وتخشى سوريا من تدمير أنظمة أسلحتها في ضربة إسرائيلية أولى ومن ثم سيكون لديها دافع قوي لاستخدامها عوضًا عن فقدانها. وسيصل الإسرائيليون إلى نفس النتيجة ويكون لديهم الحافز القوي للهجوم أولاً، وذلك قبل أن تستخدم سوريا أسلحتها وهذا بالطبع سيكون المثل الكلاسيكي للشك والتوتر والتصعيد الذي نجده في أدبيات سباق التسلح.

وباختصار، فمن وجهة النظر العسكرية نجد أن هناك نافذة لعدم الاستقرار في العلاقات الاستراتيجية بين البلدين. ويمكن لهذا الوضع أن يتفاقم وذلك من جراء العنف المتزايد على الأرض وخاصة تلك الأعمال التي يقوم بها حزب الله على الحدود الشمالية.

فرص المستقبل والآمال المتوقعة

إن استئناف المفاوضات وتحقيق معاهدة نهائية للسلام بين سوريا وإسرائيل يتطلب إرادة سياسية قوية من جانب كل الأطراف. وفي هذا المسار فإن إرث المفاوضات السابقة ـ التفاهمات التي تم التوصل إليها والدروس المستفادة من الأخطاء الماضية ـ يمكن أن تكون مرجعًا للمفاوضات الجديدة. ويبدو أن هناك أرضية مشتركة كافية لأن توفر نقطة انطلاق لمفاوضات جديدة. ولقد كان إيهود باراك الذي علق أهمية استراتيجية كبيرة على اتفاق سوري إسرائيلي، ألمح أن صيغة رابين الافتراضية للانسحاب إلى خطوط الرابع من حزيران/يونيو عام 1967 يمكن أن توضع على طاولة المفاوضات مع تعديلات معينة. ويشمل شريطًا من الأرض يكون بمثابة طريق موسع في الأساس على طول الخط الساحلي لبحر الجليل [بحيرة طبرية] الأمر الذي يوفر للإسرائيليين الوصول الحر الكامل لمياه الجليل.

وعُقِد اجتماع في جنيف في آذار/مارس 2000 تم إعداده على عجل، وذلك لنقل أفكار باراك، إلا أنه انتهى بالفشل بسرعة لأن حافظ الأسد كان قد توقع أن

الولايات المتحدة تفهمت متطلباته لالتزام واضح من باراك بالنسبة لصيغة رابين وديعته وليس فقط لتقديم مقترح باراك. ولقد أسند فريق التفاوض لكلينتون إدارة هذه القمة لعدم القيام بالاستعدادات الكافية، وبدون استعراض لموقف الولايات المتحدة أو تقديم مقترح للتقريب بين وجهات النظر والتصدي لمطالب الطرفين، وهي لفتة أمريكية كان يتوقعها الأسد من لقاء قمة كان الهدف منه التوصل إلى سد الثغرات بالنسبة للقضايا الأساسية. هذا علاوة على أنه كان من الصعب جدًا على الأسد أن يرفض على الفور اقتراحًا أمريكيًا يقدمه رئيس الولايات المتحدة، إلا أن البعض كان يجادل بالقول إن مرض الأسد الأخير كان سببًا دعاه إلى عدم الاهتمام بإنهاء الصفقة في جنيف وكان منشغلًا بتمهيد طريق ابنه لخلافته في رئاسة الجمهورية.

لقد جاء حافظ الأسد إلى جنيف يصحبه فريق من السياسيين والدبلوماسيين والأمنيين. وبالنظر إلى قدرته السياسية على أن يصل بسوريا لتوقيع صفقة مع إسرائيل فإن خلافة ابنه كانت قد تأكدت أكثر بالقياس إلى موته في غياب اتفاقية يكون قد توصل إليها، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار انعدام خبرة ابنه في أمور السياسة والدبلوماسية. وما حصل عليه الأسد في جنيف لم يكن سوى موقف باراك، وبرأيه، هذا أمر يمكن أن يقوم به سفير أو مبعوث خاص أو وزير خارجية في دمشق.

وبعد موت الأسد كرر بشار الأسد قول أبيه "الخيار الاستراتيجي للسلام" والمبني على الأرض مقابل السلام واسترجاع الأراضي السورية التي احتلت في عام 1967 وصولاً إلى الحدود الدولية. وفي مقابلة صحفية أجرتها معه صحيفة الشرق الأوسط في شباط/فبراير 2001 صرح بشار قائلاً: "ما طالب به الأسد هو ما أطالب به، لم أحذف أو أضيف أي شيء، فالحقوق السورية لم تتغير والشارع السوري صاحب هذه الحقوق لم يتغير كذلك. ولم يقم حافظ الأسد بتنازلات بالنسبة للحقوق السورية ونحن في سوريا لم ولن نقوم بأي تنازلات في المستقبل... نحن نخبر كل من نقابلهم أن هذه هي شروطنا ومهما

كان من يقابلهم يستمع إلى نفس المقولة. فنحن مستعدون للاستمرار في المفاوضات معهم. ونحن نتعامل دائمًا مع الحقائق وليس التوقعات".

من الواضح أن ملاحظات بشار الأسد كانت تتسم بالحزم وكان مصرًا على الاستمرار قويًا من موقعه كما كان يشير إلى أن الكرة في الملعب الإسرائيلي. وأتذكر أنني قلت لوالد بشار إنني أكتب كتابًا عن مبادئ الدبلوماسية السورية، فما كان من حافظ الأسد إلّا أن قال:"هل لديك الوقت؟"ثم أردفت قائلا: إنّه سيكون كتابًا موجزًا - صفحة واحدة وجملة واحدة "الكرة في ملعبكم". فضحك ولم ينكر ما قلته. وعلى أي حال فإن الولايات المتحدة في وقت مناسب يمكنها أن تلعب دورًا أساسيًا في تسهيل استئناف المفاوضات والوصول إلى نتيجة إيجابية. وللاضطلاع بهذا الدور فإن القيادة الرئاسية والالتزام والدعم لجهود الولايات المتحدة في هذا المجال أمر مهم للغاية.

والقواعد الأساسية لأي تسوية هي قرارا الأمم المتحدة 242 و338. وهذان القراران يتضمنان عدم السماح باستمرار احتلال الأراضي بالقوة وعن طريق الحرب، كما أنّهما يدعوان للاعتراف المتبادل واحترام السيادة وسلامة أراضي كل الدول في المنطقة وحق كل الدول في العيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها. ولقد فسر السوريون هذين القرارين على أنّهما يتطلّبان من الإسرائيليين الانسحاب من الأراضي السورية المحتلة عام 1967، إلا أن الإسرائيليين يطالبون بتعريف واضح للسلام وتطبيع العلاقات وترتيبات الأمن والوصول إلى المياه.

مجموعة دراسة الدور السوري في العراق

كان تقرير مجموعة بيكر هاملتون ينص على الأعمال التي يمكن أن تقوم بها سوريا للوصول إلى اتفاقية سلام قابلة للحياة، وأنّ هذا السلام المتفاوض عليه لا بد من أن يتضمن العناصر الآتية:

- التزام سوريا الكامل بقرار مجلس الأمن رقم 1701 الذي أُقرّ في آب/أغسطس 2006 والذي يوفر إطارًا للبنان لاستعادة كامل سيادته على أراضيه.
- تعاون سوريا الكامل في التحقيق في حادث اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري الذي تشرف عليه لجنة الأمم المتحدة والمحكمة الدولية التي وافق عليها مجلس الأمن.
- توقف سوريا عن مساعدة حزب الله والتحقق من ذلك .
- توقف سوريا عن استخدام أراضيها لنقل الأسلحة الإيرانية إلى حزب الله والتحقق من ذلك .
- استخدام سوريا لنفوذها مع حماس وحزب الله للمساعدة في إطلاق سراح الجنود الإسرائيليين.
- توقف سوريا عن زعزعة الحكومة اللبنانية المنتخبة ديمقراطيًا والتحقق من ذلك.
- التوقف عن شحن الأسلحة من سوريا أو عبرها إلى حماس والجماعات الأصولية الأخرى والتحقق من ذلك.
- التزام سوري بالمساعدة في الحصول من حماس على اعتراف بحق إسرائيل في الوجود.
- العمل على مراقبة الحدود مع العراق وإحكام السيطرة عليها.

وفي مقابل كل ذلك وفي سياق التوصل إلى اتفاق سلام نهائي لا بد من أن تعيد إسرائيل مرتفعات الجولان مع ضمان للأمن الإسرائيلي يمكن أن تقدمه الولايات المتحدة في شكل قوى دولية على الحدود تشمل قوات أمريكية إذا طلب منها الطرفان ذلك.

سلام إسرائيلي سوري

إن التقدم على المسار السوري الإسرائيلي لا يجب أن يستغل كمبرر لعرقلة التقدم على المسار الإسرائيلي الفلسطيني، والعكس صحيح أيضًا. ومن ثم فإن هذا المبدأ لا بد وأن يكون واضحًا في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. ولقد كان المنحى الذي اتخذه مؤتمر السلام في مدريد ينص على تقدم كل مسار ثنائي بالسرعة التي تناسبه، هذا بالترافق مع المسارات المتعددة الأخرى بطريقة مماثلة، وذلك للتعامل مع القضايا الأساسية مثل قضايا السيطرة على السلاح والأمن واللاجئين والبيئة والتطور الاقتصادي والمياه. إلا أن هذا المنحى العام الشامل والهيكلي كان قد تخلت عنه الأطراف بعد ذلك.

ولعل الأفكار التالية يمكن اعتبارها كوسيلة لاستئناف المفاوضات ورفع سقف نجاح هذه المفاوضات حتى يتوصل الجانبان إلى توقيع معاهدة سلام.

- لمساعدة الأطراف على الرجوع فإن الولايات المتحدة يمكنها أن تقدم سلسلة من التساؤلات لكل من سوريا وإسرائيل حول:

أ) رغبتهم في النظر إلى تجربة المحادثات السابقة والبناء عليها مع الأخذ في الاعتبار دور الولايات المتحدة في هذه المفاوضات.

ب) أوجه مواقفهم بالنسبة للقضايا الجوهرية قيد البحث والتفاوض (مثل الانسحاب وترتيبات الأمن، وطبيعة السلام، والمياه، والعلاقات المتداخلة لهذه القضايا مع بعضها البعض).

- الهدف من هذه الأسئلة هو توضيح مواقف الأطراف المشاركة، وذلك لتحديد أجندة ومحتوى المفاوضات. ويجب تبادل هذه المواقف بين الأطراف المعنية (مباشرة أو بأسلوب غير مباشر) للتقليل من انعدام الثقة والشك وذلك من خلال شفافية السياسة. ويمكن أن تأخذ هذه الأسئلة شكلاً معينًا ألا وهو، "ماذا لو".

ولقد طُبّق هذا المنحى في الماضي وربما كان مفيدًا على صعيد تقدم محادثات عام 1993 و1994.

- هناك بديل ممكن وهو: إذا كانت الخلافات قد ضاقت فإن الإجابات على هذه الأسئلة أو التوضيحات يمكن أن تكون أساسًا لوضع مسودة لنص تفاوض واحد. يمكن أن يشكل أساسًا للمفاوضات ويمكن أن يكون هذا النص مفيدًا حيث إنه سيكون مبنيًا على إرث خبرات وتجارب المفاوضات السابقة مع تضمنه أفكارًا جديدة وتأكيدات من كلا الجانبين. ويكون رد الجانبين في شكل اقتراح بعض التعديلات والمراجعات وما إلى ذلك. واستخدام هذا النص كأساس للمفاوضات المستقبلية يمكن أن يؤدي إلى عملية تتسم بالتركيز الكبير.
- يجب استئناف المفاوضات على المسار اللبناني الإسرائيلي في نفس الوقت الذي تدور فيه المفاوضات مع السوريين، وعلى الأطراف المعنية القيام بجهود مستدامة، وذلك في محاولة للتوصل إلى أتفاق إسرائيلي لبناني وإسرائيلي سوري شامل.
- كوسيط نزيه يتوجب على الولايات المتحدة أن تستهل عملية توضيح المواقف من خلال طرح أسئلة مثل "ماذا لو"، تتعلق بترتيبات الأمن بين الفرق المعنية بالأمن والشؤون العسكرية والتي تشمل خبراء في هذه المجالات. فهذه المحادثات يجب أن تشمل النظر في الشروط التي توضع للترتيبات الأمنية وذلك قبل التوصل إلى الاتفاق النهائي. ويمكن أن تشمل أيضًا مناقشات لقضايا أخرى ترتبط ببحر الجليل [بحيرة طبريا].
- يجب على الولايات المتحدة أن تكرر رغبتها في ضمان أي ترتيبات أمنية على هضبة الجولان التي يتفق عليها وذلك إذا طلب الفرقاء ذلك.

- يجب على الولايات المتحدة تنسيق الجهود مع الدول الأخرى داخل وخارج المنطقة وتستخدم هذه الدول نفوذها مع الأطراف المتفاوضة لتنمية "دوافع" يمكن أن توفر حوافز إضافية للتفاوض والوصول إلى اتفاق.
- يجب على الولايات المتحدة أن تقوم باستمالة القادة الإسرائيليين والسوريين للانخراط في الدبلوماسية العامة والمقابلات الصحفية والتصريح ببيانات للمساعدة في زيادة الثقة في كلا البلدين وتسهيل استئناف المفاوضات. والأكثر أهمية من ذلك، يجب على الطرفين تجنب الإدلاء بتصريحات من شأنها أن تعيق فرص استئناف المفاوضات والوصول إلى تسوية؛ وعلى كل جانب أن يقدم بيانًا مهمًا لتسهيل المفاوضات. فعلى سبيل المثال يمكن لإسرائيل أن تقدم بيانًا يفيد بأن مبدأ الأرض مقابل السلام ينطبق على الجولان وأنه إذا ما توفرت حاجات إسرائيل للأمن فإنها على استعداد للتنازلات المؤلمة التي يجب أن تنظر إليها بعين الاعتبار.
- بالإضافة إلى كل ذلك فإنه يمكن لإسرائيل أن تعترف بأن إرث المحادثات والمفاوضات السابقة يمكن أن يكون أساسًا مقبولاً لتجدد المفاوضات وأن كل الخيارات متاحة بما فيها الانسحاب الكامل في مقابل سلام وأمن كاملين. كما أن إسرائيل يمكنها التصريح بأن القضايا التي نوقشت في الماضي تحتاج إلى المزيد من المناقشات والتوضيح. وبالمثل يمكن للقيادة السورية أن تكرر القول للشعب الإسرائيلي بأن سوريا اتخذت خيارها الاستراتيجي للسلام الشامل مع إسرائيل إلا أنها تعترف بالحاجة إلى اتفاق يتضمن "علاقات كاملة وطبيعية" وأن الحاجات الأمنية لكل طرف يجب التصدي لها كاملاً في هذا الاتفاق.
- يجب أن يتبع التسوية الإسرائيلية سلسلة من الإجراءات السياسية

والاقتصادية. وكمقدمة يمكن لهذه المحادثات أن تنخرط فيها كل من الولايات المتحدة والمجتمع الدولي وكذلك دول الخليج التي يمكنها أن تبدأ وتشجع مثل هذا الاستئناف للمفاوضات.

- لتعزيز الثقة وللتقليل من سوء التصورات يجب تشجيع الأطراف على الانخراط في نقاشات مباشرة وغير رسمية، علاوة على الاجتماعات التي يمكن أن تكون بمثابة تكملة للمفاوضات؛ والمثال على ذلك: السماح بالمزيد من الإيضاحات والتعليقات بالنسبة لأسئلة مثل "ماذا لو".
- وأخيرًا يجب على الولايات المتحدة أن تكون على استعداد لتقديم مواقف وتقريب وجهات النظر والتوسط وذلك بالنسبة للقضايا الأساسية في المراحل الحرجة للمفاوضات وأن يكون هذا التدخل في الوقت المناسب.

لبنان

يجب أن يقود التقدم على المسار الإسرائيلي السوري إلى الحركة قدمًا على المسار الإسرائيلي اللبناني، والاعتبار الذي تضعه الولايات المتحدة نصب أعينها يجب أن يكون على أساس محدود وألا تكون الاتفاقية الإسرائيلية السورية على حساب الاستقلال السياسي للبنان وسيادته وسلامة أراضيه.

وبالانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام 2000 تكون هناك قضية أساسية قد حسمت بين الدولتين، وباستثناء منطقة مزارع شبعا على الحدود لن يتبقى هناك أي قضايا أخرى ترتبط بالمفاوضات الإسرائيلية اللبنانية، وتتركز هذه القضية في موضوع إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين. فلبنان يصرّ على أن هؤلاء يجب إعادة توطينهم في مكان آخر خشية أن يسبب وجودهم المستمر مشاكل سياسية داخلية أخرى وصراعًا وعدم استقرار في لبنان. فأحداث عام

2007 تعد شاهدًا على ذلك عندما تسللت إلى داخل المخيمات جماعات تتبع تنظيم القاعدة كجماعة فتح الإسلام في مخيم نهر البارد في الشمال اللبناني.

وفي مقال عنوانه "من إدارة الصراع إلى حل للصراع" كنت قد كتبته في مجلة "الشؤون الخارجية" عام 2006، صرحت أن الحرب في لبنان في هذا الصيف قد سببت تحديًا أساسيًا لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، إلا أنها في نفس الوقت أعطت للأمريكيين الفرصة للتحرك من إدارة الصراع إلى حل للصراع. وكان يجب على الولايات المتحدة أن تنتهز هذه اللحظة لتحويل وقف إطلاق النار بين حزب الله والإسرائيليين إلى خطوة نحو حل لتسوية هذا الصراع. ولعل القيام بمثل هذا العمل يمكن أن يكون قد سهل تهميش القوى الأصولية الإسلامية وثبّت العلاقة بين إيران وسوريا وعزز من فرص الأمن الإقليمي والتقدم السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

لقد أثبتت مواجهات حزب الله مع إسرائيل ما كان يجب أن يكون واضحًا بدرجة تدعو إلى الألم أمام الجميع. فليس هناك حل عسكري للصراع العربي الإسرائيلي، وحتى إسرائيل لا يمكنها أن تحقق الأمن وذلك من خلال تفوقها العسكري. فالأمن لا يمكن تحقيقه بالقوة فقط أو الانسحابات الأحادية من الأراضي المحتلة، كما لا يمكن لحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي تدمير إسرائيل. فالسلام يأتي فقط نتيجة الاتفاقيات التي يمكن التفاوض بشأنها والتي يلتزم بها الأطراف المعنية.

وربما يكون حزب الله قد أشعل الشرارة الأولى التي انطلقت على أثرها المواجهة، إلا أنها لم تكن السبب الأصيل. فالقتال جاء نتيجة لعدم حل الصراع العربي الإسرائيلي وتوابعه بين قوى الاعتدال وقوى التطرف داخل العالم الإسلامي، وهما قضيتان مرتبطتان باستغلال المتطرفين لهذا الصراع لتحقيق أهداف سياسية خاصة بهم. ويجب على سياسة الولايات المتحدة أن تركز على كليهما وذلك بهدف تعزيز تسوية سلمية لهذا الصراع ومساعدة المعتدلين

الإسلاميين وذلك بالعمل على تسهيل الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي في عموم منطقة الشرق الأوسط.

حرب إسرائيل وحزب الله عام 2006

برزت الأزمة بين حزب الله وإسرائيل على الحدود الإسرائيلية اللبنانية وسط بيئة يسودها التوتر. ففي 25 حزيران/يونيو اختطفت حماس جندياً إسرائيلياً الأمر الذي أدى إلى إشعال نار الحرب والمصادمات على الجبهة الإسرائيلية الفلسطينية. وعندما اختطف حزب الله جنديين إسرائيليين في الثاني عشر من تموز/يوليو كان هذا قد عجل من صدور رد فعل قوي في إسرائيل الأمر الذي لم يكن يتوقعه حسن نصر الله قائد الحزب باعترافه هو نفسه. واستمرت الحرب بين الجانبين ثلاثة وثلاثين يومًا، وقد أدّت إلى عدة غزوات داخل الأراضي اللبنانية وإطلاق ما يقارب 4000 صاروخ. ولقد كان نتيجة هذا القتال دمار كبير وقتل الكثير من اللبنانيين (855 قتيلاً لبنانيًا و159 قتيلاً إسرائيليًا). هذا علاوة على نزوح الكثير من الناس على حدود كل من لبنان وإسرائيل. ولقد كانت خسارة لبنان كبيرة إذ قدر الدمار الذي لحق بالاقتصاد والبنية التحتية بأكثر من 3.9 بلايين دولار كما وصلت خسارة إسرائيل إلى بضعة ملايين من الدولارات.

وعندما بدأت الأعمال العدائية دعت الأسرة الدولية إلى الوقف الفوري لإطلاق النار، إلا أن إدارة بوش نأت بنفسها عما حدث ودعت إلى "وقف ثابت للنيران". ولقد تركت إدارة بوش انطباعًا قويًا بأن الولايات المتحدة أعطت لرئيس الوزراء الإسرائيلي وقتًا لإلحاق الأضرار الكبيرة لبنية حزب الله التحتية ولأفراد قوات حزب الله بينما كانت الإدارة تعرف جيدًا أن كلاً من إيران وسوريا قد دعمتا حزب الله وأمدّتاه بالغذاء والمال، ولم يتم التغاضي عن خطر توسّع الصراع في المنطقة.

وتدخّل المجتمع الدولي وذلك في محاولة لإعادة الاستقرار إلى جنوب

لبنان ووقف تصعيد الصراع. ولقد كان لقرار مجلس الأمن رقم 1559 عام 2004 الذي دعا إلى انسحاب القوات السورية وتجريد حزب الله من سلاحه أثر في التدخل الذي سارعت به الأسرة الدولية. أما قرار المجلس رقم 1701 والذي أجيز في الحادي عشر من آب/أغسطس 2006، فيشير إلى انسحاب القوات الإسرائيلية ووجود قوة من الأمم المتحدة والتزام من حكومة لبنان بفرض سلطة الدولة على أراضيها، كما كان القرار يشير إلى الاقتراحات التي قدمت بخصوص منطقة مزارع شبعا. وبمعنى آخر يمكن أن نقول إن هذا القرار يوفر الإطار اللازم لدعم حكومة لبنان تنمويًا وتطبيق خطة بيروت لاستعادة سيادة الدولة على كل لبنان.

إلا أن الحاجة العاجلة لبرنامج خارجي يساعد لبنان على الاستقرار كان من المفترض أن يتم، فهذا البرنامج يحتاج لأن يشمل اتفاقًا تامًا وشاملاً لوقف إطلاق النار والإفراج عن الرهائن الإسرائيليين والمسجونين وكذلك العرب علاوة على صفقة مساعدات دولية تشمل مساعدات اقتصادية وإنسانية وأمنية، وعلى خططٍ واقعية لإعادة نشر الجيش اللبناني بكامله في جنوب لبنان ونزع سلاح حزب الله والحد من شحنات الأسلحة التي تصل إلى لبنان. كما كان يجب أن تشمل حلاً للخلافات التي تتعلق بالسيادة والسيطرة على مزارع شبعا. ولعل التطبيق الناجح لمثل هذا البرنامج الذي يهدف إلى الاستقرار في لبنان كان يمكنه أن يمد يد المساعدة لحسم التوترات الحالية علاوة على أنه يوفر الأساس للتحرك إلى الأمام في مفاوضات اتفاق لبناني - إسرائيلي وذلك في سياق التسوية الشاملة.

ويمكن لسوريا أن تكون مساندًا ومسهلاً في نفس الوقت. فنظام الأسد يمكن أن يقضي على ترتيبات الأمن في جنوب لبنان كما يمكنه أن يعيق التقدم في العراق ويستمر في دعمه لحزب الله والجهاد الإسلامي والجماعات الأصولية الأخرى من أمثال حماس، إلا أن النظام السوري يمكنه أيضًا أن يلعب دورًا قويًا في المنطقة، وهذا احتمال وإمكانية يمكن استكشافها.

والمشكلة الأساسية بالنسبة للجبهة الشمالية لإسرائيل هي حزب الله وعجز الحكومة اللبنانية على ممارسة سلطتها على عموم البلاد وبسط قبضتها على التراب اللبناني. وحيث إن سوريا تسهل لحزب الله حصوله على الأسلحة والدعم المادي فإن أي حل دائم في جنوب لبنان يتطلب من سوريا أن تنخرط في كل ما تقوم به من أعمال. وبالنظر إلى العلاقة التاريخية الخاصة بين كل من سوريا ولبنان فإن دمشق لا تريد أن تشهد أي صفقة منفصلة بين بيروت والقدس. وعليه، فإن مساري التفاوض لكل من سوريا ولبنان يجب أن يستمرا منفصلين ولكن متوازيين.

العامل الإيراني

إذا كانت سوريا عاملاً ميسرًا لحصول حزب الله على السلاح والمال، فإن إيران هي الراعي الأيديولوجي والسياسي والمالي الأساسي، وحزب الله لا يعدو أن يكون إلا حزبًا لبنانيًا شيعيًا نبت في لبنان وله جذوره؛ فهو حزب سياسي ويتبعه ميليشيات تحت إمرته. فنصر الله والحزب يبتان في القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية ويقومان على إدارة الحزب وشؤونه بأنفسهم وذلك بما يشمل القرارات التكتيكية بالنسبة للعمليات العسكرية ضد إسرائيل. إلا أن مجموعة حزب الله تعترف بالسلطة الدينية والسياسية للزعيم الروحي آية الله علي خامنئي، وذلك فيما يتعلق بالعقائد والقضايا الاستراتيجية، وعليه فإن أي اتفاق دائم في جنوب لبنان لا بد وأن تنخرط إيران في إقراره.

لقد كان هناك مناحٍ أساسية متعددة بالنسبة لمفاوضات السلام العربية الإسرائيلية. وقد كانت مقترحات قام على تقديمها الفرقاء على مدى السنوات العديدة، إلا أن استحسان أي منحى من هذه المناحي أو الأساليب التفاوضية يعتمد بدرجة كبيرة على الموقف العام على الأرض في المنطقة، وكذلك الموقف

العام في كل دولة؛ هذا علاوة على الموقف السياسي للمجتمع الدولي وخاصة الولايات المتحدة، ونستعرض هنا ثلاثة مناحٍ.

اليد الخارجية

كما ذكرنا من قبل، يمكن أن نقول إن أي اتفاق شامل على غرار خطوط ما كان يناقش في كامب ديفيد بين عرفات وباراك وكلينتون ومؤتمر جنيف بين كلينتون وحافظ الأسد كان يتسم بالمراوغة. وطبقًا لمقدمي هذا المنحى يرى مؤيدوه أن ما يحتاج إليه هو يد قوية من الخارج ـ الولايات المتحدة ـ لممارسة القيادة والنفوذ وذلك لاستمالة الأطراف للتوصل إلى اتفاق شامل بالنسبة لقضايا الوضع النهائي. وهذا يتطلب من الولايات المتحدة أن تأتي إلى طاولة المفاوضات بمواقف إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وذلك لتضييق الفجوة بين المقترحات التي تطرحها الأطراف وحثها على التمعن فيها وقبولها. ولكي يكون هذا المنحى فعالاً، لا بد للأطراف المشاركة من النظر إلى الولايات المتحدة "كوسيط أمين".

الأمن الآن والانتظار ليوم أفضل

أما المنحى الثاني والذي يفضله الكثيرون في إسرائيل يترسخ في الاعتقاد بأن الفلسطينيين ليسوا على استعداد للقيام بتنازلات واتخاذ قرارات بالنسبة لقضايا الوضع النهائي. لذلك، فإن أكثر ما يمكن التوصل إليه بالنسبة لقضايا الأمن يجب أن يتوصل إليه الأطراف، وفرضه من جانب واحد إذا دعت الحاجة لذلك. ويجب على الفرقاء أن يعيشوا منفصلين ومنتظرين اليوم الذي قد تتغير فيه القيادة وتغيير الأجيال فيتم إغلاق باب المناقشة حول قضايا الوضع النهائي.

لقد اقترح باراك بأن إجراءات الفصل الجبرية التي وضعتها حكومته كنتيجة للعنف مؤخرًا، يمكن أن تدوم "إذا لم يكن هناك شريك في الجانب

الآخر". ولقد خطط لحدود عسكرية بين إسرائيل والمناطق الفلسطينية ولبرنامج يهدف إلى إحلال الفلبينيين والفيتناميين وأجانب آخرين عوضًا عن الفلسطينيين، ولفك ارتباط إسرائيل بالفلسطينيين في مجمع الخدمات والمنافع التي تشارك فيها معهم. ولقد كان شارون جريئًا في خطوته الأحادية الجانب عندما قرر الانسحاب من غزة. وكان هذا المنحى الأحادي الذي سعى إليه في فصل الشعبين قد ثبت أنه صيغة للعراك والخصام والتصادم وعدم الاستقرار، والدليل هو المواجهات التي حدثت مع حماس وفتح في غزة في حزيران/يونيو 2007 والذي كان نتيجة إطلاق صواريخ القسام من جانب الفلسطينيين على أهداف في جنوب إسرائيل. وبينما كان الفلسطينيون متحمسين لتأسيس دولة فلسطينية مستقلة، إلا أن لديهم فكرة مختلفة عن الفصل بين الشعبين بحيث لا تكون إسرائيل طرفًا في السيطرة على الحدود والإبقاء على المستوطنات وترك الفلسطينيين يعيشون في رقعة أرض لا تزيد عن 40% من الأراضي.

اتفاق مرحلي

بما أن الأطراف المعنية حاولت في كامب ديفيد تحقيق اتفاق شامل بالنسبة لقضايا الوضع النهائي وفشلت في ذلك، يعتبر البعض أنه يجب النظر إلى هدف أقل لا يتضمن في هذه المرحلة إنهاء الصراع - والذي أصر عليه باراك - ولا يتضمن اتفاقًا على قضايا الوضع النهائي المتعلقة باللاجئين والقدس. ومن ثم فإنه يمكن أن نضع هاتين القضيتين اللتين تثيران حساسية في مسارات تفاوضية منفصلة ولكنها مستمرة، وذلك بهدف اكتشاف الحلول الوسط. وفي نفس الوقت يتم الوصول إلى اتفاقات على الأرض والأمن والمياه والعلاقات الاقتصادية، ومن ثم يمكن دعم بعض المستوطنات الكبيرة ويصبح المستوطنون أكثر ثقة بوضعهم الحتمي كجزء من إسرائيل. وفي هذا السياق من الأهمية بمكان أن نلاحظ حقيقة مهمة

هنا: فإذا لم يتم تفكيك المستوطنات المنعزلة ودعم المستوطنات الكبيرة فإنه لن يكون هناك انقسام وفصل دائم للأراضي.

فبالنسبة للفلسطينيين، من الضروري أن يزيل أي اتفاق السيطرة الإسرائيلية على حياتهم اليومية، ولقد كانت هذه هي القوة الدافعة للانتفاضة. هذا بالإضافة إلى أن أي فصل لا يجب أن يكون تأديبيًا أو عقابيًا بل يجب أن يتفق الطرفان عليه من خلال المفاوضات ويجب أن يكون في سياق قانوني ويتعلق بتوزيع الأراضي مع إنشاء الدولة الفلسطينية. وسيصرّ الفلسطينيون على أن الأعمال الإسرائيلية الأحادية مثل مصادرة الأراضي وإنشاء مستوطنات جديدة يجب أن تتوقف حتى لا يكون مرور الوقت عاملاً في القضاء على الحقوق الشرعية الوطنية الفلسطينية والمتعلقة بالأراضي. ومن ثم إذا لم يتم تفكيك تلك المستوطنات القائمة على الأراضي الفلسطينية وباستثناء تلك التي ستدعم في أي اتفاق مستقبلي، فإنه يتوجب أن يكون هناك تجميد لكل الأنشطة الاستيطانية بما فيه الأنشطة الاستيطانية في القدس الشرقية.

والفصل بين الإسرائيليين والفلسطينيين يمكن أن يكون ضربة كبيرة للفلسطينيين أنفسهم حيث إن ثلث الدخل القومي معتمد على العمالة الفلسطينية في إسرائيل. هذا بالإضافة إلى أن الصادرات الفلسطينية تعتمد على الأسواق الإسرائيلية بدرجة كبيرة، والاتحاد الجمركي بين إسرائيل والسلطة الوطنية الذي بمقتضاه تدفع إسرائيل ضرائب على البضائع الفلسطينية يعدّ مصدرًا للتمويل بالنسبة للفلسطينيين. وفيما يتعلق بهذا الموضوع فإن إنشاء حدود اقتصادية يمكن أن يكون أمرًا يسبّب الأضرار للفلسطينيين على وجه الخصوص، وأما الحدود الأمنية فهي أمر آخر.

وعلى أي حال، إذا تم التوصل إلى اتفاق مرحلي وبعد أن تتعايش كل من إسرائيل والدولة الفلسطينية المستقلة، فإنه يمكن بذل جهد لإثارة قضايا الوضع النهائي مثل المستوطنات والحدود والقدس واللاجئين.

وبناءً على ما تقدم وفي سياق الاتفاقات الشاملة، فإن الترتيبات الاقتصادية يجب استكمالها، وذلك لتقوية ودعم التطور الاقتصادي الفلسطيني والتعاون والاستقرار في مجالات يجد فيها الطرفان مصالح مشتركة مثل مجال المياه والغاز الطبيعي.

البحث عن سلام عربي إسرائيلي

في السياق العام لأوجه الفشل والنجاح بحثًا عن سلام عربي إسرائيلي وبالإمعان في تاريخ انخراط الولايات المتحدة في المفاوضات العربية الإسرائيلية، تحضرني عدة "دروس مستفادة" ومنها ما يلي:

1. لا تتصرف بسرعة، وإنما تصرف طبقًا لأسلوب يتسم بالتمعن والترابط في إطار سياسة استراتيجية وأفق سياسي.
2. ارجع إلى الإطار الأساسي لمبادئ مؤتمر مدريد للسلام والذي يقتضى أن تكون المفاوضات وجهًا لوجه بين كل من الإسرائيليين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، وحاول أن تنشّط المسار المتعدد الأطراف.
3. تجنب إعطاء المواعيد النهائية وخاصة بالنسبة للأمور التي تغلب عليها المصلحة الذاتية والمنفعة السياسية.
4. لا يجب أن يغيب عن ناظرك الرأي العام و"الشارع" بالنسبة لكل من العرب والإسرائيليين، وحاول أن تتواصل علنًا مع هذه الأطراف وذلك لإعطائهم الشعور بأنك تسير في الاتجاه الصحيح.
5. حاول أن يكون جمهورك من الناخبين على علم بما تفكر فيه الإدارة وذلك في الوقت المناسب، للحصول على دعم الرأي العام الأمريكي.

6. ركز على ما يمكن القيام به وتجنب الذهاب إلى البعيد عندما تجد أنه يصعب عليك تصنيف الفوارق في مواقف الفرقاء.
7. لا تعقد قممًا عندما ينقصك التحضير الكامل لها (كما هو الحال في مؤتمر جنيف في آذار/مارس 2000، وكامب ديفيد في صيف عام 2000).
8. حاول أن تفصل قنوات المناقشة والتفاوض واجعل هذه القنوات منفتحة ونشطة بالنسبة لقضايا الوضع النهائي.
9. نظم فريق التفاوض الأمريكي بأسلوب يتمثّل بإشراف الكبار وبقيادة وزير الخارجية وبحيث يكون هناك تبادل للمعلومات والتنسيق داخل فريق الأمن القومي حتى يتمكن كل من الرئيس ووزير الخارجية التعامل مع كافة الأحداث.
10. تذكر أنه إذا لم يكن رئيس الولايات المتحدة ملتزمًا سياسيًا بالقول والفعل بالنسبة للمفاوضات فلن تلعب الولايات المتحدة دورها كمحاور صالح؛ فالرؤية ليست سياسة.

إطلاق عملية السلام

يعرّف المتطرفون الإسلاميون الصراع مع إسرائيل على أنه صراع وجودي ويستخدمون في هذا السياق اصطلاحات وتعابير تشابه تلك التي كانت تستخدم في المنطقة منذ نصف قرن. أما المعتدلون فيتقبلون إمكانية التوصل إلى تسوية سياسية مبنية على مبدأ الأرض مقابل السلام. فالقصة بمعنى آخر بالنسبة لهم قضية حدود إسرائيل وليست قضية وجود. وتتضمن قرارات مجلس الأمن 242 و338 (التي اتُخذت عام 1967 وعام 1973) هذا المنحى الأخير، وعلى الولايات المتحدة أن تستأنف دورها التقليدي بالضغط لتطبيق هذه القرارات.

بعد حرب أكتوبر عام 1973 قام كل من نيكسون وهنري كيسنجر بجهود قيادية للتوصل إلى اتفاقات فصل القوات بين إسرائيل وسوريا ومصر. وفي عام 1979 بذل جيمي كارتر مجهودًا كبيرًا لجمع كل من مناحم بيغين وأنور السادات للتوقيع على معاهدة سلام بين الدولتين. وفي عام 1991 بذل كل من الرئيس جورج بوش ووزير الخارجية جيمس بيكر جهودًا كبيرة لجمع كل من إسرائيل وجيرانها العرب لأول مرة في مفاوضات مباشرة في مدريد، وترأس الرئيس كلينتون حفل توقيع اتفاقات أوسلو في حديقة البيت الأبيض عام 1993، كما شهد توقيع معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، وبذل مجهودًا كبيرًا في نهاية ولايته إلا أن هذا المجهود لم يؤد إلى توقيع اتفاق، ومع ذلك فلقد ساعد في تحديد ملامح التسوية الإسرائيلية الفلسطينية. وسِجِلّ هذا المسار يثبت بلا مجال للشك أن بالقيادة القوية للولايات المتحدة تتمكن أمريكا من أن تكون محاورًا ووسيطًا فعالاً بين العرب والإسرائيليين.

كانت رؤية الرئيس جورج بوش بالنسبة لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي الشاملة والتي وضع ملامحها في خطابه في حزيران/يونيو عام 2002 والتي تتضّمن دعوته الصريحة لحل على أساس دولتين: دولة فلسطينية تعيش في سلام وأمن بجانب دولة إسرائيل، بمثابة اختراق بكل المقاييس. ولم يكن للرؤية أي تطبيق قوي على الأرض وذلك عقب التصريح بها، ومع ذلك فإن مؤتمر أنابوليس في تشرين الثاني/نوفمبر 2007 كان بمثابة خطوة إيجابية إلى الأمام يمكن البناء عليها في ظل بعض الأفكار والاقتراحات التي أوردتها أعلاه حيث إن هذا الاجتماع يمكن أن يعطي للفرقاء الفضاء السياسي الذي يحتاجونه لاتخاذ قرارات صعبة وحلولاً وسطية وذلك للتوصل إلى سلام متفاوض عليه.

ولعل كل القضايا الرئيسية في الشرق الأوسط ومنها الصراع العربي الإسرائيلي والعراق وإيران والحاجة إلى إصلاحات اقتصادية وسياسية في عموم المنطقة، كلّها ترتبط بعضها بالبعض الآخر. وتبنّي استراتيجية شاملة يمكن أن

يُؤدي إلى حل كل المشاكل وتهميش الأصوليين وتعزيز قيم ومصالح الولايات المتحدة والأطراف الأخرى في المنطقة. لقد قامت واشنطن بشن الحرب على أفغانستان والعراق، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: هل سيستجمع الرئيس الأمريكي قواه وتكون لديه الإرادة السياسية لشن سلام على المنطقة؟

الفصل الثامن

بغداد

لا تتدخّل كثيرًا في شؤونهم... إنّ الحرب قائمة بينهم، وأنت عليك مساعدتهم من دون أن تنحاز لطرف معيّن.

ت. إ. لورانس، 1917

لقد تجاهلت سياسة بوش بعد غزو العراق نصائح عدد كبير من المستشارين العسكريين المهيمنين وأصحاب الخبرة في السياسة الخارجية، وكانت النتائج كارثية.

وكان لدى هؤلاء الذين يديرون دفة السياسة الخارجية الفهم القليل لتاريخ وثقافة وأمور السياسة في هذا البلد إضافة إلى تعقيدات التركيبة الاجتماعية للشعب العراقي والمنطقة بوجه عام.

وكان الحماس الزائد للمفاهيم الإيديولوجية المتجذرة في عدم المعرفة، بالإضافة إلى الغطرسة قد فاق كل التحذيرات التي كان يسديها العالمون ببواطن الأمور والعارفون بالحقائق والدارسون لتاريخ العراق وقد تجاهلت الإدارة كل هذه الأصوات والمعرفة التي يلم بها كل من يعرف الشعب العراقي وثقافته.

ولقد كانت حرب العراق حرب خيارات وليست حربًا ضرورية. كان يتوجب علينا احتواء صدام وعزل نظامه تمامًا كما فعلنا مع معمر القذافي، وكان العالم أجمع يقف بجانبنا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان يمكننا أن نغرق نظام صدام حسين بالعقوبات الدولية الشاملة.

وكما ثبت بعد ذلك، لم يكن هناك أسلحة دمار شامل، وهذه الحرب كانت حربًا لتغيير النظام من الخارج وتخوضها قوات أمريكية إذا دعت الضرورة لذلك، ومجموعة من المحافظين الجدد والذين يدفعهم هوس نشر الديمقراطية بالقوة في عموم منطقة الشرق الأوسط. ولقد كان للمقاربة الخاطئة التي اتبعتها الإدارة الأمريكية نتائج لم تكن مقصودة إلا أن هذه النتائج كلفت الشعب الأمريكي الكثير من الدماء والمال، ومما زاد الأمور بِلّة تفاقم التوترات بين الشيعة والسنة في المنطقة، ونتج عن هذه التوترات تسلل تنظيم القاعدة وإرسائه لقاعدة مهمة للعمليات العسكرية في العراق وتحوّل انتباهنا عن قضايا كبيرة عاجلة مثل أفغانستان وباكستان والصراع العربي الإسرائيلي وعلاقاتنا مع أمريكا اللاتينية والصين وروسيا.

كانت زيارتي الأولى للعراق عام 1967 عندما تجولت في هذا البلد في رحلة استطلاعية للمنطقة مقتفيًا أثر النبي إبراهيم في رحلته من أور حتى كنعان وبدءًا من المشرق حيث كانت مهمتي الأولى كدبلوماسي في بيروت. كنت أعرف أن التاريخ العراقي حافل بالعنف وسفك الدماء إلا أنني شعرت بالصدمة عندما تجولت في ميدان التحرير في العاصمة بغداد ورأيت الموتى بجثثهم المعلقة على أعمدة النور في وسط الميدان. فلقد تم إعدامهم جهارًا مع كتابة طبيعة جرمهم بالعربية على صفحات بيضاء علّقت على أجسادهم؛ لقد كان هذا وقت الانقلابات العسكرية والصراع على السلطة. وفي العام التالي كان هناك انقلاب عسكري قام به حسن البكر زعيم حزب البعث وصدام حسين، الرجل الثاني في سلم القيادة، وتمّ فرض الحكم السلطوي.

وفي عام 1979 استولى صدام على الحكم وفرض سيطرته الوحشية على الشعب العراقي. وأثناء خدمتي في السلك الدبلوماسي في واشنطن وغيرها من الأماكن، كانت سياسات صدام تحتل مساحة كبيرة في المهام التي كانت توكل إليّ والتي شملت الحرب العراقية الإيرانية، وعاصفة الصحراء، والسياسة المسماة بسياسة "الاحتواء المزدوج" لكل من العراق وإيران، وقضايا أخرى ترتبط بأمور الطاقة في الخليج.

وفى عام 1990 عندما كنت سفيرًا لسوريا أثناء الصخب والحراك استعدادًا لعاصفة الصحراء، كنت قد عرفت بكل وضوح أن جورج بوش الأب وجيمس بيكر كانا على اضطلاع تام بالنتائج المحتملة لغزو دولة عربية كالعراق واحتلالها بعد ذلك. ولقد أوضحا بأن الولايات المتحدة ليست قوة استعمارية ولديها صلات هامة مع العالم العربي يمكن أن تتعرض للخطر من جراء هذا العمل. وبناء على ذلك أراد الرئيس أن تكون القوات العسكرية العربية في الطليعة عند دخول مدينة الكويت مع دعم قوي للتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، وهذا هو السبب الذي دعا الولايات المتحدة لشكر كل من سوريا ومصر والأعضاء الآخرين المشاركين في هذا التحالف العسكري. ولنفس السبب قرر كل من بوش ووزير خارجيته بيكر ألا يستمرا في التقدم داخل العراق حتى أبواب بغداد بعدما نجحت القوات في صد غزو صدام للكويت. ولقد كان لهذا القرار الوقع الكبير وساعد بيكر وبوش في الحفاظ على تحالفات الائتلاف الذي صاغته الإدارة الأمريكية وعلى الجهد الذي بُذل في تشكيله، كما عمل هذا القرار على تسهيل هدفهما في الدفع بعملية السلام العربي الإسرائيلي في مؤتمر مدريد عام 1991. ولقد واجه كل من بوش الأب ووزير خارجيته الكثير من الانتقادات الحادة وصوبت نيران المتربصين إليهما لعدم "الانتهاء من صدام حسين"؛ ولقد أثبت التاريخ أن كلاً من بوش وبيكر قد اتّخذ القرار الصائب.

رسم خطوط في الصحراء

بعد مغادرتي لعملي في واشنطن عام 1994 كان العراق يشغل جزءًا كبيرًا من عملي كمدير تأسيسي لمعهد جيمس بيكر للسياسات العامة في جامعة رايس.

وفي الخامس والعشرين من آب/أغسطس عام 1995، وفي محاولة لنقل آرائي بالنسبة للعراق، كتبت مقالاً افتتاحياً في جريدة واشنطن بوست، ورويت فيه الترسيم العشوائي للحدود الذي أقدم عليه الاستعماريون والقوى الكولونيالية في كل من بريطانيا وفرنسا في اتفاق سايكس بيكو عام 1916، وفي الاتفاقات الأخرى التي تمت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وطبقًا لإحدى الروايات، نصح مبعوث أمريكي، المستعرب البريطاني الشهير والمعروف "جيرترود بيل"، والذي كان يعمل لصالح التاج البريطاني على رسم مخطط للمحافظات العراقية قائلاً: "إنكم تتحدون تاريخ أربعة آلاف عام إذا قمت على ترسيم خط حول العراق وتدعونه كيانًا سياسياً". ولقد أشرت في مقالي إلى أن البريطانيين قاموا برسم هذه الخطوط على الأرض لخلق هذه الكيانات. والمثال واضح هنا في الحالة العراقية حيث إن الإنكليز قاموا بتطويق مجموعات متعددة ومختلفة من السكان. فهناك الأكراد في الشمال والغالبية العظمى من السنة في الوسط والشيعة في الجنوب، هذا علاوة على الأقليات الأخرى مثل اليهود والجماعات الكلدانية من المسيحيين. وأشرت أيضًا إلى أن العراق ما زال متعدد الأعراق والملل وتحكمه عشيرة من المسلمين السنة الذين ينحدر منهم صدام حسين في مدينة تكريت. والسؤال الأساسي الذي نطرحه هنا هو ما إذا كانت قوى التوحد أو الانفصال ستسود في أعقاب تغيير النظام. إن المخاطر كبيرة، فتمزيق العراق وتقطيع أوصاله سيكون له نتائج جيوسياسية خطرة في عموم منطقة الشرق الأوسط. وبالنظر لهذا الوضع فلقد أثبتّ في مقالي أن أفضل سبيل للحفاظ على الوحدة وسلامة الأراضي في العراق يكمن في نظام يخلف النظام الصدامي ويوفر أوسع مشاركة سياسية ممكنة لهذا التعدد العرقي والديني السائد في هذا

البلد، آخذين في الاعتبار النتائج الكارثية التي تنجم عن الانقسامات والمخاصمات، وعليه فيجب تقاسم السلطة وسد الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمكونات الشعب العراقي.

كسب الحرب وفقدان السلام

وبعد سنوات تلت، كنت قد شاركت في "مجموعتي دراسة" تركّزان على سياسة الولايات المتحدة في العراق. ولقد كانت المجموعة العاملة الأولى والمستقلة في عام 2003 ويرعاها كل من مجلس العلاقات الخارجية ومعهد بيكر. وطلبت مني "لسلي غيلب"، رئيسة مجلس العلاقات الخارجية أن أشارك في رئاسة هذه المجموعة بالتوافق مع زميلي المقرب وصديقي لعدة سنوات فرانك ويزنر. ولقد نُشر التقرير الموجز الذي قامت على صياغته تلك المجموعة وعنوانه" المبادئ الاسترشادية لسياسة الولايات المتحدة عقب الصراع في العراق"، وظهر هذا التقرير قبل قيام الولايات المتحدة بغزو العراق في مدة لا تتعدّى شهرين عام 2003 واحتوى التقرير على الجدلية الآتية:

> لقد دار الجدل اليوم حول العراق وحول الاستعدادات للقيام بعمل عسكري في هذا البلد، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما الكيفية التي ستعالج بها الولايات لمتحدة والمجتمع الدولي الأمور في عراق ما بعد الحرب؟ وهذه مسألة على درجة كبيرة من الأهمية حيث إن أسلوب إدارة هذا الموضوع سيحدد مصير العراق في المنظور البعيد وسيؤثر على أمور كثيرة في عموم منطقة الشرق الأوسط. فإذا لم تقم واشنطن بتحديد أهدافها في العراق وبناء تأييد ودعم داخلي هي وحلفاؤها وشركاؤها فإنها ستجابه صعوبات كبيرة في المستقبل تحجب أي انتصارات ونجاحات عسكرية. وبالاختصار، فإن الولايات المتحدة تكون قد خسرت السلام حتى لو كسبت الحرب.

ولقد عملت كمستشار كبير للسياسات في المجموعة الأخرى، وهي

مجموعة المهتمين بأمور الدبلوماسية والسياسة، تتألف من أعضاء من الحزبين الديمقراطي والجمهوري ويرعاها الكونغرس كما يرأسها "بيكر" و"لي هاميلتون".

ولقد قدم هذان التقريران توصيات لسياسة قوية ومقنعة يمكن تحقيقها، ولسوء الحظ فإن الموظفين الذين يديرون أمور السياسة في العراق والعاملين في إدارة الرئيس بوش تجاهلوا تقرير 2003 ولم يأخذوا بالهدف الرئيسي لتقرير عام 2006 وتقبلوا مؤخرًا القليل من هذه التوصيات. ولقد أسهمت كل الاستجابات في فشل محاولة بناء وفاق وإجماع من كلا الحزبين وذلك لمعالجة الموقف في العراق، إلا أنني عرفت بعد ذلك أن آراءنا وأفكارنا لم تكن الوحيدة التي طرحت جانبًا ولم تعمل بها إدارة بوش. أما الورقة التي أعدت في عامي 2002 ـ 2003 والتي عالجت القضايا التي ستواجهها الولايات المتحدة إذا ما غزت العراق وما يمكن للحكومة أن تعمله استعدادًا لمواجهة هذه التحديات، فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية. ولقد وضعت بطريقة حازمة توصيات مشابهة للتوصيات التي ذكرت في تقرير معهد بيكر. أهمل كبار الموظفين المدنيين في وزارة الدفاع هذا التقرير أيضًا وذلك لعدم انسجامه وسير الأعمال التي كانوا مصممين على القيام بها في العراق. فهل كل ما قلناه لإدارة بوش في هذين التقريرين قد أعلن عنه جهاراً؟

مبادئ استرشادية للسياسة التي يجب اتباعها بعد غزو العراق

لقد كان الهدف الأساسي لتقرير المبادئ الاسترشادية لعام 2003 هو توفير إطار يمكن الرجوع إليه عند احتلال العراق في حال رفض صدام حسين الإذعان لقرار مجلس الأمن الذي صدر بالإجماع في 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2002 والذي عرض على العراق لإعطائه "فرصة أخيرة للامتثال بالتزام عدم التسلح". ولقد أوضح القرار 1441 أنه في حال رفض صدام حسين الالتزام به وتفكيك برامج

أسلحة الدمار الشامل فإنه سيتعرض لعمل عسكري ضده. وكما عرف جيدًا فيما بعد، لم يعثر على أي أسلحة دمار شامل في هذا البلد بعد الغزو.

ولقد قمنا بحثّ الإدارة على الاطلاع والإلمام بتقييماتنا وتوصياتنا، وقد استجابت وزارة الخارجية لهذه التوصيات التي تحث الإدارة على الإلمام بالشأن العراقي. إلا أن البيت الأبيض ومجلس الدفاع الوطني ووزارة الدفاع لم يفعلوا ذلك. وفي قراءة ما يلي، حيث نجد الكثير من الأمور التي وردت في التقرير، لاحظ أننا تنبأنا بالكثير من المشاكل المهمة التي فاجأت الإدارة فيما بعد.

إرساء حكم القانون والنظام

إن دورًا أمريكيًا قويًا نحتاج إليه لإرساء حكم القانون والنظام، وتحتاج الوحدات العسكرية لكل من أمريكا وقوات التحالف، أن تتحول بسرعة من وحدات قتالية إلى وحدات لحفظ السلام وتبتعد عن العمليات القتالية، وذلك حتى لا ينزلق العراق إلى حافة الفوضى. والدعم الأمريكي القوي أمر ضروري لحكومة طوارئ وذلك لملء الفراغ الذي سيتركه صدام حسين؛ فبدون التزام مبدئي وعريض بحكم القانون والنظام فإن منطق تصفية الحسابات والثأر سيؤدي بالعراق إلى حالة من الفوضى.

الحفاظ على الجيش العراقي

تركيز الجهود الأولية على استئصال الحرس الجمهوري والحرس الرئاسي الخارجي وأجهزة الاستخبارات ومؤسسات نظام صدام في الوقت الذي يتم فيه الحفاظ على الجيش العراقي (مع إقصاء القيادة العليا للجيش والمتهمين بجرائم خطيرة). ويظل الجيش إحدى مؤسسات الدولة الأكثر احترامًا، وأما الكيفية التي يتم بها التعامل مع الجيش أثناء الحملة العسكرية وبعدها مع إزاحة القيادة العليا

فهو أمر من الأمور الرئيسية التي يتوجب على الاستراتيجيين تدبيرها، فالجيش سيشكل ضمانًا للسلم والاستقرار في البلاد إذا ما أبقى عليه بحيث يقوم جزء منه بمهام حفظ الأمن الداخلي والشرطة قبل إعادة تنظيم الجيش، والحفاظ على المؤسسة العسكرية لا بد وأن يكون واضحًا لأن الجيش سيقوم بالمهام الآتية:

- تنظيم الدفاع عن العراق ودعم سيادة القانون والنظام.
- يصبح الجيش بمثابة أداة رئيسية للحكم.
- يتخلص الضباط من ارتباطاتهم مع مراكز القيادة العليا في حزب البعث.
- إزاحة الضباط المتهمين بجرائم كبيرة أو جرائم ضد الإنسانية.
- يتحدد ترقّي الضباط على أساس الكفاءة عوضًا عن الاختلافات والفوارق العرقية أو الطائفية.

منسق العراق

على المنسق الأمريكي للعراق أن يلقى الدعم التام من البيت الأبيض، ويعيّن له نائب لإدارة حملات الدبلوماسية العامة، ويجب أن يتحمل مسؤولية إدارة قوة ذات مهام محددة ويُختار أعضاؤها من كل الوكالات المنوط بها العمل في العراق.

دور الولايات المتحدة

على الولايات المتحدة وحلفائها البدء في وضع أساس لإدارة عراقية تشرف عليها القوى الدولية والأمم المتحدة والتي تتضمن مشاركة دولية قوية مع الأخذ في الاعتبار إعادة الحكم للعراقيين. ويكون الدور الأمثل للولايات المتحدة هو الدور الإشرافي أو المراقبة غير المرئية، وتلتزم الولايات المتحدة بالحفاظ على

القانون والنظام وخلق مجال لحكومة عراقية ناشئة، وأفضل دور يكمن في كونها قوة تقود التقدم وتتأكد من إنشاء قوة فعالة نشطة تستطيع القيام بمهمة الحفاظ على السلام.

المساعدة الإنسانية

ستتأزم الظروف والأحوال المعيشية في العراق بعد الحرب ومن ثم فإن إدارة عمليات المساعدات الإنسانية ستكون أمرًا في غاية الأهمية وذات أولوية عاجلة من قبل المؤسسة العسكرية الأمريكية. ومن أمثلة هذه المساعدات، إصلاح خطوط المواصلات الكبيرة وكذلك وسائل الاتصال. وعلى القوة العسكرية الأمريكية التحرك بسرعة وذلك لتوفير الحاجات الأساسية كالغذاء والماء ومستلزمات الصحة العامة للشعب العراقي.

الخطر الناجم عن فرض الحلول

لقد حذر التقرير أيضًا من الخطر الناجم عن فرض الحلول، مشيرًا إلى أن التعايش المستمر العام حول حكومة عسكرية على نمط الحكومة العسكرية في اليابان وألمانيا بعد الحرب أمر لا يمكن أن يساعد على استتباب الأمن والسلام، ويجب أن نعتبر الشعب العراقي محررًا وليس منهزمًا؛ ومن ثم فإن انخراط الولايات المتحدة في بيئة ما بعد الصراع أمر في غاية الأهمية، إلا أن احتلالاً طويل الأمد لن يكون لمصلحة الولايات المتحدة ولن يلقى التأييد والدعم الخارجيين؛ وبالمثل يجب على الولايات المتحدة ألا تقع تحت إغراء تأسيس حكومة مؤقتة أو تفرض حكومة يسيطر عليها قادة المعارضة الذين عاشوا في المنفى مدةً طويلة، فحكومة مماثلة ستفقد الشرعية الداخلية وتعمل على زعزعة الاستقرار في الداخل. المعارضة الخارجية لها دور هام

تقوم به في تحديد مستقبل العراق إلا أنه يجب النظر إليها كصوت واحد ضمن أصوات عديدة.

أما بالنسبة لقضايا مثل وضع الأكراد والشيعة، فمن الضروري تجنب تكرار الخطأ الذي وقع فيه صدام حسين في محاولته تنظيم عراق على أسس عرقية أو دينية، إذ يتوجب على أمريكا أن تشجّع على قيام عراق موحد في ظل نظام فيدرالي. ودور الولايات المتحدة في هذا السياق هو حث العراقيين على التعاون على أسس إقليمية علمانية عوضًا عن التكتلات العرقية.

سحر النفط العراقي: الحقائق والقيود

في جلسة استماع أمام لجنة الدفاع لشؤون الموازنات في آذار/مارس عام 2003، خرج بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكي بالقول "إن عائدات النفط لهذا البلد يمكن أن تدر ما بين 50 و100 بليون دولار على مدى السنتين أو الثلاث سنوات القادمة. والآن هناك العديد من الاستحقاقات على هذه الأموال ولكننا نتعامل مع دولة تستطيع أن تحاول في واقع الأمر إعادة الإعمار وفي وقت قريب نسبيًا".

وفي ضوء هذه التصريحات أشار تقريرنا إلى أن هناك الكثير من التخمينات بالنسبة للنفط العراقي، وهذا يشمل بالطبع الاعتقاد السائد أن عائدات البترول يمكنها أن تغطي نفقات الحرب ونفقات إعادة بناء الدولة العراقية والاقتصاد العراقي. وبالرغم من قيمة مخزونات العراق الهائلة من البترول إلا أن هناك قيودًا كبيرة على هذه المخزونات، كمصدر للتمويل لعراق ما بعد الحرب وإعادة تعميره وكدافع أساسي للتنمية الاقتصادية في المستقبل. وبالاختصار فإننا لم نتوقع منجم ثراء. فلقد أوصينا باتباع الولايات المتحدة الخطوط العريضة الآتية:

- يستمر العراقيون في السيطرة على قطاع النفط.
- يُنفق جزء كبير من العوائد على إعادة تأهيل وإصلاح صناعة النفط.
- لا بد من أن يسمح للاعبين الدوليين بالمشاركة في إعادة الإعمار والتطوير والتنقيب عن البترول.
- يجب أن يستفيد كل المواطنين العراقيين من عائدات البترول.

جماعة دراسة الحالة العراقية: وجهة نظر من الداخل

لقد كان دوري كمستشار كبير لجماعة دراسة الحالة العراقية قد وفر لي فرصة أن أراجع بطريقة رسمية وبتفصيل كبير سياسة الولايات المتحدة في العراق. ولقد قامت هذه المجموعة بتفويض من الكونغرس وبرعاية أربع منظمات هي: معهد الولايات المتحدة للسلام، ومعهد بيكر للسياسة العامة، ومركز الدراسات الاستراتيجية والدولية، ومركز دراسة الرئاسة. ولم تكن مهمة المجموعة النظر إلى الوراء وتفهم ما صدر من مؤيدي ومعارضي الغزو والاحتلال، وإنما كان الهدف هو التوصية بمسلك لدفع سياسة الولايات المتحدة إلى الأمام، ولذا كانت المجموعة فريدة في طبيعتها وذلك من منطلق احتوائها على أعضاء من كلا الحزبين الديمقراطي والجمهوري. وكان هذا الفريق يضم: الجمهوريين جيمس بيكر (رئيسًا)، ولورانس إيغلبورغر، وأدوين ميس، وساندرا داي أوكونور، وآلان سمبسون؛ والديمقراطيين لي هاملتون (مشارك للرئيس)، وفيرنون جوردان، وليون بانيتا، ووليم بيري، وتشارلي روب.

وفي أول اجتماع للمجموعة قال بيكر: "ما اتفقت عليه أنا وهاميلتون يتلخص في تطلعنا دائمًا إلى الأمام، فنحن لا نريد الانخراط فيما حدث، كما إننا لا نريد أن ننغمس في الماضي، نريد أن نصل إلى قراراتنا بالإجماع وأن نقوم

بفعل شيء يمكن أن يساعد الرئيس والكونغرس والجمهور. نريد أن نكون بعيدين عن السياسة، ولن نساهم بتقريرنا قبل كانون الأول/ديسمبر" (بعد الانتخابات النصفية). وكواحد من المنخرطين على طول الطريق في هذه العملية أستطيع أن أصدق على أن أفراد هذه المجموعة حافظوا على تعهداتهم.

وفي البداية شكر الرئيس جهارًا أعضاء المجموعة وقال: "ننظر إليهم لكي نتقدم إلى الأمام، إننا ننظر إليهم ليقدموا لنا النصح عن الاستراتيجية المناسبة والتكتيكات التي تحقق لنا النجاح، لدينا أناس يمتلكون الكثير من الخبرات والذين كانوا يعملون في عدة إدارات وفي فروع الحكومة التشريعية والقضائية وإني أشكرهم على رغبتهم في خدمة هذه الإدارة".

فرصة فاتتنا

لسوء الحظ لم تقم إدارة بوش بقبول التقرير والعمل بالتوصيات في البداية ومن ثم فلقد فاتتهم فرصة تاريخية للدفع بعراقنا وبسياسة الشرق الأوسط إلى الأمام وذلك على أساس شامل وبعيد عن الحزبية. لقد وفر هذا التقرير للإدارة إجماعًا توافقيًا بالنسبة للمشكلة العراقية في وقت أعطت الانتخابات النصفية للديمقراطيين الأغلبية في كلا المجلسين، كما وفر التقرير لكل من الرئيس والكونغرس أداة لإيجاد أرضية مشتركة بالنسبة للمسألة العراقية، ولقد كانت فرصة فريدة لجمع الكلمة والاتفاق على أهم قضية تجمعنا في مسار السياسة الخارجية. كما عبر رئيسا المجموعة عن ذلك بالقول: "إن من مسؤولية قادة أمريكا السياسيين البحث عن إجماع بعيدًا عن الحزبية بالنسبة لقضايا الحرب والسلام".

وبينما تبنت الإدارة الكثير من الفقرات التي أوردها التقرير، إلا أن السياسة الشاملة التي رسمها التقرير لم تجد آذانا صاغية. ولقد كان الأمل معقودًا على

تبني توصيات التقرير بكاملها وتطبيقها بأسلوب منسجم ومنسّق. فهذه التوصيات لا يجب تنفيذها بمعزل عن الأمور الأخرى التي تجري على الأرض في منطقة الشرق الأوسط حيث إن ديناميكيات المنطقة لها الأهمية بالنسبة للعراق تمامًا مثل الأحداث التي تدور داخل العراق. ولسوء الحظ، بما أن انتخابات عام 2008 على الأبواب، أصبحت القضية تتسم بالحزبية المريرة.

ولقد كان ذلك أمراً مخيبًا للآمال وذلك في ظل ما توصل إليه مركز "بيو" للأبحاث في أيار/مايو عام 2007 بعد نشر تقريرنا بأربعة أشهر والذي يفيد بأن الاقتراحات التي قدمت في تقريرنا لاقت تأييدًا جماهيريًا عريضًا وعلى الأخص اقتراحات بيكر هاميلتون التي اتسمت بغياب الانقسامات الحزبية إذ لم يكن هناك معارضة من أي من أعضاء الحزبين المشتركين في كتابة التقرير بالنسبة لجميع القضايا التي تم بحثها. فالإجماع كان السمة الغالبة على هذا التقرير والتوازن في آرائه كان واضحًا على عكس ما كان سائداً على الساحة السياسية.

بغداد عام 2006

فى أيلول/ سبتمبر عام 2006 صحبت أعضاء مجموعة بيكر هاميلتون في رحلة إلى بغداد ووفرت لها تقييمًا على الطبيعة عن الموقف في العراق وفرصة لقاء قطاع عريض من المدنيين والعسكريين في كل من الولايات المتحدة والعراق، هذا علاوة على القادة الدينيين ورؤساء المنظمات غير الحكومية والدبلوماسيين الأجانب وممثلين عن المنظمات الدولية الذين يراقبون الوضع في العراق. وكانت المجموعة تضم موظفين كباراً من الإدارة الأمريكية السابقة والكونغرس منهم جيمس بيكر، ولي هاميلتون، وبيل بيري، وبوب غايتس، وتشوك روب، وإيد ميس، وليون بانيتا؛ ولأهداف أمنية كانت هذه البعثة على المستوى الرئاسي. وعندما اقتربنا من مدينة الكويت على متن طائرة USG 737 شُرح لنا الموقف الأمني الخطير في بغداد ووُضعت لنا الاحتياطات التي يتوجب علينا اتخاذها في رحلتنا

داخل المدينة وحتى في حدود المنطقة الخضراء وهي أكبر منطقة محمية في بغداد والتي تضم مراكز القيادة العسكرية الأمريكية وأكبر سفارة أمريكية في العالم.

وعند وصولنا إلى مدينة الكويت ركبنا طائرة C-130 وهي طائرة شحن. وعندما وصلنا إلى داخل الطائرة وجدنا أربعة صفوف من الجنود الأمريكيين بلباسهم العسكري القتالي، حيث إنهم كانوا عائدين إلى العراق بعد إجازة كانوا قد قضوها. وجلسنا بجانبهم تحت درجة حرارة وصلت إلى 118 ف، ولقد اندهشت كثيرًا لفارق السن الذي يفصلنا فيها نحن مجموعة من صانعي السياسة المتقدمين في العمر وها هم جنود في العشرينيات من العمر. وسألت الرقيب الذي يجلس إلى جانبي عن المكان الذي حُدد لوحدته في العراق، فقال "المحمودية" في مثلث الموت. ولقد كان لدي احترام عميق بعد سماعي لهذه العبارة من هؤلاء الشباب الذين يقومون على خدمة بلدنا والتضحية التي يقدمونها.

وبينما كنا ننتظر لحظة الإقلاع التي طالت، أعطاني العريف بعض المظاريف لأوصلها لزملائي، وكانت تحتوي على حقائب من البلاستيك وقال إن الهبوط في مطار بغداد سيكون صعبًا ويتسم بالانحدار الشديد، الأمر الذي لن تتحمله معدتنا، ولقد تجنب قائد الطائرة النيران التي يمكن أن تصيب الطائرة من الأعداء المجهزين بالصواريخ. ولقد كانت الرحلة قاسية وشرح لنا ضابط الأمن كيف نضع الخوذات على رؤوسنا والثياب التي يجب علينا ارتداؤها. وعند نزولنا من الطائرة ركبنا طائرة هليكوبتر لكي تنقلنا إلى المنطقة الخضراء التي تتعرض لبعض النيران في بعض الأحيان.

كانت رحلتنا هذه قد أعطتنا إطلالة على بغداد ورأينا مساحات واسعة من الأرض تتخللها أشجار النخيل وشواطئ دجلة والفرات الخصبة. وقد لاحظنا أن الحاجة إلى إعادة الإعمار كبيرة في بغداد في كل مكان عدا بضعة منازل تبدو

عليها الرفاهية والثراء، وبينما كنا نطير فوق هذه المنازل أدركنا كيف يكون من السهل على الإرهابيين من تنظيم القاعدة التسلل إلى هذه المنازل والاختباء فيها وإطلاق صواريخهم على هذه الطائرات. ولحسن الحظ وصلنا إلى هدفنا بدون أي حادث وأخذونا إلى مقر كبير في عربات مصفحة وصحبنا طاقم طبي.

والمنطقة الخضراء تقع على مساحة 5 أميال عريضة وتحميها تحصينات دفاعية كبيرة وهي مدينة عميقة داخل بغداد وتأوي الأمريكيين. كما تضم الكثير من الإدارات الحكومية والعديد من السفارات الأجنبية. ويشكّل قصر صدام حسين السابق ومحيطه مركزًا للأنشطة الأمريكية الرسمية والترفيهية. فهناك المسابح والبارات التي يرتادها الكثير من العسكريين والمدنيين الأمريكيين، وتشكل هذه المدينة بجدرانها قلعة كقلاع العصور الوسطى.

لقد أخبرونا أن الخطر الأكبر الذي يمكن أن تتعرض له المدينة الخضراء يكمن في الصواريخ التي تتعرض لها بين الحين والآخر، وصفارة الإنذار الأولى تكون بمثابة تحذير من هجوم وشيك. فإذا لم نكن داخل مقطورتنا في حال هجوم يتوجب علينا اللجوء إلى أقرب مأوى محصن تحصينًا كبيرًا.

فى هذا المحيط وتلك البيئة بعد وصولنا وبعد لقائنا بالجنرال كايسي ارتدينا حللنا وذهبنا للقاء رئيس الوزراء نوري المالكي ورئيس الجمهورية جلال الطالباني. وحياني الطالباني بحرارة زائدة وحكى لي مغبة لقاءاتنا في واشنطن عام 1991 عندما ناقشنا دور الأكراد في عراق ما بعد عاصفة الصحراء وما بعد إقصاء صدام. ولقد كان الطالباني مسرورًا من الوضعية الجيدة للأكراد في العراق.

وفى المساء التالي وبعد اجتماعات عديدة مع الوزراء العراقيين وممثلين عن المنظمات غير الحكومية وموظفي السفارة الأمريكية، دعانا طالباني إلى عشاء عربي شهي في منزله، وروى حكايات قديمة عن اللقاءات القديمة بين كبار المسؤولين الأمريكيين وأعضاء من الحزب الوطني الكردستاني والحزب

الديمقراطى لكردستان. ومع وزير الخارجية زيباري ونائب رئيس الوزراء برهوم صالح والرئيس طالباني، رفعنا كؤوسنا نخب الأيام الخوالي الجديدة، وتحدثنا بالعربية عن تقدم الأكراد وكيف أصبحوا وزراء ورؤساء جمهورية بينما انتهيت أنا كسفير ليس إلا.

اتبعنا برنامجًا عامًا كبيرًا باجتماعنا مع العراقيين المديرين والقادة المدنيين بمن فيهم عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي يسيطر على ميلشيات بدر، وكانت قضية الطائفية تلوح في أفق محادثاتنا بدرجة كبيرة. أما القضية المركزية التي نوقشت فهي ما إذا كانت حكومة المالكي قادرة على اتخاذ القرارات الصعبة للسيطرة على الميلشيات وخاصة جيش المهدي وفيلق بدر. ولقد أخبرنا زعيم سني في المعارضة أنه في بداية تحرير/ احتلال الكويت، قمنا بارتكاب خطأ فادح في محاباة قادة الطوائف الدينية عوضًا عن القادة العلمانيين والليبراليين والنخبة من المثقفين والمهنيين. ولقد قال لي أحد الممثلين عن منتدى الصدر سرًا: "لقد خلقتم الصدر". وكان لدي إحساس قوي أن هذه الحكومة في أشد الحاجة إلى إثبات قدرتها على التقدم إلى الأمام وعلاج القضايا الأساسية (الأمن وتقاسم عائدات النفط والفيدرالية وإعادة الإعمار والمصالحة).

وفى الخارج كان القتل مستمرًا. ففي آخر يوم من رحلتنا كانت هناك 4 تفجيرات خارج منطقة الحزام الأخضر. وحيث إن هذه التفجيرات كانت الأولى التي سمعتها مجموعتنا، كنا نصغي باهتمام كبير بينما كان كل شخص يعمل من غير صعوبة أو تردد. ولقد أخبرنا أحد الأشخاص من الفريق الطبي الذي كان يعمل في غرفة الطوارئ في القاعدة الأمريكية أن طائرات الهليكوبتر التي سمعناها في منتصف الليل وقد هزت البيت، الذي كنا نقيم فيه كانت تنقل جرحى أمريكيين وعراقيين. تم إخبارنا عن جندي أمريكي شاب أحضروه ليلاً، وكان قد أصيب إصابة خطيرة وحاولوا بذل كل جهد لإنقاذه إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك. كل ما سمعناه كان حقيقيًا وكان من العسير علينا استيعاب كل

الآلام التي شعرنا بها؛ فالسياسة لها نتائجها على الأرض وكل ما نحصل عليه في النهاية لا يعدو أن يكون بضعة إحصاءات فقط.

ولقد لعبت المناقشات التي قمنا بها دورًا هامًا في كتابة التقرير، وقد انعكس تعقد التحديات التي واجهناها في ما قلناه في افتتاحية التقرير: "الموقف في العراق خطير ومتدهور وليس هناك من مسلك يمكن أن يضمن لنا النجاح إلا أن الآمال المرتقبة يمكن أن تتحسن".

ما هي الأمور التي تميّز التقرير؟

من المهم أن نصف ما يميّز التقرير بالنسبة لمجريات السياسة في الماضي والحاضر، فالتقرير يحتوي على ثلاثة عناصر رئيسية:

أولاً، أكد التقرير أن المهمة الرئيسية لقوات الولايات المتحدة يجب أن تتطور حتى تستطيع دعم وتقوية الجيش العراقي الذي سيتسلم المهام القتالية وعمليات الاشتباك مع العدو. ولقد بين التقرير أنه بحلول الربع الأول من عام 2008 (وهذا يخضع للتطورات غير المتوقعة في الموقف الأمني على الأرض) يمكن لكل الوحدات القتالية غير المسؤولة عن حماية القوة أن تغادر العراق وبعد ذلك يعاد انتشار القوات القتالية في العراق وذلك في وحدات ملحقة بالقوات العراقية ومندمجة معها في فرق عمليات خاصة وسريعة وفي تدريب وتجهيز وتعليم وحماية وبحث وإنقاذ. ولقد اعترف التقرير وأقر بأن الحكومة العراقية ستحتاج إلى المساعدة المستمرة من الولايات المتحدة وخاصة في المجال الأمني، إلا أن التقرير قد أقر بوضوح بأنه يتوجب على الولايات المتحدة أن تلتزم بالحفاظ على أعداد كبيرة من القوات لتفتيش العراق.

ثانيًا، أوصى التقرير بأنه يتوجب على الولايات المتحدة أن تعمل عن كثب مع القادة العراقيين لدعم قادة العراق لتحقيق تقدم كبير بالنسبة لثلاث قضايا هامة : المصالحة الوطنية، الأمن، الحكم؛ ويقول التقرير:

"إذا أظهرت الحكومة العراقية الإرادة السياسية وأحرزت تقدمًا كبيرًا لتحقيق معالم على طريق المصالحة الوطنية، والأمن والحكم، فإنه يتوجب على الولايات المتحدة أن تبين بوضوح رغبتها في الاستمرار في التدريب والمساعدة والدعم لقوات الأمن العراقية، وكذلك الاستمرار في الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي، وإذا فشلت الحكومة العراقية في أن تحرز تقدمًا لتحقيق ما سبق فعندئذٍ يتوجب على الولايات المتحدة أن تقلل من دعمها السياسي والعسكري والاقتصادي للحكومة العراقية".

ثالثًا، المكون الثالث لهذا التقرير يقع تحت عنوان "هجوم دبلوماسي جديد". من الواضح أن سياسات وأقوال جيران العراق تؤثر كثيرًا على استقراره ورفاهيته، ولقد أوصى التقرير بأن تقوم الولايات المتحدة بإطلاق مبادرة دبلوماسية، وذلك لبناء إجماع دولي يهدف إلى توطيد الاستقرار في العراق والمنطقة. ويشمل هذا المجهود كل جيران العراق. كما دعا التقرير إلى تأسيس مجموعة دولية لدعم العراق وتنظيم هذه المجموعة لكي تصبح أداة لهذه المبادرة. وتتألف هذه المجموعة من جيران العراق والدول الرئيسية داخل وخارج المنطقة لدعم الأمن والمصالحة الوطنية في داخل العراق؛ وبالنظر إلى قدرة كل من سوريا وإيران على التأثير في مجريات الأحداث في العراق واهتمامها بتجنبها حدوث فوضى في العراق على المدى الطويل، فلقد أوصى التقرير بأنه يتوجب على الولايات المتحدة أن تعمل على تطبيقها بطريقة بناءة وباتجاه دبلوماسي قوي يتضمن حوافز وعقوبات في نفس الوقت. وهناك وجه مهم لهذه الحملة الدبلوماسية الجديدة ويتلخص في التقييم والتوصية بأن الولايات المتحدة لا يمكنها تحقيق هذه الأهداف في الشرق الأوسط إذا لم تتعامل مباشرة مع صراع الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل وعدم الاستقرار في المنطقة. وبناء على ما تقدم، فإن التقرير يؤيد بقوة التزامًا مجردًا ومستدامًا من جانب الولايات المتحدة لتحقيق تسوية شاملة للوصول إلى السلام على كل الجبهات وخاصة على الجبهة السورية والجبهة اللبنانية والتزام بوش في حزيران/يونيو 2002 بحل على أساس دولتين فلسطينية وإسرائيلية.

البعد السوري

كما ذكرنا في الفصول السابقة، شرحت أنا ووزير الخارجية بيكر ما يجب أن تكون عليه دبلوماسية الولايات المتحدة مع سوريا وما يجب أن تتضمنها لأننا علمنا أن هذا المسلك سيلقى معارضة. وأشرنا بقوة أن الفرصة سنحت لدق إسفين بين سوريا وإيران ويمكن تحقيق ذلك بجعل سوريا تنخرط في أجندة أوسع وأبعد من العراق، ونعني بذلك مفاوضات السلام السوري الإسرائيلي والأمور في لبنان والإرهاب وعلاقات سوريا مع الولايات المتحدة ودول أخرى في المنطقة.

ولقد كان وزير الخارجية السوري عام 2006 "وليد المعلم" منتقدًا لسياسات الولايات المتحدة تجاه سوريا إلا أنه قدم بعض الإجراءات المعيّنة والتي تضمنت استعداد سوريا للمساعدة في إحكام السيطرة على الحدود العراقية السورية ودعم الحكومة العراقية والتعاون مع اللجنة الدولية التي تبحث في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري. أما بخصوص السلام السوري الإسرائيلي، فقد قال بصراحة إن الحكومة السورية على استعداد لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل على أساس مؤتمر مدريد وخطابات التعهدات التي أعطتها الولايات المتحدة للأطراف ذات العلاقة. وللدفع بالأمور إلى الأمام أكد أن سوريا ستستخدم نفوذها مع كل من حماس وحزب الله.

وكنت أدرك أنني وبيكر في حاجة إلى ترجمة هذه الكلمات إلى أفعال وذلك عن طريق الدبلوماسية النشطة إلا أنه كان من الواضح أن الفرصة الملائمة كانت هناك.

البعد الإيراني

أوصى التقرير بالتباحث المباشر مع إيران تحت رعاية جماعة الدعم الدولي

للعراق وفي ظل التحرك الدبلوماسي النشط. ولقد كان أعضاء المجموعة التي كتبت التقرير يدركون جيدًا الطبيعة المعقدة للخلافات الأمريكية الإيرانية إلا أنهم أقرّوا بأن كلتا الدولتين قد تعاونتا بنجاح في أفغانستان في قلب نظام حكم طالبان وذلك في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وانخرطتا أيضًا بشكل محدود في القضية الخلافية الخاصة بالبرنامج النووي الإيراني وذلك في سياق الأمم المتحدة ومجلس الأمن وأعضائه الدائمين (الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، فرنسا، روسيا، الصين) بالإضافة إلى ألمانيا.

وكان قرار اللجنة صائبًا حيث إن إيران ترى أنه من مصلحتها أن تشهد فشل أمريكا في العراق وذلك على المدى القصير. إلا أن فشل سياسة الولايات المتحدة في العراق على المدى الطويل لن يخدم المصالح الإيرانية إذا ما حدث تفكك للدولة العراقية. وكان من المهم أن نلحظ أن 50% من السكان من أصل فارسي، ولكنها تضم أقلية كبيرة من أصل أذري (تركي) تشكل 24% من السكان، وفئة كردية (7%)، وأقليات عربية (3%). والواقع أن الصراع الطائفي المتزايد والمستمر في العراق يمكن أن ينتقل عبر الحدود وتنشأ عنه توترات وعدم استقرار في إيران، ولن يكون ذلك في مصلحة الأمن القومي الإيراني، وعليه فإن هناك إمكانية لأن تنخرط الولايات المتحدة مع إيران وتعملان سويًا على استقرار الأوضاع في العراق.

لقد أوصى التقرير بأنه يتوجب على إيران اتخاذ خطوات عدة لتحسين الموقف في العراق، وهذه الخطوات هي:

- على إيران أن توقف تدفق الأسلحة والتكنولوجيا والتدريب إلى مجموعة تلجأ إلى العنف في العراق.
- لا بد أن يكون واضحًا لدى إيران أن دعمها لسلامة أراضي العراق كدولة موحدة واحترامها لسيادة العراق وحكومته أمر ضروري.

- تستطيع إيران أن تستخدم نفوذها على المجموعات الشيعية في العراق وذلك لتشجيع المصالحة الوطنية.
- يمكن لإيران أيضًا في الظروف المناسبة أن تساعد في عملية إعادة الإعمار الاقتصادية في العراق.

التقابل مع الإيرانيين

لاستكشاف فرص الانخراط الجدي مع إيران اتصلت أنا وبيكر بالإيرانيين بالنيابة عن مجموعة العمل. وبالنظر إلى العلاقات المحدودة والتي يسودها التوتر علاوة على صعوبة الاتصالات بين الدولتين، لم نعقد آمالاً كبيرة على انتزاع تعاون بين الإيرانيين، أما بالنسبة للتقرير فقد أفاد:

> "إن اتصالاتنا المحدودة مع الحكومة الإيرانية قادتنا إلى الاعتقاد بأنّه من المحتمل أن يقول القادة الإيرانيون في البداية إنّهم عاجزون عن مشاركة الولايات المتحدة في مساعيها الدبلوماسية لدعم الاستقرار في العراق. وهذا يرجع إلى إدراك إيران لمواقف حكومة الولايات المتحدة تجاه الحكومة الإيرانية وخاصة فيما يتعلق بقضية تغيير النظام. ومع ذلك، علينا أن نطلب من إيران الاضطلاع بمسؤوليتها في مشاركة مجموعة دعم العراق كدولة مجاورة للعراق، وعليه فإن رفضًا إيرانيًا بالقيام بمثل هذا العمل سيثبت للعراق وللعالم موقف إيران الرافض، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى عزلتها؛ هذا بالإضافة إلى أن رفض إيران للتعاون يمكن أن يقلل كثيرًا من فرص انخراطها مع الولايات المتحدة في الحوار الأكبر الذي تسعى إليه".

وتقابلنا مع السفير الدكتور محمد جواد ظريف الممثل الدائم للجمهورية الإسلامية الإيرانية في الأمم المتحدة في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر عام 2006 في مدينة نيويورك؛ ولقد أرسل بيكر رسالة مفادها أن لا أحد من جيران العراق له مصلحة في رؤية عراق في حالة من الفوضى أو أن يرى العراق دولة

فاشلة. وقال، إن الإيرانيين يفكرون فيما إذا كان من الممكن القيام بعدة أعمال بمفردهم أو سويًا مع حكومة العراق ودول مجاورة أخرى لجلب الاستقرار إلى العراق ومساعدته في عملية إعادة الإعمار الناجحة. وتساءل، هل تعتقد الحكومة الإيرانية بأن هناك إجراءات ثنائية أو متعددة الأطراف يمكن اتخاذها؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي تلك الإجراءات؟ هل هناك إمكانية للتعاون الإيراني الأمريكي في سياق متعدد الأطراف؟. ولقد أوضح لنا "ظريف" أنه سينقل كل هذه الأسئلة إلى طهران قبل أن يوفر لنا الإجابات المؤكدة فيما يتعلق بمواقف الحكومة الإيرانية، إلا أنه ظل يصف وجهة نظر إيران بالنسبة للمحاولات الفاشلة لإقرار حوار إيراني أمريكي أنه استغل من طرف دولة ثالثة لأهداف سياسية؛ ثم قال إن إيران على استعداد للتحاور في آذار/مارس 2003، وأشار إلى إعلان رسمي صدر عن مستشار الأمن القومي الإيراني مفاده أن إيران ترغب في الانخراط مع الولايات المتحدة وأن زعيم إيران الروحي آية الله خامنئي قد وافق على هذه المحادثات في مقابلة تمت معه؛ ثم روى كيف أن إيران تسلمت بعد ذلك "مجموعة من الأمور التي تحمل علاقات استفهام"؛ وهذا بالطبع إشارة إلى برنامجها النووي، علاوة على تكوين حكومة جديدة في العراق ثم محاولات تأجيل المحادثات. كل ذلك جعل إيران تشعر بأن لدى الولايات المتحدة أجندة وتشك في تغيير النظام. وفي مثل هذه الظروف نجد أن الحوار لن يؤدي إلى أي نتائج.

ولقد كشف ظريف عن العديد من التصورات الإيرانية الخاطئة والخطيرة بالنسبة لسياسة الولايات المتحدة في العراق. فعلى سبيل المثال، تساور الإيرانيين الشكوك حول رئيس الوزراء العراقي وحكومته وعدم دعم الولايات المتحدة لهذه الحكومة وسعيها لإحلال حكومة بديلة عوضًا عنها. أما عبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الإسلامي الأعلى للعراق. الذي كان يعرف سابقًا بمنظمة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، فقد حذف كلمة "الثورة" وذلك في أيار/مايو 2007 - وآخرون كانوا دومًا يخبرون الإيرانيين بأن الولايات المتحدة والأوروبيّين وبعض الدول العربية كانوا يريدون أن تفشل حكومة المالكي.

ولقد طمأنتُ ظريف بأن كل ما ذكره ليس صحيحًا، وفي الواقع عندما حدث لقاء مع الحكيم في بغداد سأله بيكر عما إذا كان على وجه الخصوص يؤيد الحكومة الحالية، فما كان من الحكيم ورفاقه إلا أن عبّروا عن دهشتهم لهذا السؤال، وذكرت من جانبي وأنا أعلق على الحديث أن هناك تحذيرًا يفيد بأنه ربما يكون للحكيم أجندته الخاصة به بما يشمل تأسيس منطقة شيعية تتمتع بالحكم الذاتي في الجنوب. فما كان من ظريف إلا أن أبدى تساؤلاً قائلاً إنّه إذا لم يكن هناك تهديد بالانفصال في الجنوب فمع خلق "شيعستان" يصبح من المستحيل الإبقاء على الأكراد بمنأى عن الانفصال، وقال ظريف إن الحكيم يعتقد أن هذا هو ما يُبقي العراق متحداً ومتماسكاً، واختتم بالقول إنّه لا يظن أنه سيكون هناك كيان شيعي منفصل في الجنوب.

ولقد أوضح بيكر رأيه بأن حكومة الولايات المتحدة تريد النجاح للحكومة العراقية الحالية وليس الأفضل، ثم أثار ظريف عدة "نظريات مؤامرة" أخرى، وقال إن هناك تقارير تشير إلى أن هناك موظفين معينين أمريكيين ـ يتعاونون تعاونًا وثيقًا مع المتمردين وأن صدام حسين سيتم نفيه إلى قطر وينتهي حينئذ التمرد ثم يصوب المتمردون بنادقهم على الشيعة وليس على الوجود الأمريكي في العراق

وعلى الرغم من أنه لم يقدم أي التزام فلقد ادّعى ظريف أن الحكومة في طهران مهتمة بالتوصل إلى علاقة عمل مع الولايات المتحدة.

تكلفة عدم التحدث مع الخصوم والأعداء

جئت من اجتماعي مع ظريف وأنا مدرك تمامًا أكثر من أي وقت مضى بأن غياب التواصل الرسمي والمستدام بين الولايات المتحدة وإيران يسهل الكثير من التطورات الخاطئة من جانب كل من الدولتين، مما يكون عقبة خطيرة تقف أمام

قدرتنا على التأثير على السلوك الإيراني وذلك بمنأى عن العقوبات والتهديدات المنظمة بالعمل العسكري. والمهمة هنا تنحصر في الكيفية التي يمكننا بها أن نستميل إيران للانخراط في مناقشات جديدة من المحتمل أن يتمخض عنها التعرف على أرضية مشتركة يمكن أن نجدها بالنسبة لقضايا معينة والتوصل إلى حل لقضايا عديدة كلما كان ذلك مناسبًا. لقد انخرط الإيرانيون معنا في حوار حول العراق إلا أنهم لا يريدون أن يكون الحوار مقصورًا على العراق فقط، فهم يسعون إلى توسيع أجندة المفاوضات حيث توضع القضايا الرئيسية الثنائية والإقليمية على الطاولة، وربما يكون مجلس الأمن المكان المفضل للنقاش حول القضية النووية كما أوصى التقرير. إلا أن الأمر يستوجب الانخراط الجدي والمستدام بين الولايات المتحدة وإيران فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية الأخرى (العراق، وأفغانستان، والسلام العربي الإسرائيلي، والإرهاب، ودعم حزب الله وحماس، وحقوق الإنسان، والعلاقات الثنائية) التي يمكنها أن تسهل التقدم بالنسبة للقضية النووية.

إنني لا أفهم مدى صعوبة الانخراط مع إيران بالنسبة لهذه القضايا. لقد كنت في أغلب الأحيان أقول لزملائي في وزارة الخارجية إننا في تعاملنا مع الإيرانيين يتوجب علينا أن نضع يدنا على محفظتنا، فهم أكبر المتفاوضين ذكاءً ودهاءً في منطقة الشرق الأوسط، ولا يجب التقليل من شأنهم أبدًا، إلا أننا لا يجب علينا أن نجعل من إيران قوة أكبر مما تستحق.

إيران وأهميتها النسبية

بلا شك يمكننا أن نقول إن إيران قوة إقليمية في الخليج والشرق الأوسط، وذلك بفضل حجمها وموقعها الاستراتيجي وتاريخها الثري وثقافتها ومصادر الغاز والنفط. إلا أن إيران ليست الاتحاد السوفياتي الذي كان يشكل تهديدًا استراتيجيًا للولايات المتحدة.

يمكن لإيران أن تهدد جيرانها في الخليج والمنطقة بما فيهم إسرائيل، غير أن معظم هذه الدول لها علاقات ثنائية قوية مع الولايات المتحدة، وإيران تدرك أنها إذا هددت أو قامت بأعمال عدائية ضدهم فإنها تخاطر بدرجة كبيرة برد فعل الولايات المتحدة وكذلك القوى الكبرى. ومفهوم الردع في هذا السياق مفهوم حقيقي ويمكن أن يمتد ليشمل الوسائل الاقتصادية والسياسية فضلاً عن الوسائل العسكرية. وتمثل إيران أيضا ثلاثية سياسية. منذ ثورة إيران عام 1979 استطاع آية الله الخميني إرساء ولاية الفقيه أو حكم الشرع الإسلامي الذي يتضمن سلطة عليا للدولة في أيدي القائد الديني ورجال الدين وبذلك يخلق ما يسمى بالثيوقراطية الشيعية. ومن جهة أخرى نجد أن إيران تتمتع بنظام برلماني وانتخابات تشريعية ورئاسية، فهناك تناقض بين حكم ثيوقراطي يتماشى مع نظام نيابي انتخابي يمكن للنساء فيه التصويت على الرغم من وجود نظام سياسي يسيطر عليه رجال الدين.

ويجب علينا أيضًا أن نلحظ أنه على الرغم من النظام الإسلامي القتالي والنضالي الذي أسسه الخميني إلا أن المجتمع السياسي يتمتع بالتعددية، ففيه حركات إسلامية ليبرالية ومعتدلة. فعلى سبيل المثال كتب العالم السياسي في جامعة نيويورك فرهد كاظمي عن مهدي بازركان الذي كان يعمل رئيسًا للوزراء لمدة قصيرة بعد سقوط الشاه والذي يعتقد أن الإسلام يمكن أن يتكيف مع الحداثة، ومن ثم يكتسب القوة من التبادل الثقافي مع الغرب وذلك بدون أن يفقد جوهره الأساسي. ولقد مثل مسارًا تطوريًا للتقدم لا يتسم بالعنف، ويأتي مؤيدوه من العناصر الوطنية داخل البازارات وفي أوساط المدرسين وخاصة المدرسين الجامعيين.

لا يجب علينا مع كل ذلك أن نقلل من أهمية مستوى التوتر في المجتمع الإيراني الذي يغلب على مكوناته طبقة الشباب الذين يصل متوسط أعمارهم إلى 24 عامًا

مع بطالة تصل إلى 12% وتضخم يصل إلى 15% بالإضافة إلى نسبة 40% من السكان تحت خط الفقر. وبمصادرها الوفيرة من الغاز والنفط، فإيران تتمتع بثاني أكبر مخزون من الغاز في العالم وثالث أكبر مخزون من النفط كذلك، إلا أن الحكومة تستورد كميات كبيرة من الغازولين للاستهلاك المحلي وذلك لغياب القدرة على التكرير.

وطبقًا لما ورد في "إيكونوميست إنتاليجنت يونت" Exonomist Intelligence unit، فإنه من غير المحتمل أن تصدر إيران 5.6 ملايين برميل يوميًا بحلول عام 2010، وذلك هو الهدف الذي وضعته لإنتاجها من منظور إنتاجها الحالي الذي يصل إلى 3.8 ملابين برميل يوميًا. ولقد كان لسياسات أحمدي نجاد الاقتصادية الشعبية الأثر الإجهادي على الاقتصاد، كما تنعكس الحاجة الماسة للإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بشكل واضح على الحركة الإصلاحية. وطبقًا لما يقوله الأستاذ كاظمي.

> "فشل النظام في وفائه بوعوده بالنسبة للعدالة الاجتماعية والاكتفاء الاقتصادي، فلقد جمعت النخبة الإسلامية الجديدة ثروة هائلة وفشلت في تقاسمها مع الطبقات الدنيا وسكتت عن الفساد الرسمي وبين رجال الدين. وفي المجال السياسي نجد أن المشاكل ليست أقل حدة. فأزمة السلطة تثير العديد من الأسئلة الأساسية عن الأدوار التي يلعبها الدين والسياسة، فتركيز السلطة المطلقة في يد الزعيم الروحي يدعو للقلق".

ولزيادة الأمور تعقيدًا نجد أن إيران ليست دولة فارسية متجانسة ونصف سكانها تقريبًا موزعون بين الأتراك والكرد والعرب وبضع جماعات عرقية صغيرة. وهناك حساسية في إيران لما يحدث على حدودها في كل من العراق وأفغانستان، وهي تأمل في تجنب ما يمكن أن يمتد من هذه البلاد إلى حدودها من صراعات إثنية ودينية وحركات انفصالية يمكن أن تهدد سلامتها الإقليمية. وبالنظر لكل هذه العوامل نجد أن إيران لديها أسباب قويّة تجعلها تتجنب إثارة الولايات المتحدة وتحريك العداء ضدها لكي يصل إلى مواجهة. فمثل هذه

المواجهة يمكن أن تكون مكلفة لكلا الطرفين وستكون مدمرة بالذات بالنسبة لإيران، ولهذا فإنّ للدبلوماسية دورها هنا إذا ما تمت إدارة دفتها بحكمة وتعقل.

وكقوة عالمية كبيرة تستطيع الولايات المتحدة أن تأخذ الخطوة الأولى لوضع النظام الإيراني تحت الاختبار، وذلك من خلال عرض لحوار استراتيجي عريض بالنسبة لكل القضايا الأساسية. فرغبتنا في الانخراط مع إيران لا يجب أن ينظر إليه على أن هناك غيابًا لصدق العزيمة واتخاذ القرار للتعامل مع هذه القضايا الأساسية التي تؤثر على مصالح أمننا القومي وأمن أصدقائنا وخاصة فيما يتعلق بقضية الأسلحة النووية. لقد كانت العلاقة الأمريكية الإيرانية قد وصلت إلى أدنى درجاتها، وما زال الموقف في المنطقة خطرًا بل محفوفًا بالمخاطر؛ فتورط مصالح كل من إيران والولايات المتحدة بهذه الدرجة الخطيرة في مشاكل وصراعات المنطقة أمر يدعو للقلق.

والمتابعة النشطة للقضية النووية على منبر متعدد الأطراف أمر مهم، إلا أن الخطوة الأولى في الحوار يمكن أن تكمن في تبادل التقييمات بالنسبة للقضايا الإقليمية مثل العراق وأفغانستان والصراع العربي الإسرائيلي ولبنان وأمن الخليج والإرهاب. وما يمكن أن تتمخض عنه هذه المناقشات يمكن أن يتمحور حول إيجاد علاقة ثنائية بين الولايات المتحدة وإيران. ومن هنا يكفينا أن نوضح أنه في الوقت الذي لا نسعى فيه إلى تغيير النظام، سنعمل على تعزيز مواقعنا بالنسبة لحقوق الإنسان والديمقراطية ودور المجتمع المدني وسيادة القانون كأجزاء هيكلية وبنيوية لحوار ثنائي. وباختصار، فإن المخاطر كبيرة ويجب ألا تفوتنا فرصة استمالة أحد الأنظمة الأكثر عداء لنا في المنطقة.

الطريق للسلام

بينما كانت إدارة الرئيس جورج بوش على استعداد للحرب كان قد تم تجاهل كل

من كولن باول وزير الخارجية وفريق مجموعة دراسة مستقبل العراق. وقد أخبر باول الإدارة بأننا إذا قمنا بغزو العراق فإننا سنكون مسؤولين عن مستقبله وكل ما يتعلق به وما ينطوي عليه هذا الغزو. ولقد كان تحذير باول صريحًا. "إذا قمت بكسره فإنك ستمتلكه"؛ ولقد كان باول رئيسًا لهيئة الأركان المشتركة في عهد جورج بوش الأب ومهندس حملة عاصفة الصحراء حيث قام على تطبيق ما يسمي "بمبدأ باول". وكان هذا المنحنى يتكون في الأساس من التعريف بوضوح للمهمة المطلوب إنجازها وتحديد مستويات القوة التي تحتاجها لتنفيذ هذه المهمة، وذلك بقصد التغلب على العدو بالقوة الحاسمة والمراوغة، بغية تحقيق هدف عسكري واضح، مع تحديد الكيفية التي يتم بها إنهاء الحرب وتحديد الأهداف السياسية من هذه الحرب. ولقد قام باول بالتمييز بين الأهداف العسكرية والأهداف السياسية مؤكداً أهمية التأييد الشعبي الجماهيري لأي التحام عسكري مستدام. وبينما حققت قواتنا العسكرية نجاحًا في تنفيذ عملية عاصفة الصحراء إلا أن الموقف بعد الحرب لم يحسب حسابه وخاصة في أوساط القيادة المدنية في وزارة الدفاع وبدون معرفة أو فهم للقوى اللاعبة في العراق والمنطقة بأسرها.

سئل رئيس أركان الجيش إريك شينسكي (الذي كان لديه خبرة في البوسنة وكان مسؤولاً عن إدارة ائتلاف من 41 دولة) في خريف عام 2002 عن خطة لعمل عسكري في العراق، وتريث الجنرال قليلاً وقال، حيث إن العراق يسكنه شعب أكبر من شعب البوسنة فإن حملة عسكرية تتطلب ما لا يقل عن 300 ألف جندي لتحقيق المهمة ولتحافظ على البلاد بعد الغزو؛ ثم استطرد شينسكي قائلا: "إننا في حاجة لأن تتلاءم قدراتنا مع العديد من المهام التي واجهناها في العراق، وأعتقد أنه من الضروري إعطاء المسؤولين عن قيادة القوات القتالية مجالاً للعديد من الخيارات لتنفيذ هذه المهام." ولقد كانت توصياته محل مناقشات داخل الإدارة وانتقده جهارًا بول وولفويتز نائب وزير الدفاع الأمريكي، وأحيل الجنرال إلى التقاعد منبوذًا حيث إنه تحدّى المبدأ أو العقيدة السائدة. إلا

أنه بالنظر إلى حالة الفوضى وانعدام الأمن والنظام التي عمت العراق في أعقاب الغزو والقرارات التي اتخذت من قبل إدارة التحالف في العراق، كان من الواضح أن شينسكي كان على حق منذ البداية.

وسوء التقدير والخطأ الأساسيان اللذان وقعت فيهما قوى المحافظين الجدد والاعتقاد بأن العراقيين سيرحبون بنا كمحررين وليس كمحتلين؛ ونظرًا للقمع الوحشي للشيعة على يد صدام حسين، فإنهم سيستقبلوننا بالترحاب والتحية رافعين أغصان النخيل. وسيخلق نموذج ديمقراطي ليكون نموذجًا للتغيير الديمقراطى في باقي المنطقة مع ما ينطوي عليه ذلك من نتائج إيجابية لإسرائيل. وكانوا يقولون إن الطريق للسلام العربي الإسرائيلي سيمر عن طريق بغداد وطهران، ولقد فهم صانعو السياسة هؤلاء، القليل من تاريخ وثقافة هذه المنطقة. فلقد أعمتهم مفاهيم الإيديولوجية عن رؤية الحقائق على الأرض بعد أن انتزعت منهم ثمنًا باهظًا داخل وخارج المنطقة.

ما الذي تجاهله بوش؟

من الأمور التي يتوجب علينا معرفتها أن نرى أيًا من العناصر الأساسية للتوصيات التي وردت في التقرير قد تبناها الرئيس وأيًا منها تجاهلها أو رفضها. لقد تصدّى كل من بيكر وهاميلتون لهذا السؤال في تصريح صدر في 11 كانون الثاني/يناير عام 2007، وذلك في اليوم التالي لخطاب الرئيس إلى الأمة.

لقد صرح الاثنان أنهما مسروران لتسلم الرئيس التقرير ومراجعته بدقة وبجدية، وأن بعض توصياته انعكست في المسلك الجديد الذي انتهجه الرئيس على الرغم من عدم تبنيه للتوصيات الأخرى. ولقد اتفقا مع الرئيس على أن "الموقف في العراق غير مقبول للشعب الأمريكي" وأصبحت نتائج هذا الفشل صعبة وحادة، وأن العراقيين وحدهم هم الذين يستطيعون إنهاء هذا العنف

الطائفي والحفاظ على أمن بلادهم. ولقد أكدا ما قاله الرئيس بأن مهمة الأمن الأساسية التي أوكلت للولايات المتحدة تنحصر في تدريب القوات العراقية، وقالا إنهما يدعمان زيادة عدد المستشارين الملحقين بوحدات الجيش العراقي وذلك مع الأخذ في الاعتبار أن الهدف هو اضطلاع الحكومة العراقية بمسؤوليات السيطرة على الأمن في كل المحافظات العراقية، وذلك بحلول تشرين الثاني/نوفمبر عام 2007. وذكرا أيضًا أن التقرير أشار إلى النقاط التى أشار إليها الرئيس في العراق وأنهما يتفقان مع الرئيس على أن الوقت قد حان لكي تتصرف الحكومة العراقية وتقوم بواجبها.

وفى نفس الوقت عبرا عن الأمل في أن الرئيس وإدارته سيقومان على تأمل التوصيات الأخرى المذكورة في التقرير، ولقد أشارا إلى أن الرئيس لم يقترح إمكانية السماح بفترة انتقال يمكن أن تمكّن القوات القتالية من البدء في مغادرة العراق، كما أنه لم يصرح بأنّ الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي سيكون مشروطًا بقدرة القوات العراقية على الوفاء بالنقاط التي أشار إليها الرئيس. وفي محيط المنطقة لم يقم الرئيس بحشد الدعم الدولي اللازم للعراق بما يشمل جيران العراق، كما أنه لم يقم باتخاذ التدابير التي أشار إليها التقرير للتوصل إلى تسوية شاملة للصراع العربي الإسرائيلي على كل الجبهات بما يشمل كلاً من سوريا ولبنان (لقد أطلق كل من الرئيس وكوندوليزا رايس العنان للمحادثات الإسرائيلية الفلسطينية في أنابوليس في تشرين الثاني/نوفمبر عام 2007).

أما بخصوص خطة الإدارة لنشر قوات في العراق، فلقد أشار التقرير إلى إمكانية الإدارة دعم عملية إعادة الانتشار، على مدى فترة قصيرة، للقوات القتالية، وذلك بهدف نشر الاستقرار في بغداد واستكمال هذه العملية بجهود تبذل في المجال السياسي والاقتصادي والدبلوماسي. ولقد أشار رئيسا مجموعة العمل إلى شعورهما بالغبطة لبيان الرئيس بأن الالتزام الأمريكي لن يكون طويلاً وأن إضافة 21 ألفًا من القوات هو إجراء مؤقت، كما أكدا على أهمية الحل السياسي ونعني به المصالحة الوطنية إذا أريد للعنف أن ينتهي في بغداد.

الخطة (ب)

كان الصحفيون دائمًا يتساءلون عما إذا كان أعضاء فريق العمل قد أدركوا أنه يمكن إضافة خطة (ب) في حال لم تحظَ التوصيات بالقبول أو ثبُتَ عدم فاعليتها؛ لم يكن هناك خطة رسمية لاحقة؛ إلا أنهم اعترفوا أنه في حال فشل عملية المصالحة الوطنية وتدابير الأمن والحكم التي اقترحت فإن تجزئة العراق إلى ثلاث مناطق يصبح أمرًا مقبولاً.

ولقد كان الاهتمام مركزًا على النقاش حول خطة فريق العمل والاقتراح المقدم من السناتور جوزيف بيدن ورئيسة مجلس العلاقات الخارجية "ليسلي غيلب"، والداعي إلى تقسيم السلطة في ثلاث مناطق كأولوية، ولقد أوضح كل من بيدن وغيلب وجهة نظرهما في مقال افتتاحي في جريدة الواشنطن بوست:

> إن عراقًا فيدراليًا يعنى عراقًا متحدًا إلا أنه عراق تؤول السلطة فيه إلى حكومات إقليمية مع وجود حكومة مركزية محدودة، مسؤولة عن مهام عامة مثل حماية الحدود وتوزيع عائدات النفط، ويوفر دستور العراق إطارًا لنظام فيدرالي قد سبق الاتفاق عليه. أما فيما يختص بمسألة تكوين هذه المناطق على أسس طائفية فإن الدستور العراقي يترك المجال للاختيار للشعب العراقي في الثماني عشرة محافظة؛ ويجب على إدارة بوش السعي لمساعدة العراقيين في جعل الفيدرالية تنجح من خلال اتفاق على التوزيع العادل لعائدات البترول على المحافظات علاوة على الرجوع الآمن للمهجرين واللاجئين ودمج الميلشيات في قوات الأمن وتفعيل اهتمام الدول الأخرى بعراق متحد وإعادة التركيز على القدرة على بناء القدرات وتقديم المساعدة للمحافظات والمناطق عوضًا عن ترهيبهم بالفيدرالية ومساواتها بالتقسيم والطائفية والتسلط الأجنبي.

إلا أن التقرير وإدارة بوش وخطة بيدن - غيلب، تدعم كلها الفيدرالية التي هي جزء من الدستور العراقي. ولعل عملية تطبيق النظام الفيدرالي موجودة، فليس هناك مجموعة واحدة من هؤلاء المجموعات الثلاث، تقف ضد النظام

الفيدرالي للحكم في العراق مع وجود حكومة مركزية في بغداد تمارس سلطات تقاسم عائدات النفط وأمن الحدود وقادرة على الحفاظ على السلامة الإقليمية للعراق ووحدته. ولقد حددت الإدارة لنفسها أهدافها في عراق يستطيع أن يحكم نفسه ويدافع عن نفسه ولن يكون تهديدًا لشعبه ولجيرانه كما أنه لن يكون قاعدة للإرهاب. ولعل هذا الهدف الكبير يمكن تحقيقه بدرجات مختلفة من السلطة المركزية والحكم الإقليمي؛ فتأييد الفيدرالية والدفاع عنها أو الحكم الذاتي كغطاء للتقسيم الطائفي للعراق يمكن أن يقضي على سلامة أراضي الدولة العراقية، ومن ثم فإن هذا المفهوم سيسهم في زعزعة الاستقرار للشعب العراقي وللمنطقة بأجمعها.

محافظة الأنبار

فى اجتماع قادة السنة في محافظة الأنبار في معهد بيكر للسياسة العامة في تشرين الثاني/نوفمبر 2007، سألت هؤلاء القادة عن واقعية التقرير وكيف ينظرون إلى التوصيات التي أوردها التقرير واستدامة المكاسب التي يظنون أنه من الممكن الحصول عليها إذا ما أبدوا تعاونًا مع المؤسسة العسكرية وذلك في محاولة للابتعاد عن تنظيم القاعدة والاضطلاع بمسؤولية السيطرة على المحافظة. وردًا على هذا التساؤل أشار المجتمعون إلى نقطتين، الأولى تفيد بأنّه مهما قامت الولايات من أعمال يجب عليها ألا تنسحب عسكريًا حتى يتم تكوين القوات المسلحة كمنظمة عسكرية غير طائفية، والثانية تفيد بأنّه لا يجب على الولايات المتحدة أن تعزز من تقسيم العراق على أسس طائفية (كيانات كردية، شيعية، سنية) فالأساس الوحيد للنظام الفيدرالي في العراق يجب أن يكون أساسًا جغرافيًا وليس طائفيًا ونعني بذلك التقسيم الحالي إلى ثماني عشرة محافظة.

الطريق إلى الأمام

يظل الهدف الأساسي من تقرير مجموعة العمل ISG صالحًا؛ فهو يرسم الاتجاه الذي يجب على الولايات المتحدة أن تسلكه في العراق والمنطقة. إلا أن بعض التعديلات يمكن القيام بها وتكون مبنية على التطورات الأمنية والعسكرية والسياسية على الأرض في العراق والمنطقة ككل. فاستراتيجية الماضي العريق التي رسمها الجنرال بيتراوس والسفير ريان كروكر في العراق كلها تهدف إلى توفير المال الكافي للعراقيين للاستحواذ على الأمن على الأرض وذلك لحماية الشعب العراقي وإيجاد الجو السياسي والاقتصادي لتحقيق المصالحة السياسية والوطنية؛ فهذا الهدف ضروري جداً لعراق مستدام ومسالم.

أما التوصيات الأساسية للتقرير والمتعلقة بدور القوات القتالية الأمريكية في العراق والمنطقة والنقاط التي حددت للحكومة العراقية فلا بدّ من أن تفي بها هذه الحكومة وتسعى لتحقيقها هنا، بالإضافة إلى تبنّي وبناء اتجاه دبلوماسي استراتيجي جديد بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط، لكن يجب أن يدخل حيز التنفيذ وذلك بهدف تعزيز فرص السلام والاستقرار في الشرق الأوسط والسماح للقوات الأمريكية بأن تبدأ الانسحاب من العراق والرجوع إلى أرض الوطن.

الفصل التاسع

علوم السياسة الطبيعيّة للطاقة

لعل أحد الاعتبارات الرئيسية في صراع الأفكار في العالم الإسلامي يكمن في الأهمية الجيوسياسية للمخزونات وللاحتياطيات النفطية الهائلة في عموم منطقة الشرق الأوسط. وعدم استيعاب الاستقرار في هذه المنطقة يمكن أن يؤدي إلى عدم انتظام تدفق النفط على مستوى الاقتصاد العالمي في وقت أصبحت فيه زيادة القدرة على الإنتاج محدودة مع تزايد الطلب على النفط والطاقة وخاصة من جانب القوى العالمية الناشئة كالصين والهند. ويمكن لسياسة الطاقة أن تستجيب إلى الحاجة والموقف التاريخي والتطلع إلى الأمام للموازنة بين العرض والطلب مع الاهتمام بالحاجة إلى الحفاظ على الطاقة وترشيدها والبحث عن مصادر بديلة. هذه السياسة أصبحت تمثل تحديًا جماهيريًا يفرض نفسه بالقوة.

عندما التحقت بمعهد بيكر عام 1994 كنت أدرك أن قضايا الطاقة ستشكل جزءًا كبيرًا من عمل المعهد، ولقد كنا في هيوستن عاصمة الطاقة على المستوى العالمي، وشأني شأن كل من كان يعمل في الحكومة في السبعينيات، أدركت الأهمية الكبرى والتأثير المباشر لإمدادات الطاقة الآمنة على الحياة اليومية والرخاء في أمريكا وفي الخارج، هذا علاوة على أن إمدادات الطاقة والقضايا

البيئية أمران متلازمان ويحتلان أهمية كبيرة وسط التحديات الرئيسية للقرن الحادي والعشرين.

التهديد من الداخل

فى إطار هذا السياق بدأ معهد بيكر برنامج أبحاث الطاقة عام 1995، وكانت منطقة الخليج العربي محط البحث والاستعلام. ولقد ذكرت دراسة دقيقة صدرت عام 1996 أن أكبر أسواق النفط معرضة لتوقف إمدادات النفط على المدى القصير، وأنه بينما تكون الولايات المتحدة على استعداد لردع أي اعتداء في منطقة الخليج والدفاع عنه، إلا أنه يجب علينا أن نقيّم ما يمكن أن تقوم به الولايات المتحدة في وجه تغير الأجيال والأنظمة في الخليج. ولقد حذر التقرير من تهديد لأمن الطاقة يمكن أن يأتي من داخل منطقة الخليج العربي عوضًا عن العوامل الخارجية، وأنه يتوجب على الولايات المتحدة وحلفائها أن تنظر إلى ما وراء القضايا العسكرية وتعطي اهتمامًا أكبر للتغير الاجتماعي والسياسي والثقافي المنبثق من دول الخليج العربي مع الاهتمام الخاص بدور الجماعات الإسلامية المتطرفة. ولقد دعت الدراسة أيضًا الولايات المتحدة إلى دعم حكومات الشرق الأوسط في سعيها لتعزيز الإصلاحات السياسية والخصخصة والمشاركة الأوسع في النظام الاقتصادي كسبيل من سبل التقليل من مظاهر الظلم الاجتماعي والتي تسهّل صعود الإرهاب والتطرف، كما أوصت الدراسة أيضًا الولايات المتحدة بتكثيف دورها في التقدم بعملية سلام الشرق الأوسط.

وبعد عشر سنوات من كتابة التقرير بدأت تلوح هذه القضايا في الأفق بدرجة كبيرة. ولقد جعل الرئيس بوش من تعزيز الديمقراطية إحدى عقائد إدارته في منحاها تجاه الشرق الأوسط. إلا أن نتائج هذا المنحى الذي يسلكه بوش في سياسته على المدى الطويل ما يزال غير واضح وخاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار خبرتنا في العراق وإعادة إشعال الانقسامات الطائفية بين السنة والشيعة في عموم منطقة الخليج العربي وشبه القارة الهندية. فضلاً عن ذلك، لا بدّ من ذكر

أنّ الموقف بين إسرائيل والفلسطينيين ما يزال هشًا، الأمر الذي ضاعف الضغوطات الحالية في المنطقة.

وكما لاحظت مسبقًا في فصول هذا الكتاب أن صراع إسرائيل مع حزب الله في لبنان في صيف عام 2006 قد ألقى الضوء مجددًا على مخاطر إطالة الصراع والتباطؤ في حله وعدم التصدي له بالدبلوماسية الفعالة، الأمر الذي يترتب عليه تورط دول أخرى في المنطقة بعيدة عنه مثل إيران التي تدعم حزب الله بفاعلية، علاوة على دعمها لجماعات أخرى مثل حماس. وكل ذلك يؤدي إلى زعزعة الاستقرار، ومن ثم يتوجب على سياسة الولايات المتحدة الانتقال من إدارة الصراع إلى حل للصراع.

لا يتعلق الأمر فقط بالنفط والغاز

هناك اعتقاد شائع في الولايات المتحدة (وحتى في منطقة الشرق الأوسط) أن مصالح الطاقة والنفط هي التي تسيّر سياسة الولايات المتحدة في المنطقة وأن المؤسسة العسكرية الأمريكية منخرطة في الشرق الأوسط لأن مصادر المنطقة من النفط والغاز كبيرة. وبلا شك فإن الحفاظ على تدفق النفط والغاز من الخليج العربي إلى أسواق العالم يمثل مصلحة حيوية للولايات المتحدة والعالم أجمع، ولقد أصبحت هذه النقطة واضحة تمامًا، ولطالما أشار إليها العديد من المسؤولين في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري في تصرفاتهم؛ إلا أن أهداف الولايات المتحدة ومصالحها في المنطقة أبعد من ذلك بكثير ولا تقتصر على توفير النفط والغاز.

وحتى العلاقة القديمة بين الولايات المتحدة وبعض دول الخليج والتي دامت عدة عقود تتمحور حول مصالح تتخطّى تلك التي تتعلق بالنفط والغاز؛ فإنها والكثير من دول الشرق الأوسط المتحالفة مع الولايات المتحدة قد اختارت

لها أدوارًا في المجالات السياسية والدبلوماسية والعسكرية والمالية من شأنها أن تدعم سياسة الولايات المتحدة في احتواء الاتحاد السوفياتي والشيوعيين الذين رأوا فيهم خصومًا، ومن ثم فهم يعارضون أنظمتهم سياسيًا وعقائديًا. ونتيجة لكل ذلك فإن بعض المسؤولين العرب كانوا دائمًا يذكّرون نظراءهم من الأمريكيين أثناء الحرب الباردة بأنهم يحافظون على علاقاتهم الوثيقة مع الولايات المتحدة، وذلك على الرغم من التصور العام السائد في المنطقة بأن المستقبل للأنظمة العربية الثورية المتحالفة مع الاتحاد السوفياتي من أمثال مصر تحت قيادة عبد الناصر وسوريا تحت قيادة حافظ الأسد.

ولقد كان الشرق الأوسط يمثل أهمية كبيرة في الحسابات الاستراتيجية للولايات المتحدة، وذلك بفضل موقعه الجغرافي المركزي وتوفيره لحقوق الترانزيت في الجو والبحر والبر. ففي أثناء الحرب الباردة كان استخدام المجال الجوي والقواعد الموجودة في منطقة الشرق الأوسط يشكل جزءًا مهمًا من القدرة العسكرية الأمريكية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي. وفي وقتنا هذا نجد أن علاقات العديد من دول الخليج أساسها الاستمرار في دعم القدرات العسكرية الأمريكية في المنطقة.

وفى صياغتها للسياسة الخارجية نجد أن الولايات المتحدة تشكّل دعمًا قويًا لإسرائيل وتلعب دورًا رئيسيًا في سعيها للتوصل إلى سلام في المنطقة وتستجيب للأهداف الإنسانية وللحفاظ على السلام في مناطق من العالم لا يتواجد فيها نفط ومن ثم لا تتعرض مصالحها للخطر. وانحرافنا في لبنان في الماضي عندما أرسلنا قوات مشاة البحرية إلى هذا البلد عام 1958 وفي الثمانينيات أثناء فترات الحرب الأهلية، والأعمال العسكرية في أفغانستان بعد غزو الاتحاد السوفياتي له ثم ما قامت به أمريكا من عمليات حربية لقلب نظام طالبان والهجوم على القاعدة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001، لم تكن هذه الأمور كلّها بدافع مصالح تتعلق بالنفط.

وللولايات المتحدة أيضًا مصالح مهمة لها في النواحي الاقتصادية والمالية والتجارية في عموم منطقة الشرق الأوسط، تلك المصالح التي غالبًا ما ترتبط بالنفط والغاز إلا أنها تختلف عنهما. هذا بالإضافة إلى أن للولايات المتحدة صلات ثقافية وتعليمية في المناطق وتتمثل في الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة الأمريكية في القاهرة وفروع للجامعات الأمريكية في مدينة التعليم في قطر.

ومع ذلك لا يجب علينا أن نقلل من أهمية دور المصالح المرتبطة بالطاقة في المنطقة. فقبل غزو الولايات المتحدة للعراق عام 2003، عبّر المشاركون في معهد بيكر لبرامج الطاقة عن قلقهم من الأعمال العسكرية ضد نظام صدام حسين والتي يمكن أن تكون سببًا في تعطيل تدفق البترول إلى أسواق النفط والغاز المتقلبة. ولقد جاء المشاركون في حوار البرنامج من دول في أوروبا والصين واليابان وكوريا الجنوبية.

وعلى عكس الموقف في عام 1989 عندما كان النفط على معدلاته المعتدلة وكان لدى أوبك فائض يزيد على 5 ملايين برميل يوميًا يمكن ضخه وكذلك قبل أن تبدأ الحرب في العراق، كان المجتمع الدولي يواجه أصعب سوق للطاقة قد شهده في خلال عقدين من الزمن؛ وكانت أوبك تعمل بـ99% من إجمالي طاقتها الإنتاجية مقابل 90% عام 2001 و80% قبل غزو العراق للكويت عام 1990. ولعل فائض الطاقة الإنتاجية داخل منطقة أوبك كان وما يزال محددًا ومحصورًا في عدد قليل من الدول الأعضاء مع غالبية القدرة الإنتاجية التي تتركز في السعودية والتي يتكوّن فائضها من النفط الثقيل ذي النوعية المتدنية والذي يستحيل استخدامه بكفاءة في أنظمة التكرير الآسيوية والأوروبية.

ولقد حصلت إدارة بوش على مساعدة مبدئية للتقليل من أثر الحرب على أسواق النفط وذلك لأن دول الخليج زادت من إنتاجها للنفط بدرجة كبيرة قبل الحرب. وفي أعقاب الغزو مباشرة وبينما كان بوش قد بدأ عملية الحرية

للعراقيين، في التاسع عشر من آذار/مارس عام 2003، أصدر الملك فهد بيانًا عامًا يقول فيه "إن السعودية لن تشترك في الحرب". وكانت المملكة تحاول "إبعاد نفسها عن المبادرة التي قادتها الولايات المتحدة، إلا أن السعودية ظلت تفي بدورها المعهود بهدوء وقامت بإنجاز تعهداتها، وبالفعل زادت من مبيعاتها إلى الولايات المتحدة وأماكن أخرى في أوائل عام 2003 وكان ذلك قبل الحرب. وفي الحقيقة شهد النصف الأول من عام 2003 مبيعات هائلة من النفط الخام السعودي ووصلت إلى الولايات المتحدة حيث إن المملكة عوضت عن الخسارة من إمدادات البترول التي نتجت عن تخفيضات في الإنتاج من حقول العراق النفطية وكان ذلك بسبب بدء "عملية الحرية للعراقيين". واستمرت السعودية في ضخ نفطها حتى وصل إلى 1.87 مليون برميل يوميًا ومن ثم كانت المصدر الأول للبترول. وبالتالي تكون قد زودت السوق الأمريكية بأكثر من 20.1% من احتياجات هذه السوق، وكان ذلك خلال الستة أشهر الأولى من عام 2003.

وعندما طالت الحرب وتزايد الطلب العالمي على البترول وبدأت الأسواق تعاني ندرة في البترول بالكميات المعتادة، أصبحت السعودية ودول أخرى في أوبك متحفظة في إمداداتها وسياساتها التسعيرية، الأمر الذي أدّى إلى ارتفاع مطرد لأسعار البترول مع الوقت. فضلاً عن ذلك، فإنّ مستوى فائض القدرة على الإنتاج قد قل كثيرًا خاصةً اليوم قياسًا بالأزمات السابقة التي رأيناها عام 1973 و1979. ويعدّ هذا الأمر عاملاً مهمًا في صعود النفط الأسود لأكثر من 100 دولار لكل برميل. ويمثل الوضع الحالي العالمي للطاقة تحديًا جديدًا وفريدًا من الصعب التغلب عليه. فالكثير من الاتجاهات الاقتصادية العالمية في أسواق البترول الآن تذكّرنا بعام 1973 عندما انخفض مستوى الدولار وارتفع الدين الوطني للولايات المتحدة والقدرة على زيادة الإنتاج أصبحت محدودة في وجه تزايد الطلب على النفط في العالم.

وبالنظر إلى العجز الشديد في فائض القدرة الإنتاجية في أوبك ظهر عدم توازن فجائي في إمدادات الطاقة على المستوى الدولي، ربما جاء نتيجة لحادث أو

تقليل حاد في الإنتاج، الأمر الذي يولد تجاوبات سريعة في الأسعار الآن قياسًا بما رأيناه في الماضي. ويشكل هذا الموقف مشكلة يشارك فيها كل المستوردين مهما كانت شركاتهم الوطنية ناجحة أو مستوى أموال المساهمين في شركات البترول. وفي عالم العولمة لا يمكن لأي دولة مستهلكة للبترول أن تعزل نفسها تجاريًا عن الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط على المستوى العالمي بغض النظر عن درجة اكتفائها الذاتي النسبية.

في الماضي، اعتمد العامل الصناعي على دول الخليج لخلق استثمارات كبيرة والتي كان في حاجة إليها للحفاظ على القدر الكافي من فائض القدرة وذلك لتكوين غطاء ضد أي تقليل لتدفق الطاقة في أماكن أخرى من العالم. ولعل الاستثمارات الكبيرة التي تضخها شركات البترول في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية لها نصيب كبير في الزيادات في إمدادات البترول. في تطلعنا إلى الأمام يشك الخبراء فيما إذا كانت دول الخليج العربي (وأوبك بوجه عام) سوف تستثمر أموالاً كافية لمواجهة الارتفاع في الطلب على النفط في الولايات المتحدة والصين واقتصاديات آسيا الناشئة وأماكن أخرى.

إن تحدي مواجهة الطلب المتزايد على النفط سيكون مثبطًا للهمم في السنوات القادمة. فمن المتوقع أن يكون هناك ارتفاع في الاستهلاك يصل إلى أكثر من 20 مليون برميل يوميًا، وذلك بحلول عام 2030، والاستثمار المتطلب لتوفير النفط يمكن أن يصل إلى 2 تريليون أو أكثر. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: من سيكون مسؤولاً عن ضخ هذه الاستثمارات الضخمة لدعم الاقتصاد العالمي في المستقبل. وعلى عكس العقود السابقة، نجد كافة شركات البترول تلعب دورًا كبيرًا في عمليات الاستكشاف وستكون الشركات الوطنية للبترول مسؤولة عن حصة الأسد في استخراج البترول واستثماره في السنوات العشرين القادمة.

وتستحوذ شركات البترول الوطنية على ما يقارب 80% من احتياطي

البترول العالمي وهي تسيطر أيضًا على إنتاج البترول في العالم. فمن بين أكبر عشرين منتجاً للبترول على مستوى العالم نجد أن لدى 14 منهم شركات وطنية مخصخصة حديثًا، وشركات البترول الكبيرة مثل إكسون وبريتش بتروليم وشيل التي تعد أكبر الشركات المنتجة للبترول خلال القرن العشرين أصبحت الآن تحتل المرتبة الثانية. ولقد زادت أهمية الشركات الوطنية في القرن الواحد والعشرين. والواقع أنّ فهم سياساتهم وأولوياتهم الناشئة أمر في غاية الأهمية لفهم مستقبل صناعة الطاقة، وهذا التغير يمثل تحولاً كبيرًا لأسواق الطاقة العالمية، وهو أحد التغيرات التي تستحق اهتمامنا الفائق.

إن الأهمية المتزايدة لشركات البترول الوطنية بالنسبة لتوازن العرض مع الطلب يثير الكثير من الأسئلة عن هذه السياسات الناشئة وأهدافها وأولوياتها وعلى الدور الذي تلعبه الحكومات في إدارة الشركات الوطنية. إن لدى تلك الشركات مسؤوليات هامة في دولها، فهي تساعد على إعادة توزيع الثروة القومية من مصادر الطاقة الداخلية كما تلعب دورًا قويًا في السعي وراء أمن الطاقة القومي والتطور الصناعي والاقتصادي في الداخل. وفي بعض الحالات تصبح هذه الشركات أداة من أدوات السياسة الخارجية، إلا أن كل هذه الأهداف على الرغم من أهميتها التي تفوق الأهداف القومية إلا أنه يمكن أن يكون لها تأثير كبير على قدرة هذه الشركات على التوسع في إنتاج النفط والغاز.

إن عدداً كبيراً من المراقبين قلقون من قدرة هذه الشركات على الوفاء بالطلب المتزايد على الهايدروكربونات؛ وللمشككين في هذا وجهة نظر بالنسبة لهذا الموضوع. ولقد أشرت باختصار إلى الاستثمارات المذهلة المطلوبة مدى الخمسة والعشرين سنة المقبلة. وإنتاج أوبك الذي يمثل حصة كبيرة من إنتاج الشركات الوطنية تضاءل اليوم قياسًا بما كان عليه عام 1979، هذا بالإضافة إلى أن هناك أسئلة في غاية الخطورة تتعلق باستغلال هذه المصادر بكفاءة، الأمر الذي يمكن أن ينطوي على الخطورة فيما لو كان الإنتاج أقل من المطلوب والأسعار عالية. والقوى العالمية المنتجة والدعم العالمي لتكلفة الوقود المستهلك

والتدخل السياسي المضعف تبقى سمات لعدد كبير من شركات البترول الوطنية، وكل تلك العوامل تقلل من قدرة هذه الشركات على استرجاع أعلى إنتاج مقابل كل دولار مستثمر.

وفى الحقيقة هناك شركات وطنية فعالة إلا أن هناك تنوعًا في الكفاءة. وعلى أي حال، فهذه الشركات ذات كفاءة تصل إلى 60% من كفاءة شركات البترول الدولية. وإذا لم تعمل الشركات الوطنية كمجموعة على زيادة كفاءتها، فإنّ أسواق الطاقة العالمية تكون متجهة نحو مستقبل تكتنفه الصعاب.

الصين والهند ـ تعطّش للطاقة

استجابت بعض الدول الآسيوية، وأهمها الصين والهند، لتحديات أمن الطاقة الناشئة والتي طرحتها سيطرة وهيمنة شركات البترول الوطنية على الأسواق، وذلك بسعيها إلى إرساء علاقات ثنائية مع الدول المصدرة الكبيرة للبترول. وبقيامها بهذا، بدأت القوى الآسيوية تتجاهل الخبرات التعليمية التاريخية في إدارة الأزمات البترولية وأمن الطاقة. وقد تعلم الغرب الخبرات الصعبة بالنسبة لعدم فاعلية العلاقات الاستراتيجية الصائبة التي يتم تأسيسها مع الدول المصدرة للبترول لتأمين إمدادات الطاقة.

لم تكن مستويات استثمار المساهمين في شركات البترول ـ ونعني بذلك الحقوق المستحقة في البترول الذي تنتجه شركات معينة ـ ضئيلة نسبيًا مقارنة بالحاجات المتزايدة لاستيراد النفط فقط، وإنما نجد أيضًا أن ملكية الاحتياطيات والمخزونات من النفط لا يمكنها أن تغير من وقع أو تأثير التغيُر العالمي على صعيد أسعار النفط. وباختزان النفط للاستخدام الخاص فإن المساهمين ستفوتهم فرص بيع البترول بأسعار عالمية الأمر الذي يمكن أن يكلفهم نفس الشئ مما لو أنهم باعوا النفط في السوق المفتوح. علاوة على ذلك، عدد كبير من

الدول المنتجة للبترول قد تميل أثناء انهيار كبير للسوق إلى أخذ حصة أكبر من الإيجارات من المستثمرين الأجانب الأمر الذي يخفّف ميزة امتلاك النفط في الخارج، وحتى نفط المساهمين نفسه يمكن أن يتعرض للنقصان الأمر الذي يمكن أن يجبر المساهمين على الدفع به في سوق الصفقات الفورية، وذلك بنفس أسلوب هؤلاء الذين لم يستثمروا للحصول على نفط المساهمين. وتعد اتفاقات البيع الثنائية أقل فاعلية كما يشهد التاريخ بذلك لأن الموَردين للنفط قد يبيعون نفطهم لمن يعرض أعلى الأسعار في فترات الأزمات التي تتعرض لها الأسواق أو في حالة إمدادات طارئة.

سياسة الولايات المتحدة بالنسبة للطاقة

يحذر البعض من أن الولايات المتحدة نفسها ستكون في حالة أقرب إلى إنشاء شركة بترول وطنية وذلك لتنافس شركات أخرى للحصول على الموارد النادرة والشحيحة. وهذا الأمر لا يبدو محتملاً؛ وكما أثبتت دراسة حديثة قام بها معهد بيكر عن دور شركات البترول الوطنية في أسواق الطاقة العالمية فإن شركات البترول الأمريكية الخاصة والتي تبحث عن البترول على مستوى العالم أكثر كفاءة وإنتاجية مقارنة بأي شركة تديرها الحكومة، ويمكن أن تنشئها الحكومة الأمريكية. ولعل مسألة التنافسية المستقبلية للشركات الأمريكية واستمرارها في قدرتها على الوصول إلى مصادر الطاقة، يمكن أن نجيب عنها لو تفحصنا مبادرات الحكومة الأمريكية في مجالات حيث يكون لواشنطن سلطة وخبرة كالأمثلة التالية:

- تعزيز وتقوية معاهدات التجارة والاستثمار الثنائية مثل منظمة التجارة الحرة ونافتا NAFTA وامتياز الطاقة ومنظمات أخرى.
- الاستفادة من المعونة الأمريكية واستغلالها في أماكن نفطية غنية

حيث تكون الحاجة إلى المساعدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية مستمرة.

- تعزيز صورة المؤسسات الدولية الهامة كالبنك الدولي وبنك التنمية الآسيوي في دعم وتقوية الشفافية والحكم في المناطق المنتجة للنفط.
- الأهم من كل ذلك دعم سياسة وطنية محلية شاملة يمكن أن تعزز أمن الطاقة وزيادة مصداقية الولايات المتحدة على المسرح العالمي.

كانت سياسة الولايات المتحدة على مدى عدة سنوات تعمل على تنويع إمدادات النفط حول العالم، ولقد كانت هذه السياسة ناجحة في الثمانينيات والتسعينات مع الأخذ في الاعتبار ظهور مناطق أخرى للإنتاج النفطي في جنوب أفريقيا ووسط آسيا بالإضافة إلى الإنتاج غير التقليدي من النفط والغاز في أمريكا الشمالية. إلا أن معدل الكسب في إنتاج البترول من الدول التي لا تنتمي إلى منظمة أوبك قد بدأ يعلو مؤخرًا على الرغم من الأسعار المرتفعة جدًا للنفط وهذا يعكس القيود الجيولوجية والعوائق السياسية والبيروقراطية للاستثمار في مناطق الجذب مثل روسيا والحوض الكاريبي والمكسيك.

ونشهد الآن تصاعد القومية بالنسبة للمصادر البترولية في كبريات الدول المصدرة للنفط، وهذا ما يحبط التعاون بين مجموعة المنتجين والمستهلكين كما تشهد السخط المتزايد والعنف المنتشر في مجتمعات الدول المصدرة. فالسكان المحليون في دول مثل بوليفيا أو في أماكن مثل دلتا النيجر لا يشعرون بالمزايا الاقتصادية التي يمكن أن تعود عليهم من تطوير حقول النفط والغاز في أراضيهم، هذا علاوة على الأعباء التي يتحملونها نتيجة للظلم الاجتماعي والتلوث البيئي، وكل هذه العوامل يمكن أن تكون حجر عثرة في طريق الاستثمار في صناعة الغاز والنفط مما يؤدي إلى عجز أكبر في إمدادات الطاقة على المستوى العالمي مما يعانيه العالم اليوم.

هذا الوضع المتردي يدفع صانعي السياسة في الولايات المتحدة وأوروبا وكوريا الجنوبية والصين واليابان إلى تأمله والبحث عن خيارات أخرى لضمان أمن الطاقة لمواطني هذه الدول.

الطاقة مقابل المناخ الجيوسياسي

إن الوضع الغامض لأسواق البترول علاوة على المخاطر المتزايدة لعدم الاستقرار السياسي في منطقة الشرق الأوسط أصبح أمرًا معروفًا للداني والقاصي. والإصلاح السياسي والاقتصادي في منطقة الشرق الأوسط يواجه تحديات قوية. فهناك فجوة كبيرة بين أجندة الإسلاميين الأصوليّين الجهاديين والنظم الأوتوقراطية التي تعتمد على الانتخابات المشبوهة. والمنطقة بأسرها تواجه مشاكل اقتصادية واجتماعية حادة ـ بينما تواجه الحكومات تحديات كبيرة في رسم سياسات يمكن أن توفر المواد والمصادر المالية الكافية إلى جانب الوظائف والخدمات الأساسية الكافية لجماهير الشباب الذين تزايد قلقهم من تفاقم الأمور وصعوبة الأحوال. والوضع الراهن الهش الذي يعاني منه الإصلاحيون والإسلاميون وشرائح الطبقة المتوسطة وأجهزة الحكم يمثل مشكلة كبيرة يمكن أن تدخل المنطقة كلها في حالة من عدم الاستقرار والاضطراب.

وتواجه السعودية على وجه الخصوص تحديات خطيرة. فميزانية الأمن في السعودية تقدر بأكثر من 8 بلايين دولار عام 2004، ولقد صعدت المملكة من هجماتها على خلايا الإرهابيين وأحرزت تقدمًا في استئصال الفروع المحلية لتنظيم القاعدة. ومع كل ذلك فإن القاعدة قامت بعدة هجمات على البنية التحتية للطاقة وذلك خلال العديد من السنوات. ولقد أحبطت قوى الأمن السعودية هذه الخطط التي يضعها الإرهابيون إلا أن القليل يعتقدون أن القاعدة ستتخلى عن مساعيها في زعزعة الأمن في المنطقة. ولقد أنفقت السعودية ما يقارب 1.2 بليون دولار لتكثيف قوى الأمن حول منشآت الطاقة. ويقدر عدد قوات الأمن التي

تقوم على حماية البنية التحتية للنفط في السعودية ما بين 25 ألفًا و30 ألفًا من الجنود.

كان بن لادن والمتطرفون الإسلاميون يعتقدون في البداية أن منشآت الطاقة في العالم الإسلامي يجب الإبقاء عليها حيث إنها تشكل ثروة الدولة الإسلامية المستقبلية. وبحلول كانون الأول/ديسمبر عام 2004 لم يبق بن لادن على رأيه هذا ودعا مؤيديه إلى الهجوم على المنشآت النفطية كجزء من الجهاد ضد الغرب، ولقد نجحت القاعدة في الهجوم على منشآت تكرير البترول في أبقيق في شباط/فبراير عام 2006. وفي رسالة إلى العالم تبنى تنظيم القاعدة الهجوم وأعلن مسؤوليته عنه كجزء من الحرب على النصارى واليهود ولإيقاف نهبهم لثروات المسلمين. ولقد كانت هجمات القاعدة السياسية والحقيقية عاملاً في الجدل الداخلي الدائر حول السقف المناسب لأسعار البترول؛ ومع ذلك فمهما كانت هناك خلافات في دوائر الحكومة بالنسبة للاستراتيجيات المثلى في هذا الشأن فما زالت السعودية مستمرة في زيادة قدرتها الإنتاجية لتعزيز دورها العالمي كمنتج أساسي ورئيسي للبترول.

وبينما استمر النمو الاقتصادي العالمي في التزايد، رأت كل من العراق وفنزويلا وهما دولتان أساسيتان منتجتان للبترول أن القدرة الإنتاجية قد تناقصت. أما العوامل السياسية الداخلية فقد أوقفت الكويت وإيران عن الاستثمار في مجال النفط، في حين أن السعودية صعّدت من طاقتها الاستثمارية. أما ميزانية التطوير في أرامكو والتي بلغت 2.4 بليون دولار في الأساس عام 2007 فقد زادت إلى 4 بلايين دولار، وهذا بالطبع يعكس التكاليف المتصاعدة لعملية التطوير علاوة على الإلحاحية في السعر لتحقيق أهداف التوسع بصرف النظر عن التكاليف. أما تصاعد الإنفاق السعودي، فيعكس الاعتراف بأن أسواق النفط تواجه 4 نقاط محتملة من إمدادات أوبك للنفط (إيران، العراق، نيجيريا، فنزويلا). وتهدف سياسة السعودية إلى جعل المملكة تؤثر على أسعار النفط وأسواقه في أي وقت وتحت أي طارئ

وبذلك يمكنها أن تحافظ على أهميتها الجيوسياسية. والمملكة تسعى إلى إضافة القدرة على تكرير البترول في المملكة والخارج وذلك للتأكد من أن لديها منافذ لتكرير النفط الخام الثقيل.

ولقد أعلنت السعودية بأن هدفها هو توفير القدرة الإضافية وذلك للتعويض عن أي انقطاع أو تقليل للصادرات الإيرانية من النفط. هذا بالإضافة إلى أن المملكة يمكنها أن توجه سياستها للاستجابة للتحديات الجيوسياسية. ودور إيران في العراق وأماكن أخرى من المنطقة له تأثير كبير على الاستقرار في عموم منطقة الشرق الأوسط علاوة على أمن الطاقة. والواقع أنّ حربًا موسعة بالوكالة في العراق تغذيها أعمال يقوم بها جيرانها يمكن أن تسهم في خلق أزمة سياسية وإنسانية ذات أبعاد كبيرة ويمكن أن تكون مدفوعة للمنطقة ككل. فالتوسع في أعمال العنف في العراق وما بعده يمكنه أن يلحق الضرر الكبير باستقرار السوق النفطية.

تهديد إيراني محتمل

لقد عبرت السعودية عن قلقها بالنسبة لهذا السيناريو، فعلى المستويات السياسية العليا كان القلق كبيرًا من تدهور الأوضاع في العراق والأزمة التي يمر بها هذا البلد ومن ثم كان الخوف من تعميق موجات العنف السائدة ومصير المجتمع في العراق. لدى الحكومة السعودية اهتمام قوي بالمصالحة الوطنية في العراق والتعايش السلمي لكل من الشيعة والسنة العرب. ويسكن في السعودية مجموعة كبيرة من الشيعة في المنطقة الشرقية للمملكة. ويشكل الشيعة الغالبية من القوى العاملة في شركة أرامكو. وبفضل دورها القيادي الإقليمي وموقعها كحام للأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وعلاوة على روابطها الوثيقة بالعراق ولبنان وسكانهما من الشيعة، فإنّ للسعودية مصلحة استراتيجية في السيطرة على الأوضاع في طهران.

وهناك الكثير من الإشارات التي تصدر أحيانًا من بعض دول الخليج والتي تفيد بأن بإمكانها تأييد المقاتلين السنة وذلك لحماية مصالحها ضد الميليشيات الشيعية التي تدعمها إيران، إلا أن هذا السيناريو يمكن أن ينبثق إذا لم يتحقق الاستقرار بالطرق السياسية، غير أن عواقب وخيمة يمكن أن تحدث لو تحقّق مثل هذا الأمر.

أما من جانبها فإن إيران قد أخبرت جيرانها بأنها يمكن أن تكون أكثر عدائية؛ وقد ظهر هذا من تصريح لحسين شريعتمداري وهو مستشار للزعيم الروحي علي خامنئي ورئيس تحرير جريدة "كايهان" الإيرانية، بأن الشيعة في البحرين يطالبون بإعادة توحيد هذه "المديرية الإيرانية في الوطن الأم إيران". وبينما قام القادة الإيرانيون بالتعليق على هذا التصريح وبالتالي تعديله، إلا أن الأثر السياسي الذي تركه هذا التصريح في دول الخليج كان ملحوظاً. وحتى هذه اللحظة استجاب مجلس التعاون الخليجي لهذا التصريح بزيادة الإنفاق العسكري، ولقد ألمح بعض المحللين السياسيين أن الملك عبد الله يمكنه أن يتخذ قرارًا بخنق التمويل الذي توفره إيران لميليشياتها التي تدعمها، والتي ينظر إليها السعوديون على أنها قوة مدمرة للوحدة الوطنية في كل من العراق ولبنان، وذلك من خلال سياسته النفطية، فإذا زادت المملكة من إنتاجها وانخفضت أسعار البترول من 25 إلى 50 في المئة، فإن المملكة ستظل قادرة على تمويل إنفاقها الحالي، إلا أن ضعف عائدات البترول يمكن أن يكون له أثر مدمر على إيران التي تواجه صعابًا اقتصادية. فإيران تواجه عجزًا في الميزانية يقدر بأكثر من 15 بليون دولار كل ثلاثة أشهر. ويشير المحللون إلى أن عدول السعودية عن تخفيض إنتاجها في كانون الأول/ديسمبر 2006، عندما انزلقت الأسعار إلى حاجز الخمسين دولاراً، كإشارة إلى طهران بوجود عواقب إذا لم تتخذ سياسات تتسم بالمزيد من التعاون في العراق وفي مفاوضاتها بالنسبة لطموحاتها النووية. وعلى أي حال فإن هذا التراشق اللين بين إيران ودول الخليج سيستمر مع بذل كل المساعي لتبنّي سياسات أكثر تعاونًا، بينما سيظل كل طرف حذرًا من تعامله

مع الآخر. وهذا الموقف ينعكس في صورة فارسية قديمة مرسومة بالفسيفساء في منزلنا، حيث يجلس أمام شاه إيران فارسان يقدمان الفاكهة بيدٍ واحدة بينما يضع كل منهما يده الأخرى على سيفه.

إلا أن إمكانية حدوث صراع موسع في عموم منطقة الشرق الأوسط ما زالت تمثل عامل خطر بالنسبة لأسواق الطاقة. فأسواق الطاقة المحكمة وأسعار النفط العالية والتي وصلت إلى أكثر من 100 دولار للبرميل تلقي الضوء على قابلية الاقتصاد العالمي للتأثر من جراء الظروف التي تحيط بنا في هذه المنطقة.

وبمنأى عن التحديات السياسية التي تواجه الخليج، فإن المنطقة في حاجة إلى التصدي لقضية انتشار أسلحة الدمار الشامل. وبالنظر إلى كيفية التعامل مع إيران بالنسبة لسياستها النووية لا يجب أن يغيب عن ذهننا أن لدى طهران الرافعة الجغرافية لخنق تدفقات النفط والغاز عن طريق مضيق هرمز. واستمرار إيران في برنامجها النووي وقدراتها في هذا المجال يمكن النظر إليه في هذا الضوء. فالتهديدات الإيرانية باستخدام سلاح النفط في استجابتها لمبادرات الولايات المتحدة التي تسعى إلى إعاقة طموحات إيران النووية قد دفعت بالأسعار عاليًا ليصبح برميل النفط عالي التكلفة في خريف عام 2006 ويظل هذا السعر العالي سمة لتقلب الأسعار في هذه الأيام.

ويظل التدفق الحر للنفط عن طريق مضيق هرمز له أهميته الاستراتيجية الحيوية بالنسبة للاقتصاد العالمي والولايات المتحدة وحلفائها الآسيويين. ولقد كانت هناك العديد من التحديات لحرية الملاحة في مضيق هرمز والمناطق المجاورة في العقود الأخيرة، وكان أكبر تهديد واجه حرية الملاحة في الخليج في السنوات الأخيرة يتمثل في حرب الثماني سنوات بين إيران والعراق. ولقد استجابت الولايات المتحدة لهذا التحدي المتمثل في الهجوم على شحنات النفط العابرة من المضيق بترتيب أسطول من المدمرات وكاسحات الألغام في المنطقة، وذلك للتصدي للتهديد الموجه ضد شحنات النفط العابرة. وبدأت قوارب البحرية

الأمريكية في العمل لصد أي هجمات انتحارية على سواحل العراق؛ والآن تسعى شركات الشحن إلى الطلب من القوات الأمريكية توفير ما يمكنها من قوارب حربية لمصاحبة السفن المحملة بالنفط. ودقة هذه العمليات تذكرنا بالأزمة التي لم تدم طويلاً والمتعلقة بالقبض على 15 بحارًا بريطانيًا من قبل إيران عام 2007. ويظل قادة الخليج قلقين بالنسبة لإمكانية حدوث هجوم إيراني على منشآت النفط في الخليج والذي يمكن أن يتم مباشرة أو من قبل جماعات إرهابية.

والمحافظة على التدفق المستمر والحر للنفط في الأسواق العالمية ليس أمرًا يخص الولايات المتحدة، بل أمرًا يخص العالم بأجمعه. سيشكل كل من حسم النزاعات والتعاون الدولي مفتاحًا لمجابهة التحديات الاستراتيجية التي تتعلق بمستقبل الطاقة وحاجات الأمم منها. وثمة حاجة لإجراء نقاش واسع على المستوى الحكومي للتحديات العالمية التي نواجهها في مجال الطاقة ولإيجاد أفضل الوسائل لتحقيق أمن الطاقة. فإذا شعرت الدول بالثقة بدرجة كبيرة في قدرة أسواق الطاقة العالمية على توفير الإمدادات الضرورية لاقتصاداتها، فإنها ستشعر بأنها أقل ميلاً للمراهنة؛ فعلى سبيل المثال يمكن استخدام شركات البترول الوطنية لبناء تحالفات مع أنظمة. وفي حال شعر المنتجون بالأمان في ما يتعلّق بوصول البترول إلى أسواق المستهلكين للطاقة في الخارج وبأن رهانهم على النظام العالمي سيحسّن حياة مواطنيهم، فإنهم لن يستخدموا مصادر الطاقة كمصدر قوي للتميز على جيرانهم أو شركائهم التجاريين الأكثر ثراءً.

تغير المناخ العالمي

إن التحدي لتلبية حاجات العالم من الطاقة في المستقبل يذهب إلى أبعد من النقاش حول مستقبل الشرق الأوسط. فتغير المناخ العالمي قد أثار أسئلة صعبة بالنسبة لاستخدام الطاقة؛ فالدول المستهلكة وعلى رأسها الولايات المتحدة

يمكنها أن تقوم بالمزيد من الأفعال. ولقد كان اقتراح جورج بوش الذي قدمه في خطاب الاتحاد والمتعلق برفع مستويات الكفاية للوقود المستخدم في السيارات ومحاولة الحد من الحاجة المتزايدة للبترول في الولايات المتحدة، شكّل خطوة إلى الأمام في الطريق الصحيح. وبالطبع سنعترف بخطورة إدمان الولايات المتحدة المتمردة على البترول. ولا شك في أننا بحاجة إلى استراتيجية أفضل وأكثر شمولية للطاقة في هذا البلد.

ولقد أشار صندوق النقد الدولي إلى أن استهلاك البترول في الولايات المتحدة كحصة من الناتج المحلي الإجمالي تصل إلى ما يقارب خمسة أضعاف مقارنة مع الدول الصناعية الكبرى. ويمثل استهلاك البنزين 45% من استهلاك البترول و70% من الزيادة المتوقعة على الطلب على النفط في العقود المقبلة. وفعالية الوقود في الولايات المتحدة تصل إلى أقل من 25% مقارنة مع فعاليّته في الاتحاد الأوروبي و50% في اليابان. وفي تعليق لتوماس فريدمان في جريدة نيويورك تايمز يقول: "لا عجب في شكوك العالم حول جديتنا بالنسبة لقضايا الطاقة".

ولقد مرت ثلاثون سنة تقريبًا منذ فرض العرب حظرًا على تصدير البترول الذي وصلت أسعاره إلى أربعة أضعاف ما كان عليه. ولقد دفع هذا الحظر الغرب الصناعي إلى السعي إلى الاضطلاع بما يجب القيام به من أفعال لمنع حدوث مثل هذا الابتزاز مرة أخرى. ولقد أثار هذا الحظر اهتماماً كبيرًا في السبعينيات في العلوم وسياسات الطاقة، ورأينا ولادة برامج أبحاث مهمة تتعلق بتكنولوجيا الطاقة في معاملنا وجامعاتنا، إلا أن تعدد مصادر الطاقة والذي حثّته استجابتنا في السبعينيات لفقدان الأمن المفاجئ المرتبط بالطاقة، قد دفع الطلب على الطاقة في الثمانينيات إلى الانخفاض وصاحبه أيضًا انخفاض في سعر النفط، وحلت بعد ذلك موجة من الرضا عن النفس وانخفضت ميزانيات الأبحاث وأضعنا المبادرات الواعدة وعدنا إلى العربات الكبيرة. وللأسف فإنه بعد ثلاثين سنة من أزمة البترول عام 1973 اضطررنا إلى التوجس مرة أخرى والتفكير في غياب التقدم في مجال التزود بالنفط واستعماله.

وفي بداية عام 2003 بدأ معهد بيكر بالتعاون مع أساتذة جامعة رايس باستكشاف التطورات العلمية التي يمكن أن تسهم في التوصل إلى حلول لمشاكل الطاقة على مستوى العالم؛ فلقد كان معدل زيادة الطلب على الطاقة يستوجب منا الحفاظ عليها في المقام الأول وتحسين التكنولوجيات الحالية في مجال الطاقة.

وعليه، فإنّ دعم هذا النوع من الأبحاث في مجال مصادر الطاقة البديلة والتكنولوجيات الحديثة للحفاظ على الطاقة أمر ضروري ويجب أن يحتل الأولوية الوطنية الأولى. وفي حين أنّ النفط والغاز يظلّان العمود الفقري لاستهلاك الطاقة على مستوى العالم لعقود قادمة، إلا أن مصادر الطاقة المجددة يجب أن تمثل حصة تتزايد يومًا بعد يوم في مجال إنتاج الطاقة ومن ثم فإن الابتكار العلمي يلعب دورًا أساسيًا في هذا المجال.

مستقبل مبني على الشراكة

إن شبكات تصدير الطاقة الإقليمية المعززة ونقل الأبحاث والتكنولوجيا المشتركة التي تهدف إلى توفير الكفاءة في استخدام الطاقة، علاوة على الجهوزية المشتركة للطوارئ، كل هذا يمكن أن يكون حصيلة التعاون الجماعي بين الشعوب المستهلكة في الغرب وآسيا بالنسبة للسياسة المتبعة في مجال الطاقة. ويجب التركيز على حاجتنا لبناء جسور من التعاون الدولي للتعامل مع قضايا البيئة بروح من المشاركة الجماعية وتجنب التنافس الثنائي الخطر للتزود بالإمدادات النفطية التي يمكن أن تقود إلى الصراع وانهيار السوق. إن من مصلحة كل من الدول المستهلكة والمصدرة للنفط على السواء أن ينبني مستقبل الطاقة على الشراكة وليس الصراع؛ لا يمكننا أن نسمح لمنطقة الشرق الأوسط أن تكون مسرحاً للعنف المأساوي أو ساحة مواجهة بين القوى العظمى على الطاقة. ومن ثم فإن التعاون الدولي في مجال الأبحاث والتنمية

يجب أن يكون السبيل إلى تعزيز سياسة فعالة للطاقة ووضع أساس للتقدمات المفاجئة في طاقة نظيفة وموزعة المصادر يمكن أن يستفيد منها سكان الريف في العالم النامي.

ويجب أن يهدف مثل هذا البحث إلى إحداث قفزات ثورية في الوقود المستمد من الشمس والرياح والفحم النظيف والهيدروجين وخلايا الوقود وشبكات الطاقة الكهربائية التي يمكن أن تربط كل مصادر الطاقة. ومثل هذا الجهد البحثي الذي يقوده العالم الصناعي يمكن أن يأتي بالفوائد الكثيرة على كل الشعوب على صعيد التقليل من الفقر في الطاقة وتعزيز حماية البيئة على المستوى العالمي. والواقع أنّ المنحى العالمي للتصدي لقضايا الطاقة التي نواجهها أمر يفرض نفسه بالقوة لتحقيق سلام ورخاء كل الدول، وعلى الولايات المتحدة أن تقود هذه المسيرة وتحشد إرادتها السياسية لخلق سياسة فعالة داخلية. فالمساعي الفعالة للتقليل من استخدام النفط من خلال تبني تكنولوجيات فعّالة للانتقال والتحول إلى الوقود البعيد عن النفط سيساهم مساهمة فعالة في خلق مستقبل إيجابي للطاقة. وعليه، فإن المساعي السياسية لخلق سياسة داخلية للطاقة تكون أكثر شمولية، بالإضافة إلى المساعي الدولية لضمان إمدادات الطاقة وأمنها، التي يمكنها أن تعزّز المصالح الإقليمية والدولية وتدعم مصداقية الولايات المتحدة في الداخل والخارج.

الفصل العاشر

الدبلوماسية العامة وصوت أمريكا

أخبر جان - دافيد لوفيت (سفير فرنسا السابق لدى الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومي للرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي) آدم غوبنك أنّه عندما قابل ساركوزي وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس قالت: "ماذا يمكنني أن أفعله من أجلك؟" وقال الرئيس بنغمة تتسم بالتبلد: "حسنوا صورتكم أمام العالم؛ إنه من العسير علينا أن نجد أقوى دولة وأكثرها نجاحًا وزعيمة عالمنا هي أكثر الدول غير الشعبية. وهذا يشكل الكثير من المشاكل لكل حلفائكم. قوموا بفعل كل ما يمكنكم فعله لتحسين تصور العالم لكم. هذا ما يمكنك فعله من أجلي". وبتفاؤل حذر أضاف ساركوزي "أعتقد أن هذا أمر ممكن تمامًا، إن مخزون الإدارة الطيبة قد استنزف ولكنه بعيد جدًا عن الجفاف".

وفي واقع الأمر كانت الوزيرة رايس تشعر بالحاجة الماسة والشديدة للدبلوماسية العامة لتعزيز المصلحة القومية من خلال الاستماع والفهم أولاً ثم تقديم المعلومات والانخراط والتأثير على العامة من الناس في كل بقعة من

العالم. وكانت أيضًا تدرك أنني أنظر إلى السياسة العامة كأداة رئيسية قد صدئت نتيجة الإهمال والكف عن استخدامها. وفي عام 2003، بناءً على طلب وزير الخارجية كولن باول وافقت على رئاسة مجموعة من رجال الكونغرس من كلا الحزبين وذلك لإسداء المشورة والنصح في مجال الدبلوماسية العامة الموجهة للعالم الإسلامي والعربي. ولقد عملت مع كولن باول أثناء حكم ريغان وبوش الأب، وبالنظر إلى علاقتنا الشخصية والمهنية الوثيقة وافقت على الاضطلاع بهذه المهمة، وعلى أن أحاول أن أكون مفيدًا ونافعًا.

ولقد جاء الدافع لهذا المجهود من أعضاء الكونغرس الذين شعروا بالإحباط من استراتيجية وفعالية الدبلوماسية التي لم تكن كافية منذ تفكيك بنية الوكالة الأمريكية للمعلومات عام 1999. وفي أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وحربي العراق وأفغانستان بدأ أعضاء الكونغرس يسعون إلى التوصل للتوصيات التي يمكن أن تقدم لإعادة تنظيم وظائف ومهام الدبلوماسية العامة في الحكومة للتصدي لتحديات الأمن القومي والسياسة الخارجية وخاصة تلك المتعلقة بالعالم الإسلامي والعربي.

ولقد قمت بتجنيد أعضاء هذه المجموعة من كلا الحزبين ومن القطاع العام والأكاديميين والموظفين العموميين السابقين. وكنا نلتقي بانتظام في الفترة ما بين تموز/يوليو وأيلول/سبتمبر عام 2003 واتصلنا بالعديد من الخبراء والمتمرسين في الولايات المتحدة وأوروبا والعالم الإسلامي والعربي من أفريقيا والشرق الأوسط وباكستان وإندونيسيا. وفي الأول من تشرين الأول/أكتوبر عام 2003 نشرنا ما توصلنا إليه في تقرير تحت عنوان "تغير الآراء وكسب السلام"، وهو عبارة عن توجه استراتيجي جديد في مجال السياسة العامة الأمريكية في العالم الإسلامي والعربي، والكثير مما نذكره في هذا الفصل مأخوذ من التقرير.

وفي عام 2005 بعد تعيين كوندوليزا رايس رئيسة لوزارة الخارجية، طلبت

منّي أن أعدّ خطة استراتيجية لسياسة الولايات المتحدة العامة تكون مبنية على تقرير المجموعة الاستشارية، ثم ما لبثت أن عملت معها ومع كارين هيوز مساعدة وزير الخارجية للشؤون العامة ونائبها دينا باول. ولقد أحدثوا تغيرات تنظيمية كبيرة وزادوا من الموارد المخصصة للدبلوماسية العامة على صدى توصيات المجموعة الاستشارية. وبينما كان هناك تأكيد على الخطة الاستراتيجية والتي تنحصر في مهمة نقل سياسات أمريكا وتوصيل قيمها(بأسلوب أكثر فاعلية) إلى العالم، ظلت هذه المهمة تشكل تحديًا كبيرًا.

في عام 2002 في تقرير دوري لاستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة أعده الفرع التنفيذي، بدأ بوش يدرك أهمية تكيف الدبلوماسية العامة للتصدي لتحديات ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ويقول جزء صغير من هذا التقرير: "حيث يتوجب على مؤسساتنا الدبلوماسية التكيف حتى يمكننا التواصل مع الآخرين إلا أننا في حاجة أيضًا إلى منحى مختلف أكثر شمولية بالنسبة للمساعي المبذولة في مجال الإعلام العام والتعريف بالولايات المتحدة وفهمها. فالحرب على الإرهاب لا تعني صراع الحضارات ومع ذلك فهي تميط اللثام عن هذا الصراع داخل الحضارة وهي معركة لمستقبل العالم الإسلامي وهذا لا يعدو إلا أن يكون صراعًا للأفكار، وهذا هو المجال حيث يجب أن تُبدع أمريكا".

هذا البيان المحوري للهدف الاستراتيجي لدبلوماسية الولايات المتحدة في علاقتها مع العالم الإسلامي والعربي يجب أن يكون مرشدًا لسياستنا. ولسوء الحظ فإن الإدارة الفعلية لسياستنا وصراع الأفكار بين قوى الاعتدال وقوى التطرف في العالم الإسلامي قد صنفت تحت ما يسمى " الحرب العالمية على الإرهاب"؛ فالحرب على الإرهاب في واقع الأمر تشكل مجموعة جزئية مميتة من هذا الصراع الأكبر والذي ينجم عنه نتائج مباشرة ترتبط بمصالح الأمن القومي الأمريكي كما أوضحت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. والهدف الاستراتيجي يجب أن ينحصر في تهميش المتطرفين سواء كانوا علمانيين أو

متدينين ودعم المعتدلين والبقاء بجانبهم في دول العالم الإسلامي. وهذا بالطبع يتطلب استراتيجية واسعة تكون الدبلوماسية العامة وسيلتها الهامة.

إعادة إحياء الوكالة الأمريكية للإعلام والمعلومات

لقد كان خطأ فادحًا عندما تقرر عام 1999 تفكيك بنية الوكالة الأمريكية للإعلام والمعلومات، وذلك من منطلق الافتراض المغلوط بأن الصراعات الأيديولوجية قد انتهت بنهاية الحرب الباردة. فنحن لسنا في حاجة إلى منظمة تختلف عن وزارة الخارجية بالنسبة لصراع الأفكار، وعليه فإن أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر قد وضعت نهاية لهذا المفهوم الخاطئ.

إن اندماج الوكالة الأمريكية للإعلام في وزارة الخارجية كان الهدف منه تقريب الدبلوماسية العامة أكثر من ذي قبل إلى عملية صنع القرار؛ إلا أن هذا الهدف لم يتحقق. ففي المقام الأول نجد أن الثقافة المؤسساتية لوزارة الخارجية استمرت في رأيها بالنسبة للدبلوماسية العامة على أنها وظيفة ثانوية ومسار مجرى حياة أو مهنة. هذا علاوة على أن وضوح التنسيق والتواصل الذي ميز العلاقة بين المركز الاستراتيجي للوكالة الأمريكية للإعلام في واشنطن والوظائف المعلوماتية في هذا المجال، كان يجب مضاعفتها تمامًا وذلك في إطار الهيكليات الجديدة التي وضعها كل من كلينتون وبوش.

ولعل الجهود المبذولة للجمع بين ما تركز عليه وزارة الخارجية تقليديًا على تمثيل السياسة والتحليل وكتابة التقارير مع ما تركز عليه الوكالة الأمريكية للإعلام في المقام الأول وهو الوصول إلى الجماهير والبرامج، قد أحدثت تقدمًا في السنوات الأخيرة. فعلى سبيل المثال نجد أن خطاب الرئيس الموجّه لرؤساء البعثات قد تمّت مراجعته وذلك للتأكيد على الأهمية الكبيرة للدبلوماسية العامة بالنسبة للأمن القومي ولإلقاء الضوء على أن رؤساء بعثاتنا السفراء سيشاركون

شخصيًا في الدبلوماسية العامة والتأكد من أن أعضاء سفاراتهم يقومون بنفس المهمة. ولقد أكد وزير الخارجية هذه الخطوة من خلال تكراره لهذه الرسالة في مراسلاته الرسمية إلى الموظفين العاملين بالسفارات، وذلك عن طريق مساعدي وزراء الخارجية. فلقد عُدلت متطلبات العمل لكل موظف يعمل بالخارج ليشمل المشاركة المناسبة في الدبلوماسية العامة، ويعد كل موظف مسؤولاً عن هذه المشاركة وذلك في عملية تقييم الأداء الوظيفي.

وفي إطار الوكالة الأمريكية للإعلام هناك قناتان للتواصل والتنسيق تربطان مدراء الوكالة الكبار بالعاملين، وذلك من خلال الموظفين المخصصين لمناطقهم الجغرافية. وتوفر هذه القنوات سبل التبليغ عن الإرشاد الاستراتيجي وتطويرها، فضلاً عن برامج خاصة بكل دولة، وتخصيص الموارد البشرية والمالية في الداخل والخارج وتتبّع الاتجاهات السائدة في الرأي العام الخارجي (الأجنبي) وكتابة تقارير تتعلق بالنتائج، واعتبار الموظفين العاملين مسؤولين عن أدائهم.

وباندماج الوكالة الأمريكية للإعلام في وزارة الخارجية نجد أن هذه القنوات قد افتقدت وضوحها. فلقد أصبحت الصلة السابقة المباشرة بين المدراء الكبار للوكالة وموظفي الشؤون العامة والتي كانت تتم من خلال موظفي المناطق أصبحت غير مباشرة. وهذا يرجع إلى القيادة المنفصلة لكل من مساعد وزير الخارجية للدبلوماسية العامة والشؤون العامة من جهة ومساعد وزير الخارجية للتقسيمات الجغرافية ورؤساء البعثات الدبلوماسية ونوابهم الذين يضطلعون بمهمة تقييم أداء الموظفين العموميين، من جهة أخرى.

ولعلاج هذا الخلل، أوصينا في التقرير الاستشاري وتقرير الخطة الاستراتيجية بتقوية دور مساعد وزير الخارجية، وذلك اعترافًا بالمسؤولية الكاملة لشاغلي هذه المناصب بالنسبة لفاعلية برامج إدارة الدبلوماسية العامة. ولقد تم القيام بالكثير لتطبيق هذه التوصية.

فجوة الجهل باللغات الأجنبية

لكي تلعب الدبلوماسية دورًا حاسمًا في التصدي للتحدي الاستراتيجي الذي تواجهه الولايات المتحدة في العالم العربي والإسلامي لا بد وأن يتوفر المزيد من التمويل والمزيد من الموظفين المهنيين الذين يتوجب تجنيدهم من بين هؤلاء المتفانين لخدمة قضايا العالمين الإسلامي والعربي. ولا بد من توفر الطلاقة في اللغات المحلية ومعرفة وفهم المجتمعات العربية والإسلامية. واللغات الأساسية هي العربية والإيرانية والأفغانية والتركية والأوردية بالإضافة إلى الإندونيسية.

ونحن في حاجة إلى مراجعة اللغات التي يقوم بتعليمها معهد اللغات الأجنبية والتدريب الإقليمي، وكذلك أشكال وأنماط المهمات للتأكد من الخبرة الإقليمية والطلاقة اللغوية التي يجب أن تكون أساسًا للتوظيف في السلك الدبلوماسي.

وكما قلنا فإن صراع الأفكار صراع يرتبط بالأجيال، ويتوجب علينا أن نستعد للقيام بعمليات تدريب موظفين على اللغات ودراسة ثقافات دول المنطقة. فعندما أوكلت بمهمة إلى سفارة الولايات المتحدة في موسكو اندهشت للطلاقة التامة التي يتمتع بها الروس باللغة الإنجليزية والتعامل مع أي موقف يتطلب استخدام اللغة أينما وجدوا أنفسهم. ولقد كان ذلك نتيجة لتصميم الدولة السوفياتية على التأكد من وجود الموارد البشرية التي يمكنها التصدي ومواجهة تحدي السياسة الخارجية والأمن القومي، ونعني مواجهة الولايات المتحدة. إن التحدي الذي نواجهه اليوم في العالم الإسلامي هو تحدٍ كبير ويجب علينا التأكد من أن موظفي سفاراتنا من العسكريين والأطقم الاستخباراتية لديهم الأدوات اللغوية الضرورية للتعامل مع هذا العالم بفاعلية.

ولقد ركزت وزارة الخارجية على متطلبات اللغة وأحرزت تقدمًا في هذا المجال، إلا أن هذا التقدم لا يتلاءم والمهمات التي تتصدى لها بالخارج. يجب أن يتزايد عدد هؤلاء الذين يتقنون اللغة غير الإنجليزية، بالإضافة إلى أن الكثيرين

من هؤلاء ليست لديهم الخبرات التدريبية في الدبلوماسية العامة، والاعتمادات المالية المخصصة لتدريبهم ليست كافية. ونتيجة لذلك نجد أن عددًا قليلاً من موظفينا الذين يتحدثون العربية لديهم الطلاقة الكافية والمهارة للدخول في مناقشات وتقديم سياساتنا بفاعلية في الإذاعة والتليفزيون.

وعندما قمت بتقديم تقرير المجموعة إلى الكونغرس والجمهور عام 2003 تعمدت سؤال الحاضرين عما إذا كانوا على معرفة بمبدأ العاملين في السلك الدبلوماسي الذي يمكّنهم من نقاش قضية ساخنة حالية على شاشة قناة الجزيرة، المحطة الفضائية الكبيرة. وبعد فترة توقف أشرت بيدي لكي أومئ بأن هناك خمسة فقط من الذين أعرفهم. أما منذ بداية عام 2003 فإن هناك 54 من ضمن 279 من موظفي وزارة الخارجية الذين تم اختبارهم في مجالي التحدث والقراءة، وكانوا قادرين على التعامل مع المتطلبات الأساسية المهنية. والواقع أن الوضع بالنسبة للغات الأخرى في العالم الإسلامي سيّىء أيضًا.

مسايرة الجزيرة وتخطيها

لقد أظهرت حماسًا كبيرًا للمقترح الوارد في تقرير مجموعتنا الاستشارية والذي يدعو إلى إنشاء وحدة اتصالات مع العالم الإسلامي والعربي، وتكون على نمط وحدة الإعلام الإسلامي التي قام مكتب وزارة الخارجية والكومنولث البريطاني بإنشائها في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. ولقد شجعنا وزارة الخارجية على تأسيس هذه الوحدة تحت إدارة مساعد وزير الخارجية للدبلوماسية العامة. وستعمل وحدة وزارة الخارجية الجديدة مع السفارات في الخارج، ومن ثم ستحدد محتوى الإذاعات والتقارير الصحفية من المنطقة وذلك بهدف تقديم تحقيقات فعالة ودقيقة عن سياسات الولايات المتحدة وقراراتها ومبادراتها، وكذلك الاستجابات وردود الفعل السريعة للآراء والتصورات التي تظهر في الصحافة والإعلام في الدول العربية والإسلامية.

وستنسق على أساس يومي تواصل الإعلام الحكومي (من صحافة وتليفزيون وإذاعة وإنترنت) مع الدول العربية والإسلامية وتوفر الاستجابة السريعة في نشر الرسائل في الوقت المناسب والاستجابة للمغالطات والتشويهات التي ترد في الإعلام الأجنبي.

وستظل الوحدة قريبة من مكتب الاتصالات الدولي في البيت الأبيض الذي يشغله موظفو الدبلوماسية العامة الذين يتمتعون بمعرفة جيدة للمنطقة وكفاءة لغوية عالية، علاوة على تنظيمهم للدول العربية والإفريقية وجنوب ووسط آسيا. وسيستمد هؤلاء معلوماتهم من المكاتب الإقليمية ويتفاعلون معها لتقاسم المعلومات والأخبار.

وستنتج الوحدة محتوى واقعيًا لما يجري من أحداث (أحاديث وافتراضات للصحف وخلافه) للتصدي للمتطلبات الضرورية كالترتيب لظهور موظفي الحكومة الأمريكية في الإذاعة وأجهزة الإعلام الأخرى في الولايات المتحدة والخارج. وسينحصر الهدف على المدى الطويل في توفير المحتوى والسياق اللازمين لتحسين الاتجاهات والآراء تجاه الولايات المتحدة في العالم العربي والإسلامي، ويمكن الاستعانة بهذا النموذج في تأسيس وحدات أخرى لمناطق جغرافية أخرى عديدة.

ولقد سررت وشعرت بالرضا عندما تبنت هذا الاقتراح مساعدة وزيرة الخارجية كارين هيوز ووزارة الخارجية، وأسست الوحدة في وقت قياسي. وهي تعمل اليوم بكفاءة عالية. وعندما زرتها لأول مرة سعدت لرؤية شباب من السلك الدبلوماسي يراقبون برامج التليفزيون ومحطات التلفزيون والفضائيات ويسجلون تحليلاتهم. وكان هناك موظف من أصل عربي يراقب الإنترنت التي كانت تزوده ببعد آخر عن الآراء والأفكار السائدة في المنطقة، وشعرت بحق أنها بداية طيبة.

أدوات السياسة العامة

ما هي الأدوات الرئيسية للدبلوماسية العامة التي يجب تحريكها إلى مستوى من الفعالية العالية.

التعليم وبرامج التبادل الثقافي

يتفق الأمريكيون وكذلك الشعوب العربية والإسلامية على أن للتعليم أهمية حيوية؛ إلا أن الولايات المتحدة لم تستفد الاستفادة الكافية من القيم التي تتشاطرها شعوب العالم مع الولايات المتحدة. على العكس، فالبرامج الأساسية مثل المنح المخصصة لقادة العالم الإسلامي والعربي في المستقبل قد استقطعت وأصبح تمويلها هزيلاً، والكثير من الذين درسوا في الولايات المتحدة وحصلوا على منح تمولها المعونة الأمريكية اكتشفوا أن هذه المنح قد خفضت ووصلت إلى 900 عام 2003 من أصل تعدى 20 ألفًا عام 1980. ولقد تناقصت المنح الأكاديمية والثقافية (مثل برامج الفولبرايت) من واقع 45 إلى 29 ألفاً سنويًا؛ وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر تناقص كثيرًا عدد الطلبة الذين يزورون الولايات المتحدة لعدة أسباب: إجراءات الأمن المتزايدة، والتصورات الخاطئة عن مدى الترحيب بالطلبة، وأخيرًا عامل التكلفة. ولقد أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية عام 2007 عن انعطاف جديد نحو زيادة عدد الطلبة الأجانب القادمين للولايات المتحدة. وتبعًا لتقرير "الأبواب المفتوحة" الصادر عن وزارة الخارجية وصل عدد الطلبة الذين يدرسون في الولايات المتحدة أثناء العام الدراسي 2006/2007 إلى 582984 طالبًا. وهذه المساعي المبذولة للترحيب بالطلبة الأجانب في الولايات المتحدة يتوجب تشجيعها؛ فتقرير" الأبواب المفتوحة" يشير إلى زيادة عدد الأمريكيين الذين يدرسون بالخارج والذي وصل إلى 224 ألف أمريكي في العام الدراسي 2005/2006 وذلك بزيادة تُقدَّر بحوالي

8.5% مقارنة بالسنة الماضية. ومن ثم فإن الزيارات المتبادلة تعتبر علامة فأل جديدة بدأت تظهر في الأفق ولا بد من تشجيعها.

ونحن في حاجة إلى التوسع في برامج التبادل الثقافي والأكاديمي وخاصة في مجالات الصحافة والدراسات الإعلامية التي يمكن أن يكون لها تأثير مباشر على كيفية النظر إلى سياسات الولايات المتحدة في العالم الإسلامي. ولا بد لنا من التفرقة بين متطلبات الأمن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والسياسات والإجراءات الخاصة بتأشيرات دخول الطلبة، وذلك للحد من انخفاض عدد الطلبة الذين يدرسون في الولايات المتحدة. فمكتب التعليم والشؤون الثقافية التابع لوزارة الخارجية وبرامج التعليم والتدريب العسكري في حاجة إلى تكريس الموارد المالية الكثيرة لمساعدة الطلبة العرب والمسلمين للتعلم في الولايات المتحدة، حيث إن الأثر الكبير الذي يمكن أن يتمخض عن زيادة الطلبة المحتاجين لمثل هذا التعليم من عموم منطقة الشرق الأوسط لا يمكن تجاهله على المدى الطويل، وخاصة هؤلاء الذين يأتون من بلاد فقيرة. ونحن في حاجة أيضًا إلى ابتداع أساليب جديدة لربط المؤسسات التعليمية الأمريكية بنظيراتها في الدول العربية والإسلامية؛ ويمكن أن يشمل ذلك منح المؤسسات التعليمية في الشرق الأوسط دعمًا متزايدًا (الجامعة الأمريكية في بيروت والقاهرة والجامعة الأمريكية اللبنانية وكلية روبرت في إسطنبول). كما يجب تقديم المساعدات المالية العامة والخاصة إلى الجامعات العربية والإسلامية التي تتوسع في بناء مراكز الدراسات الأمريكية ومراكز السياسة العامة التي تعزز التفكير النقدي بالنسبة للقضايا الأساسية وتوسع من الفرص الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من أجل عموم المنطقة.

تدريس اللغة الإنجليزية

كانت الدبلوماسية العامة الأمريكية تشمل دائمًا تعليم اللغة الإنجليزية بشكل أو

بآخر، وكانت تستعين بمدرسين أمريكيين وأجانب وتستعمل غرفة تدير برامج للتفاعل على أساس يومي. ومن ثم فإن الدبلوماسية المبنية على التعليم كانت تتمتع بمصداقية كبيرة واحترام لكي تصل إلى جماهير واسعة. ومثل هذا التعليم له التأثير الكبير في نقل المعلومات والمعارف وتشكيل الاتجاهات. وتأثير تعليم اللغة الإنجليزية كبير في هذا المجال. ومن هذا المنطلق يجب علينا:

1. زيادة عدد مدرسي اللغة الإنجليزية وزيادة ميزانياتهم المهملة.
2. التوسع في البرامج التخصصية للغة والتي تتولى إرسال أساتذة أمريكيين إلى الخارج.
3. التوسع في برامج الزمالة للغة التي تهدف إلى تعيين أساتذة أمريكيين في مؤسسات الدول المضيفة كل عام والتي تتضمن قيمًا للتدريس وتدريب المدرسين وتطوير المناهج.

زوايا أمريكية

في عصر أصبحت فيه ترتيبات الأمن والحذر من الهجمات الإرهابية التي جعلت من سفارات وقنصليات الولايات المتحدة تبدو وكأنها قلاع حصينة، ابتعد الاهتمام والقدرة على الوصول إلى الجماهير كثيرًا عن الأعين، وأوى السفراء إلى أماكن إقامتهم وعاشوا في عزلة كئيبة. ومفهوم الزوايا الأمريكية الذي يؤسس لأماكن في المراكز الحضرية بحيث تنفصل عن السفارات، توفر بديلاً عن المراكز الثقافية والمكتبات، وتشكّل منبراً لبرامج متعددة الوظائف للتحدث عن قصة أمريكا ورواياتها للشباب على وجه الخصوص من خلال الكتب والدوريات والإنترنت والموسيقى والأفلام.

وبناء عليه فإن هذه الزوايا يمكن أن تكون أماكن لقاءات لها مردودية بالنسبة للأحداث الأمريكية. ويجب التوسع في الزوايا الأمريكية في العالم العربي

والإسلامي، ويمكن إطلاق مثل هذه الزوايا بتكلفة تقع بين 30000 و40000 دولار. أما المواد التي تطرح فيها فيجب أن تتعدى ما هو متاح الآن من حيث ما يقدم. وأما الموارد المالية فيجب زيادتها وذلك لزيادة أعمال الترجمة إلى اللغات المحلية.

ويمكن أن تتشابه الزوايا الأمريكية فيما تقدمه بما يسمى "مكتبة المعارف الأمريكية"، وهو اقتراح تقدمت به المجموعة الاستشارية لتقديم قراءات ضرورية عن الولايات المتحدة باللغة الإنجليزية وبلغات أخرى في نفس الوقت. ولقد ألححت أنا شخصياً على ترجمة "الأوراق الاتحادية" لكي تكون على أرفف كل هذه المكتبات.

برامج المتحدثين

يعد "البرنامج التخصصي للناطقين بلسان الحكومة الأمريكية" واحدًا من أكثر البرامج وضوحًا حيث إنه يستهدف الغاية من الدبلوماسية العامة على نحو مباشر وفعال وسريع. لذا يجب أن نتوسع في هذا البرنامج وذلك عن طريق توفير اعتمادات مالية هائلة تتعدى التمويل الحالي مع المراعاة الشديدة لإيجاد متحدثين يستطيعون تقديم المساعدة في تحسين المواقف والاتجاهات لدى الناس تجاه الولايات المتحدة. هذا علاوة على ابتداع أساليب مطورة لقياس فعالية وتأثير هؤلاء المتحدثين والبرنامج بوجه عام.

المركز الأمريكي العربي والإسلامي للدراسات والحوار

يجب إنشاء مركز أمريكي عربي إسلامي للدراسات والحوار في هذا البلد، ويجب أن يكون هناك دعم كبير من الحكومة الأمريكية لهذا المركز الذي سيكون بمثابة مؤسسة بحثية تسعى لدراسة سبل التفاهم وتقوية العلاقات

بين الولايات المتحدة ودول العالم الإسلامي والعربي. ويمكن إرساء هذا المركز على منوال كل من مركز دانتي فاسل للحوار بين الشمال والجنوب والتابع لجامعة ميامي والذي يقوم على دراسة قضايا نصف الكرة الغربي، ومركز الشرق والغرب التابع لجامعة هاواي والذي يسعى لتعزيز علاقات أفضل بين الولايات المتحدة ودول منطقة آسيا والمحيط الهادىء. وتقوم الحكومة الأمريكية بتمويل هذه المراكز. ومن الأمور التي تدعو إلى الذهول والدهشة أنه لا يوجد مركز لدعم التفاهم والحوار بين الولايات المتحدة والعالم العربي والإسلامي.

الحوار بين الثقافات والأديان

يشجع المتمرسون والممتهنون للدبلوماسية العامة الحوار بين الثقافات والأديان والذي يجب أن يتم بين كل من المسلمين والمسيحيين واليهود وأصحاب الديانات والعقائد الأخرى وذلك عن طريق المنظمات غير الحكومية والمؤسسات التعليمية والدينية.

التكنولوجيا والاتصالات

تعد تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أمرًا في غاية الأهمية للدبلوماسية العامة، وهذا صحيح حيث نجح الأصوليون الإسلاميون في استخدام الإنترنت للترويج لآرائهم ومعتقداتهم ولتجنيد العديد من القتاليين المناضلين وكسب عقولهم وقلوبهم ليناصروا قضاياهم التي يسعون لنشرها. ومن ثم فإنه يتوجب على كبار الموظفين الأمريكيين المنخرطين في أمور الدبلوماسية العامة أن يضعوا حوافز ومحركات واضحة لاستخدام الحشد المتنامي لشبكات تكنولوجيا المعلومات والإنترنت والأنباء المتاحة عن الحكومة الأمريكية والتي نراها على

مواقعها وذلك بعد ترجمتها إلى العربية والفارسية والتركية والأوردية والأندونيسية واللغات الإقليمية الأخرى الأساسية.

دور القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية

يتوجب على صانعي السياسة الأمريكية تشجيع دور القطاع الخاص وذلك لكي يتمكن من المساهمة في الدفع بأهداف الولايات المتحدة الأمريكية الاستراتيجية من خلال ما تقوم به الدبلوماسية العامة وتوجهاتها في هذا السبيل؛ ولا بد لنا من تشجيع المنظمات غير الحكومية في المجتمعات العربية والإسلامية ودعمها، حيث إن هذه المنظمات تنمو وتتطور بمعزل عن الجماعات المتطرفة والآراء والأفكار التي تسوّق لها. وعليه فإن هذه الجماعات المحلية والمبادرات التي تأتي من هنا وهناك يمكن أن توفر اللبنات الأولى لخلق طبقة متوسطة جديدة تكون بمثابة الأساس لكوادر ديمقراطية وقوة أهلية للإصلاحات الاقتصادية والديمقراطية.

إعلام دولي برعاية الحكومة الأمريكية

لكي تنجح الولايات المتحدة في صراع الأفكار في العالم العربي والإسلامي يتوجب عليها أن تطور استراتيجية إعلامية وصحفية؛ فنحن لسنا متواجدين على الساحة العربية والإسلامية. علينا أوّلًا أن نتفهم المحيط الذي نتعامل معه في تلك المنطقة؛ إلا أن الحقيقة القاسية والمريرة تكمن في أن غالبية الأقطار العربية والإسلامية يجثم على صدرها أنظمة سلطوية ديكتاتورية تعمل تحت مظلتها مؤسسات الدولة والإعلام وقطاعات أخرى أساسية تخضع للرقابة الشديدة. إلا أن حملة للدبلوماسية العامة يجري تطويرها للإعلان في العالم الحر تختلف تمامًا عن تلك التي يجري تطويرها للصحافة والإعلام في ظل محيط تهيمن عليه أجواء

سلطوية وديكتاتورية. وعليه، فإن هذا الأمر لا بد من أن نضعه في الحسبان عند تعاملنا مع "إعلام خاص" تسيطر عليه الدولة؛ كما يجب على صانعي السياسة أن يدركوا أنه من العسير القيام بأبحاث تتضمن إحصاءات في معظم الدول العربية حيث إن القيام بهذه الإحصاءات يدخل في دائرة المحظورات المحرمة قانوناً. ومن ثم فإنه من المستحيل قياس حريات الكلام بنفس الأسلوب كما نفعل في الولايات المتحدة. فهذا الأمر يشكل عقبة أمام تطوير الإعلام ولا يمكن تغيير هذه الأحوال إلا من خلال عمليات سياسية جوهرية.

لقد ظلت الولايات المتحدة تنفق أكثر من 600 مليون دولار سنويًا على الإذاعات الدولية التي ترعاها الحكومة الأمريكية، ويقترب هذا المبلغ من ما تنفقه على برامج الدبلوماسية في وزارة الخارجية مجتمعة. ولقد كان لانطلاقة صوت أمريكا صدى كبير عام 1942، وكان الهدف من إنشائه هو نشر الأخبار والمعلومات عن السياسات والمصالح الأمريكية، على المستوى العالمي، وذلك عن طريق الراديو، وإذاعة أوروبا الحرة وراديو الحرية التي شكلت إذاعات بديلة موجهة للأوروبيين في شرق أوروبا وروسيا القابعين خلف الستار الحديدي، وهي دول يرجع الفضل إليها في المساعدة على كسب الحرب الباردة. ولقد غير سقوط الشيوعية دور الإذاعة بدرجة عميقة؛ ففي عام 1999 (وهو نفس العام الذي شهد تفكيك الوكالة الأمريكية للإعلام) أقر الكونغرس تشريعاً بدمج كل الخدمات الإذاعية التي ترعاها الحكومة ووضعها تحت سلطة هيئة محافظي الإذاعة التي تصف نفسها بأنها "وكالة مستقلة تتمتع بالتلقائية في تصرفاتها وأفعالها"، ويتألف مجلس إدارتها من وزير الخارجية وخمسة من المواطنين غير الحكوميين القادمين من جهات إعلامية عديدة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو مدى النفع الذي يمكن أن يعود على العالم الإسلامي والعربي من رعاية الحكومة لأجهزة الإذاعة الحكومية. وبالأخذ في الاعتبار الكم الهائل من التصورات السلبية والتي تنزع إلى الانتقاد من جانب مستمعي الأخبار في العالم العربي والإسلامي وذلك بالنسبة لآرائهم تجاه

الولايات المتحدة وسياستها في المنطقة علاوة على المعلومات الوفيرة التي يحصل عليها هؤلاء من أجهزة الإعلام الإلكترونية الأخرى، فإنه يمكننا أن نقر بالجهل وعدم استطاعتنا معرفة النفع الذي سيعود من هذه الأجهزة الإذاعية على مواطني هذه الدول، وذلك على عكس مواطني دول الستار الحديدي. إلا أن ما يتوفر لدينا من معلومات يشير إلى شدة الحاجة إلى مراجعة جدية لما تقدمه عبر الأثير وعلى شاشات التليفزيون، هذا علاوة على حاجتنا إلى تغيرات جوهرية في أسلوب تقديم هذه المعلومات والأخبار للمواطن في العالم العربي والإسلامي وذلك للتصدي للتحدي الذي نواجهه في هذا الجزء من العالم.

ويكن الكثير من مواطني الدول العربية والإسلامية العديد من الشكوك حول ما تبثه أجهزة الإعلام والصحافة التي ترعاها أي دولة، وذلك من منطلق تجاربهم وخبراتهم في التعامل مع أنظمتهم السلطوية والديكتاتورية والتي تسيطر على تلك المؤسسات الإعلامية. ونتيجة لكل ذلك فإن محطات الإذاعة والتليفزيون التي ترعاها حكومة الولايات المتحدة تفقد مصداقيتها منذ البداية.

وتشرف هيئة محافظي الإذاعة على البرامج التي يبثها راديو فاردا والذي يبث إذاعته بالعربية. وفي عام 2004 أطلقت هيئة الإذاعة البريطانية محطة فضاء عربية تسمى "الحرة"، وقياسًا بالمعايير الدبلوماسية العامة الأمريكية وهي "استمع، افهم، قدم معلومات، التزم، أثّر"، فإن النتائج المتمخضة عن إطلاق هذه المحطة مخيبة للآمال على الرغم من ملايين الدولارات التي خصصت لمحطات الإذاعة والتليفزيون. لقد عانت هذه العمليات الثلاث من غياب الإدارة الخلاقة المهنية الواقعية ومن ثم فلا بد من خضوعها لمراجعة منتظمة موضوعية مهنية وذلك بالنسبة للبرامج المقدمة والعمليات الأخرى. كما يتوجب التركيز بوجه خاص على سياسات التوظيف في هذه المحطات. ولكل هذه الأسباب نستطيع أن نشيد بنجاح محطة الجزيرة في المنطقة وذلك لقدرتها على توظيف خليط من المتحدثين العرب من كل أنحاء العالم العربي.

ولقد ذكر رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط، وهي إحدى الجرائد المهمة في العالم العربي، في تعليق له على قناة الحرة: " كنا نتوقع محطة تليفزيون أمريكية مثل CBC وبرنامج 60 دقيقة و ABC خط الليل أو برنامج "واجه الصحافة" الذي تبثه NBC، لكن عوضًا عن ذلك جاؤوا بمحطة تليفزيون على غرار محطات التليفزيون اللبنانية أثناء الحرب الأهلية".

وتواجه قناة الحرة مشكلة أخرى تكمن في مواجهتها للمنافسة في ميدان مشبع بشبكات الإذاعة والتليفزيون التي تبث الأخبار بالعربية. فهناك ما يقارب 170 قناة فضائية تغمر المنطقة وتبث الأنباء باستثناء الجزيرة والعربية و40 محطة أخرى تمتلكها دول الخليج ووكلائها؛ أما بقية المحطات فهي فقيرة التمويل وتعتمد على برامج الأحاديث والمصادر الأخرى الرخيصة للتليفزيون. والشكل المعهود والأكثر شيوعاً على هذه المحطات هو ظهور الدعاة الذين يقومون بالدعوة إلى الالتزام بالدين علاوة على إذاعة الصلوات التي تصاحبها الخطب الدينية التي تدعو إلى كراهية الأجانب واستبعاد غير المسلمين وكلها برامج لشغل وقت المشاهدين. وفي بعض الأحيان تتجه مثل هذه المحطات إلى إعادة بث مواد من قناة الجزيرة والعربية أو المسلسلات المصرية. فهم يريدون التنوع في إنشاء القنوات وبث ما تريد بثه إلا أنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة برامج تليفزيونية جيدة. ومن ثم فإن المجموعة الاستشارية أوصت بإرساء أساس خاص للدبلوماسية العامة يهدف إلى إنتاج برامج ذات نوعية جيدة وتوفّرها لقنوات التليفزيون العربية بدون مقابل؛ وعليه فإذا قدمنا مثل هذه البرامج فإننا سنتمكن بسهولة من تشكيل الرسالة التي يراد توصيلها وخاصة في البلاد العربية الأقل غنى وثروة.

ولعل استراتيجية "إذاعة سوا" التي انطلقت عام 2002 لتحل محل برنامج صوت أمريكا بالعربية هو جذب شريحة كبيرة من الشباب من خلال الموسيقى الشعبية وإحاطة المستمعين بعد ذلك بسياسات الولايات المتحدة وقيمها ومصالحها وذلك أثناء فترات الاستراحة من بث الأخبار والبرامج الأخرى.

ولقد حققت هذه المبادرات النجاح في الوصول إلى جمهور عريض من المستمعين من خلال تقديم مزيج من الموسيقى العربية والغربية. ومع ذلك فإن راديو "سوا " في حاجة إلى دور يتعدى دوره لجمهور عريض. أما استراتيجية "سوا" التي تتمتع بها محطة الإذاعة البريطانية فلم تشر إلى تغيير الآراء أو تحسين الاتجاهات تجاه الولايات المتحدة كأهداف. وعوضًا عن ذلك فإن محطة الإذاعة البريطانية تقول إنّ راديو "سوا" يهدف إلى التغطية الشاملة لأهداف وأفعال الولايات المتحدة، وهذا عمل لم يرخص له أن يقوم به وجعل الجمهور ينخرط ويتفاعل مع الأحداث الأمر الذي يحقق فيه نجاحاً أكثر. ولكن لأي هدف؟ فهو يتوجب عليه أن يغير اتجاهات ومواقف المستمعين العرب تجاه الولايات المتحدة وذلك باتباعه الخطوط العريضة التي تتبعها استراتيجية الدبلوماسية العامة. وعلى أي حال فإنه يتوجب على راديو سوا أن يثبت أن استراتيجيته الحالية يمكنها أن تحقق هذا الهدف، وخاصة في وقت يواجه فيه تنافسًا كبيرًا ومتنامياً من القائمين على الإذاعات الأخرى الذين يتفهمون المنطقة ويستطيعون الاستجابة للأحداث وقضايا السياسة على وجه السرعة.

وبالنظر إلى الدور الهام الذي يمكن للإذاعة والتليفزيون أن يلعباه في الدول الإسلامية، فإن الإذاعة الدولية التي ترعاها الولايات المتحدة باستثناء إذاعة الأنباء يتوجب أن تقع تحت التوجيه الاستراتيجي للدبلوماسية العامة وسياسات وأهداف حكومة الولايات المتحدة كما يحددها الرئيس ووزير الخارجية ومساعد وزير الخارجية للدبلوماسية العامة.

هذا بالإضافة إلى المقولة التي تنادي بأن الفاعلية الأكبر التي يمكن أن تحدثها هذه الدبلوماسية تكمن في خلق مؤسسة للدبلوماسية العامة معفاة من الضرائب تدعمها الأموال التي يمكن أن تأتي من القطاعين العام والخاص والتي تمكّنها من الاستحواذ على برامج أمريكية ذات نوعية عالية والتي تقدم للقنوات التليفزيونية في الدول العربية والإسلامية بلا مقابل. وتسعى هذه المنظمة أيضًا إلى إيجاد منح تعطى للمنتجين ولقنوات الإعلام العربية والإسلامية لكي تمكّنها

من ابتداع برامج جيدة ونشرها في المنطقة. فمثل هذه المؤسسة يمكنها أن تكمل ما بدأته الإذاعات التي ترعاها الولايات المتحدة من أعمال؛ وعليه فلا يجب أن يُنظر إليها على أنها تحت سيطرة حكومة الولايات المتحدة. وفي رأيي الشخصي فإن هذا يعد أكثر الخيارات فعالية في هذا المجال.

صورة أمريكا

طبقًا للكثير من الاستطلاعات الأخيرة فإن العداء للولايات المتحدة والمواقف السلبية تجاهها قد وصلت إلى مستويات تثير الذعر والاشمئزاز. فطبقًا لاستطلاع رأي تم عام 2005 و2006 تبين أن الدعم الذي تلقاه الولايات المتحدة من المسلمين والعرب قد انهار كليًا. ولهذا السبب يتوجب إعطاء الأولوية الكبرى للدبلوماسية العامة. وما يتوجب فعله كما أشرنا في تقرير المجموعة الاستشارية هو تغيير استراتيجي جذري لدبلوماسيتنا العامة وعملياتها وليس فقط التكيف التكتيكي؛ فغيابنا عن الساحة أمر كارثي إذ لا يمكننا بسببه أن نقوم بشرح ما يتوجب شرحه وتوضيح ما يتوجب توضيحه من القيم والسياسات الأمريكية ومضمون هذه القيم ومحتواها.

ففي المغرب على سبيل المثال قيل لمجموعتنا الاستشارية: "إذا لم تقوموا بتعريف أنفسكم في هذا الجزء من العالم فإن المتطرفين سيقومون بتعريفكم". وفي الواقع نجد أن هؤلاء المتطرفين يعرّفوننا بأننا فاعلين سلبيين في سياق الصراع العربي الإسرائيلي وكمحتلّين انعدمت من قلوبهم الرحمة واتسموا بالقسوة في العراق وكمتعصّبين تجاه المسلمين وحتى المسلمين الأمريكيين. فكل هذه الصفات ذات طابع عام وتنتشر على نطاق واسع في المنطقة، وذلك لغياب من يستطيع التحدث باسمنا وبالنيابة عنا ويقف إلى جانبنا عدا قلّة يمكنها التحدث عنا، وذلك لأننا حرمنا أنفسنا من كل وسائل الرد والاستجابة لما يثار حولنا من أقاويل يصدقها معظم من كانوا يتعاطفون معنا ومع قيمنا في الماضي.

ولقد طرحت على أحد أعضاء الفريق الاستشاري الذي سافر إلى المغرب السؤال التالي: ما هو أسوأ كابوس رأيته هناك؟ وكانت إجابتها مقتضبة إذ قالت: إنّ الكابوس الأسوأ كان الأحياء الفقيرة في الدار البيضاء حيث لا تتوفر المياه والمراحيض المزودة بأسباب النظافة، إلا أنها في نفس الوقت تتسم بظاهرة انتشار الأقمار الاصطناعية التي يتميز بها أسلوب الحياة في الغرب، هذا علاوة على الإذاعات اليومية ومحطات الفضائيات المعادية لأمريكا والمتناقضات الأخرى الكثيرة التي تمثل كل المشاكل التي نواجهها؛ إنه حقًا لموقف خطر يداهمنا.

ومن ثم فإذا أردنا كسب الحرب على التطرف والمتطرفين فيتوجب علينا أن نضيف إلى سياستنا ما يمكننا أن نقوم به في مجال الدبلوماسية العامة. فالدبلوماسية العامة الفعالة تتطلب توجيهًا يبدأ من الرئيس. فعندما يقول الرئيس "إن هذا مجال يجب أن تتفوق أمريكا فيه على عداها من الدول"، فهذا يعنى أنه يتوجب علينا ترجمة الكلمات إلى أفعال. ففي كتاب "تغيير الآراء وكسب السلام" أشرنا إلى أن أمريكا لم تتفوق في صراع الأفكار في العالم العربي والإسلامي، وأن المواقف تجاه الولايات المتحدة بدأت تتحول من السيئ إلى الأسوأ؛ فالعداء تجاه الولايات المتحدة وصل إلى مستويات مثيرة للذعر والاشمئزاز، فنحن نواجه معركة كبيرة إلا أنني أعتقد أنه ما زال يمكننا القيام بالكثير وتحقيق أهدافنا إذا ما استجمعنا الشجاعة الكافية والإرادة السياسية الضرورية وقمنا بالخطوات الضرورية.

إن التعريف المعزز للدبلوماسية العامة يتوجب أن يكون على النحو التالي: أنصت أولاً وافهم ما يمكن فهمه ثم قم بتقديم المعلومة وتعريف جمهورك على ما يجري، ثم استخدم مهاراتك في التأثير على هذا الجمهور. لقد أكدنا من قبل على أهمية هذه المقولة، إذ إنها طريقة العمل التي يجب اتباعها في مجال الدبلوماسية العامة، ويتوجب أن تكون هدفًا أساسيًا من أهداف الإدارة الأمريكية أن نقوم بما يجب القيام به في ظل وضوح للهدف والرؤية.

هذا علاوة على أن وجهة استراتيجية الدبلوماسية العامة يجب أن تبنى على أسس واضحة تتضمن شرح سياساتنا وتوضيح قيمنا للآخرين. فالغالبية العظمى من البشر في العالم الإسلامي والعربي تعتبر أن قيمنا الأساسية في الحياة والحرية والمساواة أمام القانون وتكافؤ الفرص والمشاركة السياسية وحقوق الإنسان هي قيم يجب الاقتداء بها، كما أنهم يكنون الاحترام لمنجزاتنا الاقتصادية والتعليمية والعلمية والثقافية. أما الخلافات فلا تعدوُ أن تكون خلافات حول سياسات معينة؛ ففي العالم العربي وفي معظم الدول الإسلامية نجد أن التصورات حول الولايات المتحدة تتشكل من خلال ثلاثة منشورات رئيسية:

1. الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين.
2. العراق.
3. القضايا العريضة للحكم السياسي والاقتصادي.

وببساطة فهم ينظرون إلينا على أننا منحازون لإسرائيل وكمحتلّين للعراق وكمنافقين بالنسبة لقيمنا في قضية دعمنا للأنظمة الأوتوقراطية ولردود فعلنا بالنسبة للانتخابات عندما تكون النتائج مخالفة لإرادتنا كما حصل عند نجاح حماس في انتخابات عام 2006. فنحن غالبًا ما نسمع الشكوى التي تتردد دومًا "إنها السياسة أيها الغبي، وليست الدبلوماسية العامة"؛ إلا أن الحقيقة تتمثل في أن سياستنا تحدد على سبيل المثال 80% من كيفية تصور الناس لنا ومع ذلك يظل هناك نسبة 20% وهي التي تشكل جوهر وأسلوب تواصلنا مع الجمهور الأجنبي وإيصال المعلومات له وتعريفه بقيمنا وسياساتنا.

وكجزء من دعمنا العالمي للديمقراطية نجد أن الولايات المتحدة غالبًا ما تدعم الأنظمة في العالم العربي الإسلامي المعادية لقيمنا ولكن التي يمكن على المدى القصير أن تعظم من بعض سياساتنا. فالكثير من العرب والمسلمين يعتقدون أن هذا التأييد يشير إلى أننا مصممون على حرمانهم من الحرية

والتمثيل السياسي. وغالبًا ما يعكس هذا الاعتقاد خوفنا بأن المستفيد الأول من العالم العربي والإسلامي هم المتطرفون وخاصة المسلمون الأصوليون. إن التناقضات تلاحقنا من كل مكان من جراء سياساتنا الرسمية ودبلوماسيتنا العامة، ومن ثم فإن الدبلوماسية العامة يمكن أن توفر السبيل لشرح وتوضيح قيمنا العريضة وأهدافنا على المدى الطويل والمتعلقة بالإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تستجيب إلى الحاجات الأساسية للشعوب في هذه المنطقة والتي يمكن أن تساعد في تهميش الإسلاميين الأصوليين والمتطرفين الآخرين.

إعادة تقييم أهداف سياسة الولايات المتحدة الأمريكية

يتوجب علينا أن نكون إيجابيين وحريصين ونضع الإطار الاستراتيجي الأكبر لأهداف سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، وهذه الأهداف يمكن أن تتضمن ما يلي:

- التسوية السلمية للصراع العربي الإسرائيلي، ومسألة كشمير، والصحراء الغربية.
- السلام والأمن والتنمية الاقتصادية في كل من العراق وأفغانستان.
- الاستقرار والتطور الديمقراطي في باكستان.
- محاربة الإرهاب.
- التعاون الأمني الإقليمي.
- أمن الطاقة العالمي.
- إدارة ومنع الانتشار النووي وأسلحة الدمار الشامل.
- أنظمة حرة ومنفتحة وممثلة للشعوب وتتسم بالتسامح الذي يؤدي إلى نشر الديمقراطية.

- النمو الاقتصادي من خلال اقتصاد السوق الحرة والتجارة الحرة والاستثمار.
- أنظمة تعليمية يمكن أن تعمل على إعداد الطالب للمشاركة بطريقة بنّاءة في المجتمع المدني والسوق العالمية.
- صحافة حرة مع إعلام عام وخاص يقدم المعلومات والمعارف والإعلام والتسلية.
- المشاركة الكاملة للنساء والأقليات في المجتمع.
- حقوق الإنسان.

هذه العناصر كلها تشكل إطار السياسة وقيم التوجيه الاستراتيجي للسياسة العامة في المنطقة. ويتوجب علينا الإفصاح عن هذه الأهداف بوضوح وصراحة أكبر للعالم العربي والإسلامي بمنحى خاص يتناسب وظروف كل بلد في العالم العربي والإسلامي مع مراعاة الجماهير المختلفة في شتى البلاد. ويجب علينا التأكيد على الأرضية المشتركة بين قيمنا وسياستنا وقيمهم وسياساتهم. هذه هي الصيغة المثلى لدبلوماسية عامة فعالة ومؤثرة يمكن تطبيقها.

الفصل الحادي عشر

التحدي الاستراتيجي في قوس الأزمات

في عام 1993 استضاف بيل كلينتون العاهل الأردني الملك حسين في البيت الأبيض، وناقشا معًا القضية البوسنية بالإضافة إلى قضايا الشرق الأوسط. وبينما كنت مصاحبًا للرئيس أثناء عودتنا من حفل توديع الملك، أبدى ملاحظته لي معلقًا بالقول إن الأوروبيين بدلاً من خلق كيان بوسني متعدد الأعراق في قلب أوروبا كفرصة لبناء جسر تتحقق به المساواة بين الأعراق أمام القانون ويكون حلقة وصل بالعالم الإسلامي، كانوا ينظرون إلى البوسنة بمثابة تهديد إسلامي داخل القارة الأوروبية. وسألت الرئيس ما إذا كان يرغب في أن أرسل له بعض التوصيات المتعلقة بالسياسة ليلاحق هذه الملاحظة التي تتسم بالتبصر الرائع، فوافق، وأرسلنا إليه التوصيات التي طلبها. ولسوء الحظ بينما كانت الأحداث تتطور، ضاعت الفرصة بدرجة كبيرة إذ إن الحاجة لبناء جسور أصبحت أكثر إلحاحًا من ذي قبل.

وبينما كنا نتقبل الإسلام كواحد من الديانات العظيمة والذي يتسم برسالة التسامح والاعتراف "بأهل الكتاب" (اليهود والمسيحيين والمسلمين) فإنه يتوجب على سياسة الولايات المتحدة التفرقة في الكلمة والعمل بين الاتجاه السائد في الإسلام من جهة والمسلمين من أفراد وجماعات وأنظمة تعادي الولايات المتحدة وتعمل ضد مصالحها بتأييدها للإرهاب والعنف والقهر والسعي وراء الحكم السلطوي الديكتاتوري وفرضه على الآخر من جهة أخرى.

وبسبب الدور التاريخي فإن العديد من دول الشرق الأوسط سيكون لها تأثير كبير على الاتجاه الذي يسلكه صراع الأفكار في العالم الإسلامي والعربي. إذ يجب النظر إليها بوصفها جسورًا محتملة لمستقبل الإسلام في عموم منطقة الشرق الأوسط ووسط آسيا وما وراءها على أمل أن تكون هذه الأنظمة بمثابة قوى إيجابية للإسلام المعتدل فيما وراء حدود بلادهم. ومن الدول التي تتسم بالاعتدال نجد الدولة التركية بنموذجها العلماني لمجتمعها الإسلامي وبتواصلها القوي مع الدول التي تتحدث بالتركية في آسيا الوسطى، ويلي تركيا الدولة المصرية والتي تشهد نقاشًا وجدلاً بين المفكرين المعتدلين الإسلاميين وفرقائهم الأصوليين، علاوة على كونها موطنًا لجامعة الأزهر التي تعد أعظم الجامعات الإسلامية، وأخيرًا المملكة العربية السعودية بمواردها البترولية الهائلة وبدورها كحامية لأقدس الأماكن في الإسلام (مكة والمدينة)، ودول فاعلة أخرى مثل ماليزيا وإندونيسيا وهي أكبر الدول الإسلامية في كثافتها السكانية وموطنًا لحركة إسلامية إحيائية. وهناك ما يشير إلى بوادر إيجابية؛ ففي ختام مؤتمر وزراء الداخلية العرب الذي انعقد عام 1995 أكد الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي على ضرورة العمل الجماعي لمحاربة الإرهاب وتحييد الميل إلى ربط الإرهاب والتطرف بالإسلام، وقال إن "الإسلام دين السلام والمحبة والأمان" ثم أضاف إنه من الخطأ استغلال الإسلام ليحقق أهدافًا سياسية؛ فبدلاً من تطويع الإسلام لخدمة رغبات مجموعات أو أفراد يتوجب على المسلمين

والمنظمات والجمعيات أو الحكومات أن تعمل على خدمة الإسلام وتسليط الضوء على وجه الإسلام الشريف.

ونحن في الولايات المتحدة نريد أن نتقدم إلى الأمام بواقعية وبدون أي أوهام كبيرة. وسنجد في دول المنطقة شخصيات دينية تعبر عن تعددية الآراء ما بين معتدل وأصولي، وعلى كل دولة التعامل مع المشاكل الداخلية للحركات والجماعات الإسلامية.

وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي بفترة قصيرة تنبأت الحكمة التقليدية بصراع بين كل من تركيا وإيران في لعبة كبيرة يحاول كل طرف فيها كسب قلوب وعقول المسلمين في وسط آسيا. وفي الواقع لم تستطع أي من الدولتين ممارسة أي نفوذ على المنطقة، وذلك نظرًا لتعقد العوامل الوطنية والثقافية والدينية والاقتصادية. وحتى إيران التي استقوت بحربها مع العراق وبالإطاحة بنظام الحكم الصدامي عام 2003 لتوسيع نفوذها مع الجماعات السياسية والدينية في العراق، ستكون مقيدة في تواصلها الجغرافي والسياسي في العالم العربي بنفس هذه العوامل.

وحتى الحكومات الأوروبية على الرغم من معرفتها التاريخية وتعاملها المباشر مع منطقة الشرق الأوسط، فقد أثبتت قلة تبصرها وقصر نظرها في التعامل مع الإسلام في مجتمعاتها الخاصة. ولقد كانت المتطلبات الاقتصادية والأمنية للأعداد الكبيرة من السكان المهاجرين المسلمين في دولهم على الرغم من أهميتها الواضحة في الحسابات السياسية الداخلية، إلا أنها هيمنت على عملية صنع القرار، ومن ثم أعاقت التركيز على الحاجة إلى منحى أو مسلك أكثر شمولية. وإني على اعتقاد بأن أحد الفروقات الهامة بين الخبرات الأمريكية والأوروبية فيما يتعلق بالسكان المهاجرين يكمن في أن النموذج الأمريكي مبني على مبدأ الاستيعاب، بينما النموذج الأوروبي يرتكز أكثر على مبدأ المساواة أمام القانون مع التفرقة والتمييز الاجتماعي الذي يقودنا إلى عقليات الغيتو والقوقعة

التي تتسم بها الجماعات المهاجرة بالترافق مع العنف الذي نراه في السنوات الأخيرة متمثلاً في المظاهرات وأعمال الشغب التي يقوم بها الشباب المسلم في فرنسا.

تعزيز الديمقراطية

وعلى الرغم من القوة التي تتمتع بها الولايات المتحدة إلا أنها مقيدة في قدرتها على تشكيل التطورات في المنطقة. ولعل العمل العسكري الذي قامت به لقلب نظام الحكم الصدامي عام 2003 خير مثال على الصعوبات المتضمنة في محاولة نشر الديمقراطية بالقوة. وكانت أعباء احتلال العراق الكبيرة قد امتدت لتشمل موت آلاف الجنود وضياع أموال دافعي الضرائب. وعوضًا عن اللجوء إلى القوة العسكرية لتعزيز الديمقراطية، كان من الأفضل للولايات المتحدة أن تواصل سياسة استمالة وإقناع الحكومات وحثها على العمل بنشاط مع جماعات وأحزاب في العالم العربي والإسلامي للتواصل مع مجتمعاتها في مسعى لتوسيع المشاركات الحكومية وبناء المؤسسات والمجتمع المدني واقتصاديات السوق بالسرعة التي تتناسب وظروف هذه المجتمعات. فبينما نسعى نحن إلى تدعيم الحكومات التمثيلية، وحكم القانون، وحقوق الإنسان، واقتصاديات السوق باعتبارها المقاربة الأكثر فعالية للتقليل من الظلم الاجتماعي الذي يسبب التطرف والإرهاب، يجب أن نتنبّه لكل التعقيدات المحتملة.

إلا أن هناك بعض أجزاء من العالم تنظر إلى عملية التحديث الغربية بنوع من الشكوك وحتى العدائية، وخاصة في أوساط المتطرفين الإسلاميين الذين يعتقدون أن هذه العملية مختلفة عن ثقافتهم ومعتقداتهم. وفي الواقع، فإنّ فرض الأفكار العلمانية يمكن أن يؤدي إلى المقاومة، ويظهر ذلك فيما نراه في تركيا الحديثة اليوم والتي تتأصل فيها التقاليد العلمانية القوية التي أرساها كمال أتاتورك في العشرينيات. فهذه الأفكار المضادة للحداثة ظاهرة شائعة بين الأفراد

والجماعات والطبقات الاجتماعية والمنظمات التي لا تشارك في عملية التحديث والذين يرون أنفسهم كضحايا. وتعد هذه أرضًا خصبة لتقديم التطرف والإرهاب.

ويستغل الجهاديون الإسلاميون هذه المواقف في مساعيهم للإستيلاء على السلطة السياسية في الدول الإسلامية وتأسيس نظام إسلامي عمادة الشريعة الإسلامية. وأي مجهود يبذل لإطلاق ودعم برامج الحداثة يجب أن يضمن أنّ ثمار نتائج برامج الحداثة وإصلاحات السوق والتطوير الاقتصادي والاجتماعي سيستفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس.

وكأمريكيين، فإنه يمكننا أن نفخر بالمبادئ التي بنيت عليها دولتنا التي صمدت للتحديات أكثر من قرنين من الزمان وقاومتها. ولأننا ندرك أن هذه المبادئ ستنجح فإننا ملتزمون بالاستمرار في تحسين خبراتنا في الديمقراطية وتشجيع انفتاح أكبر حتى تستجيب الأنظمة السياسية في جميع أنحاء العالم. إلا أنه يتوجب علينا ألا نحاول فرض نموذج أمريكي على الآخرين، فلكل دولة تقاليدها الخاصة وتاريخها وظروفها الداخلية، ومن ثم فعليها استنباط الكيفية التي بها تتمكن من توسيع مشاركتها السياسية وبالسرعة التي تناسبها.

نحن في حاجة إلى إجراء حوار سياسي حقيقي مع الحكومات والشعوب والأحزاب والمؤسسات التي تمثل تلك الشعوب مقرونة بالسياسات الاقتصادية القابلة للتطبيق والتي تستفيد منها قطاعات كبيرة من السكان المعنيين ودعم عملية إيجاد وظائف وتنمية الطبقات الوسطى. ويتوجب على الولايات المتحدة أن تكيف مسلكها تجاه كل دولة مع مراعاة الاختلافات والفروقات بين الدول.

إنزال نموذج جيفرسون الديمقراطي على رمال الجزيرة العربية

نحن في حاجة إلى أن نبدي للعيان حساسية ثقافية أكبر للمجتمعات التي نتعامل معها قياسًا بالأسلوب الذي كنا نتبعه في الماضي، كما يتوجب علينا ألا نباشر

سياسات وهمية خاطئة تعتمد على تجميع الدول والمجتمعات بدون تمييز والنظر إليهم من منطلق أفكارنا وآرائنا وخيالاتنا الخاصة. ويجب علينا بوجه خاص أن نؤيد وندافع عن قيمنا وتمسكنا بمبدأ الديمقراطية، ونسلك مسالك تتوافق وهذه المبادئ، ولا نحاول البتة أن نفرض نماذجنا الغربية على مجتمعات تقليدية بطبعها وتعتمد على الشورى في إدارة أمورها؛ ومن ثم فإنه لا يمكننا إنزال نموذج جيفرسون بالمظلّة على رمال الجزيرة العربية.

ففي التسعينيات تقدمت باقتراح يرمي إلى حث السعوديين على مبدأ توسيع مجلس الشورى المعين والمحدود وذلك بجعله أكثر تمثيلاً للجماهير العريضة والعمل على جعله مجلسًا يُنتخب. والآن نجد أن الملك عبد الله يتحرك في هذا الاتجاه ولو بحذر شديد مع الأخذ في الاعتبار معارضة بعض الجماعات للإصلاحات الانتخابية. والقادة السعوديون يناقشون مسألة انتخاب نواب لمجلس الشورى إلا أنه يبدو أن هذه قفزة كبيرة إلى الأمام. والحلول الوسطى في هذا السياق توفر الظروف لانتخابات محلية لنصف أعضاء المجالس البلدية باستثناء الهيئات العليا. ومن ثم فبدون محاولة فرض إرادتها فإن الولايات المتحدة يمكنها تشجيع الاتجاه نحو الحكومة النيابية إلا أنها لا يمكنها مطالبة السعوديين بذلك.

وفي المجال الاقتصادي، فقد كان لفشل نماذج الدولة الاشتراكية الأثر الكبير في جعل مزايا نظام السوق الحرّة واقتصاد القطاع الخاص تبدو واضحة للعيان مع دور الدولة الضروري في توفير شبكات الأمان الاجتماعي وبالأخصّ للفقراء. على الولايات المتحدة وشركائها الدوليين والدول الثماني أن تتبنى دورًا أكثر حزمًا في تشجيع حكومات المنطقة للبدء في إصلاحات السوق وديمومتها، علاوة على شن حملات ضدّ الفساد وخاصة في تلك الدول التي ما زالت الأنظمة القديمة البالية والمبنية على سيطرة الدولة على كل القطاعات تسلبها القدرة والفاعلية على التحرك قدماً. إلا أنه في محاولتنا لمساعدة تلك الدول يجب علينا تبنّي مسلك يتناسب مع ظروفها الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية، إذ إن من الأمور ذات الأهمية البالغة مراعاة كل هذه السياقات. على سبيل المثال نجد

أن دولاً مثل الجزائر وسوريا وميراثها للنماذج الاشتراكية الاقتصادية تتناقض بحدة مع التقدم الديناميكي لدول الخليج في سعيها لإنشاء مراكز تجارية واستثمارية تمامًا. ومن ثم فهي في طريقها للنمو والارتقاء بأساليب مختلفة وخطى مختلفة تمامًا. إلا أن الشائع في معظم هذه المجتمعات وباء الفساد الشامل والفوارق الكبيرة في المدخول والثروة، وكلاهما يتضمن بذور عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الأمر الذي يشجع على نمو حركات التطرف.

الطريق نحو السلام

أثناء فترة الاستعداد للحرب في العراق كان بعض المحافظين الجدد يرى أن الطريق إلى السلام العربي الإسرائيلي لا يمر عبر القدس وإنما عبر بغداد وطهران، وأن قلب هذه الأنظمة سيؤدي إلى موجة من فرض الديمقراطية في عموم منطقة الشرق الأوسط الأمر الذي سيعمل على تحريك وتسهيل عملية السلام في المنطقة. إلا أن هذا التوجه قد أثبتت الأحداث خطأه. إذ يتوجب على صانعي السياسة أن يدركوا أن الصراع العربي الإسرائيلي وخاصة قضية فلسطين ستظل لب قضية المنطقة بأكملها مع ما ينطوي على ذلك من مضامين في عموم العالم الإسلامي؛ والواقع أنّ حسم هذا الصراع سيساعد كثيرًا على استقرار المنطقة ويعمل على نزع فتيل التفجر الحالي للمشاعر المعادية للولايات المتحدة في أوساط المسلمين ويعمل أيضاً على تحييد نفوذ الجماعات الإسلامية والجهادية وخاصة في المشرق. ولقد ظل هذا الصراع يشكل عاملاً مهمًا في بلورة مواقف واتجاهات العرب والمسلمين تجاه الولايات المتحدة والغرب، كما ساعد على إثارة مشاعر الذل والمهانة للكثير من العرب الذين أثقلتهم إحباطات العديد منهم جراء فشلهم في المشاركة السياسية وحرمانهم من المكاسب والفرص الاقتصادية وحقوقهم في التعلم وحقوق الإنسان.

ولقد رأينا ذلك متمثلاً في دكتاتور العراق صدام حسين الذي التف بعباءة الإسلام أثناء حرب الخليج الأولى عام 1991 وهاجم إسرائيل ومؤيديها من

الغرب. كما رأينا رجال الدين في إيران في ظل النظام الإسلامي يترجمون مواقفهم الحادة ضد إسرائيل والغرب إلى دعم نشيط للإرهاب والعنف الذي تتسم به جماعات مثل حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي. ففي ظل هذا السياق يتوجب على الولايات المتحدة الانخراط بشكل كامل وفعال وتسريع مجهوداتها للتحرك نحو السلام. ويبدو أن مفاوضات السلام في سباق محموم مع الإرهاب الذي يعمل على تآكل الدعم الإسرائيلي لعملية السلام ومحادثات السلام الذي تتحدث عنه دومًا الدولة العبرية كواحد من الأعذار الذي تتعلل به للهروب من المفاوضات مع الفلسطينيين. وعلى الدبلوماسية ألا تسمح للإرهابيين بنسف مجهودات السلام وعليه فإن الرئيس ووزير الخارجية يتمتعان بدور أساسي عليهما الاضطلاع به مع الاستفادة من وضعيتهما ونفوذهما كمشاركين ومتحدثين ووسطاء بين العرب والإسرائيليين. ولكي تتحقق الفرص للسلام يتوجب على القادة في أعلى المستويات الانخراط بفاعلية ونشاط وثبات للانتهاء من هذه المفاوضات وحسم القضايا الرئيسية الخلافية بين الطرفين. الطريق إلى السلام في هذه المنطقة لا يعبر بغداد وطهران بل يمرّ عبر القدس ودمشق وبيروت.

ويتوجب علينا الانتقال من إدارة الصراع إلى حسم لهذا الصراع المرير. فالكثير من ملامح التسوية النهائية وقضاياها المعقدة قد سبق مناقشتها بين الأطراف المعنية على المسار الإسرائيلي الفلسطيني والإسرائيلي السوري والإسرائيلي اللبناني كل في مساره المعهود. وما نحتاجه الآن هو الإرادة السياسية والشجاعة التي تساعد على الوصول بهذه المفاوضات إلى نهايتها؛ فالتسوية الشاملة للصراع العربي الإسرائيلي على كل الجبهات أمر ممكن بين العرب والإسرائيليين على الرغم من نكسات الأعوام الأخيرة؛ فالطريق إلى السلام واضحة وكل ما ينقصنا هو العزم للقيام برحلة السلام.

الدين والثقافة والسياسة

لعل إحدى الهفوات الهامة التي سقط فيها صانعو السياسة عند صياغتهم للخطوط العريضة لهذه السياسة وخاصة بعد فترة ما يعرف بالحرب الباردة، تكمن في الاستخفاف بدور الدين والثقافة في الشؤون الداخلية والخارجية. ومن ثم علينا تعزيز خططنا الاقتصادية والسياسية والأمنية بفهم كبير للعوامل الدينية والثقافية في إدارة شؤون الدولة والحكم. وهذا يعني إعادة تنظيم وتوجيه مؤسساتنا الأمنية القومية للاستحواذ على الخبرة الضرورية في اللغات الأجنبية والدراسات الإقليمية والثقافة والدين. لقد افتقدنا الكثير من قدرتنا البشرية على الفهم ومن ثم فإننا في حاجة إلى إعادة هيكلة كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية ومنظماتنا الاستخباراتية وذلك في مسعى لسد الفجوة.

ويجب علينا دعم الحوار بين الجماعات الدينية المختلفة، فمن الواضح أن تعزيز المناقشات والحوارات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين والهندوس يساعدنا كثيرًا على التعرف إلى مجالات الاتفاق والأرضيات المشتركة؛ إنني لا أدعو إلى الحوار من أجل الحوار إلا أنه من الأمور الأكثر صعوبة أن نسد الثغرة في معلوماتنا عن "الآخر" من دون مناقشته.

فالكثير من الدبلوماسية في السنوات الأخيرة قد عانت من تجاهل ما يسميه مارتن بوبر "خطاب أنا وأنت"، إذ إن معرفة الآخر أمر ضروري في مسيرة الدبلوماسية الناجحة. فالتحاور والتناظر يعززان من السلام والتفاهم في منطقة الشرق الأوسط. فنجد مثلاً أن المناقشات التي سبقت إرساء روابط دبلوماسية بين الفاتيكان وإسرائيل كانت بمثابة خطوة إلى الأمام في اتجاه تعزيز الحوار الديني بين المسيحية واليهودية. إننا نفتقد حواراً مماثلاً بين اليهود والمسلمين.

وبينما تتصدر الأعمال التدميرية التي يقوم بها الجهاديون عناوين الأنباء، إلا أننا في حاجة إلى إلقاء الضوء على الآراء والتطلعات السائدة في أوساط

المسلمين والعمل على دعمهم ومؤازرتهم، ويجب إيجاد جوّ سياسي لهؤلاء المسلمين للتعبير عن آرائهم. ففي عام 1995 أفتى كل من الشيخ ابن باز في السعودية والشيخ محمد سيد طنطاوي في مصر بأن للحكام العرب الحق في السعي للسلام مع اليهود. ولقد كان لهذه الفتوى صدى كبير إذ احتج شيوخ آخرون على هذه الفتوى وصرحوا بأن السلام مع اليهود غير ممكن في ظل الظروف السائدة؛ ومثل هذا النقاش سيستمر بلا شك خاصة وأن واحدًا من المحرمات قد كسر.

وفي داخل إسرائيل نفسها نجد أن دور الدين والأحزاب الدينية وثيق الصلة بالسلام العربي الإسرائيلي، ولقد شاهدت شخصيًا جهود رابين في أوائل التسعينيات في سعيه ليضم حزب شاس في حكومة ائتلاف، ومثل هذا العمل كان من الممكن أن يكون له تأثير هام على المفاوضات السورية الإسرائيلية. فحاخام مثل أوفيديا يوسف، وهو زعيم ديني، كان يدعو لقدسية الحياة ويراها أنها أفضل بكثير من قدسية الأرض. إن إدخال حزب شاس ضمن الائتلاف الحكومي كان يمكن أن يقوي يد رابين في أي مفاوضات للسلام مع سوريا، والتي كان من الممكن أن تشمل إعادة مرتفعات الجولان وتوفير الدعم الديني للرأي والموقف الذي ينادي بأهمية السلام التي تفوق ملكيّة الأرض.

وفي البلقان نجد أن حوارًا بين المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمين يمكن أن يساعد في خدمة قضية السلام، ويمكن لمنظمة المؤتمر الإسلامي وعصبة العالم الإسلامي أن يوسعا من برامجهما التعليمية ويبذلان جهوداً للمساعدة في حسم الخلافات العربية العربية والتواصل مع المنظمات والجماعات الدينية الأخرى وذلك لتعزيز ودعم الحوار بين الأديان. وفي جنوب شرق آسيا يتوجب أن تبذل جهود لتعزيز الحوار بين المسلمين والهندوس. وفي العام 2008، قام رئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بلير، بإطلاق مبادرة عالمية تهدف إلى تعزيز الحوار والعمل لمعالجة قضايا عالمية.

جسور وليست أسوارًا

قام أصحاب الديانات والعقائد السماوية بتقديم مساهماتهم في مناطق الصراع عندما فشلت كل السبل في هذا المجال؛ وهذه أمثلة عن هذه المساهمات:

- حركة إعادة التسلح الخلقي وجهودها لتعزيز المصالحة بين فرنسا وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية.
- جهود من جانب لجنة رجال الدين للطوارئ من أجل فييتنام ولجنة رجال الدين والعلمانيين والزمالة الكاثوليكية للسلام والمجلس القومي للكنائس ومجلس المعابد في أمريكا وغيرها من اللجان التي عارضت حرب فييتنام ودعت إلى إيقافها والمطالبة بدور أكبر للأمم المتحدة.
- احتجاجات الجماعات البروتستانتية واليهودية التي حشدت المعارضة الأمريكية للحكم العنصري في جنوب أفريقيا .
- دور المورافيين في التوصل إلى تصالح بين حكومة ساندينستا والهنود الميسكيتو في شرق نيكاراغوا في الثمانينيات .
- الكنيسة الكاثوليكية ودورها في الفيليبين أثناء ثورة 1986.
- كنائس ألمانيا الشرقية ودورها في تعزيز التبادل السلمي في سنوات البناء وحتى سقوط الاتحاد السوفياتي السابق.
- العمل المستمر والدؤوب لطائفة الكويكرز أثناء الحرب الأهلية في نيجيريا.
- الإسهامات الإيجابية التي قام بها رجال دين متعددون في عملية انتقال الحكم من جنوب روديسيا إلى زيمبابوي.

وبينما ظلت الخلافات الدينية سببًا أو عذرًا للصراعات والحروب إلا أن عمل الجماعات الدينية والأفراد كان له أثر في المساعدة على دعم تسوية

الخلافات. فبدلاً من بناء أسوار نحن في حاجة إلى بناء جسور؛ وفي الواقع فإن التحدي أمامنا يبرز وقت الصراعات العرقية والدينية والسياسية، وعلينا أن نقرر أو نحدد الكيفية التي بها يمكننا المحافظة على قيمنا وتطويرها وفي نفس الوقت نتعايش ونتفاعل مع قيم وثقافات الآخرين التي تمكننا من الاستمرار في طريقنا. يقول عالم الأجناس كيلفورد غيرتز: "لا تستطيع أن تفرض نفسك على الآخرين في العالم كما لو أنك تعيش بمفردك، لأن هذا ليس صراع أفكار. هناك أناس يؤمنون بهذه الأفكار، فإذا كنت تريد أن تعيش بمنأى عن العنف، عليك أن تدرك أن هناك آخرين مثلك".

الحاجة إلى التماسك والتلاحم

نحن في حاجة ماسة لمقاربة سياسية متماسكة حتى نتمكن من التصدي لصراع الأفكار في العالم الإسلامي. وإني على أمل أن تساعد الروايات الشخصية والتحاليل ومقترحات السياسة التي قدمتها في صفحات هذا الكتاب على تعزيز الفرص المتاحة للدبلوماسية الوقائية وقرارات حسم النزاعات وإنشاء المؤسسات الديمقراطية التمثيلية والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وحقوق الإنسان. فالعمل بإبداع وبذكاء في سياق قيمنا ومصالحنا يمكّن الولايات المتحدة من تعزيز مصالح أمنها القومي في هذا المنعطف التاريخي، وذلك من خلال مواصلة العمل بسياسات تساعد على تهميش قوى التطرف وتعزيز قوى الاعتدال في هذا الجزء الحيوي والهام من العالم.

كلمات شكر

لم يكن لهذا الكتاب أن يخرج إلى حيز الوجود بدون المساعدات القيمة التي قدمها معاوني وليم مارتن. وهو الأستاذ المتقاعد لعلم الاجتماع وزميل سابق في معهد بيكر للسياسة العامة في جامعة رايس، ويعد وليم كاتبًا مرموقًا في مجال تخصصه، كما أنه كاتب السير المعروف بعمله المتميز في ترجمته للاصطلاحات والأعراف الدبلوماسية إلى اللغة الإنجليزية السلسة، وقد ساعدني كثيرًا في كتابة هذا المخطوط وفقًا للتوجهات الدقيقة التي وضعها الناشر سيمون وشيستر. وعلى الرغم من المواعيد الأخيرة لإنجاز العمل والضغوط التي ولدتها إلا أننا لم ننل أي إجازات من الجامعة لكتابة هذا الكتاب، وقضينا الساعات المبكرة والمتأخرة علاوة على إجازات نهاية الأسبوع للانتهاء من كتابة هذا الكتاب. ولقد نجحنا في الحفاظ على حب الفكاهة والمزاح واكتسبنا صداقة متبادلة أعتز بها وأقدرها.

وأما بالنسبة لليسا كوين وهي مساعدتي، فهي تستحق الشكر الخاص والفضل الكبير، إذ إنها من البداية كانت تعتقد أن لدي معلومات هامة أريد أن أنقلها لعامة القراء، ومن ثم فلقد سعت سعيًا حثيثًا وبذلت جهدًا كبيرًا للتأكد من كتابة هذا الكتاب ونشره، وكان أسلوبها في هذا السعي يتسم بالمهارة والذكاء؛ فلقد شجعتني مرارًا وتكرارًا على مجهودي الذي كنت أبذله في غزوتي الأولى لعالم الكتابة، ومن ثم فإنني أشكر لها مهنيتها العالية وعنادها القوي لكي يخرج هذا الكتاب في أحسن صورة.

وأدين بالشكر أيضًا والعرفان لخبرة محرّر ونائب رئيس محرر سيمون

وشيستر التي تلمسها من خلال نصائحه واقتراحاته التي ساهمت كثيرًا في إدخال التحسينات الكبيرة على المخطوط الأصلي للكتاب والتي بفضلها أصبح الكتاب في متناول القراء العاديين. والحق يقال إنه من أكبر المناصرين والمدافعين عن كتابه، وكان فعالاً في إخراج هذا الكتاب إلى النور حتى يصل إلى قرائه.

وحيث إن هذا الكتاب في جزء منه قصة حياتي أثناء عملي وبعد خروجي إلى التقاعد، إلا أن الكثير من الذين كنت أعرفهم كان لهم دور كبير فيما فعلته وأنجزته وفيما فشلت في إنجازه. ولقد ساعدني كل من أبي وأمي وأقراني وسلّحوني بالقوة للتغلب على الصعاب، وأخص بالذكر أيضًا زوجتي وأطفالي وهؤلاء بالطبع كانوا مصدر إلهام حقيقي في حياتي وكانوا دومًا بجواري في الوطن وخارج حدود الوطن في رحلاتي العديدة. ولقد كانت زوجتي فرانسواز من أكثر الناس حكمة وولاء لي عندما كنت أعمل في السلك الدبلوماسي وخارجه، فلقد شجعتني دومًا على أن أقص قصتي ووفرت لي كل السبل والوسائل حتى أقوم على إنجاز هذا المشروع، كما أنها كانت من أكثر النقاد قسوة وساعدتني كثيرًا على أن يخرج الكتاب في أحسن صورة في الدقة والجوهر؛ وبالتالي، فأنا أهدي هذا الكتاب إلى زوجتي وأطفالي، كما أهديه إلى عائلات هؤلاء الذين عملوا معي في السلك الدبلوماسي، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين وسواء كانوا في الوطن أو خارجه، والذين كانوا يمثلون هذا الوطن في مواقع خطيرة ومواقف حادة.

ولقد كنت محظوظًا أثناء عملي بالسلك الدبلوماسي بلقاء معلم من المعلمين الأوائل ألا وهو فيليب حبيب، السفير الذي شجعني على الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، والذي علمني العمل بحرفية فائقة؛ كما أشكر مساعد وزير الخارجية جورج بول الذي تعلمت منه القيمة الجوهرية للتعبير عن الآراء المعارضة للسياسات التي تنتهجها وزارة الخارجية الأمريكية والحكومة الأمريكية وذلك بالرغم من المخاطر الكبيرة، كما أخص بالذكر جوزيف سيسكو، المساعد السابق لوزير الخارجية، الذي تعلمت منه كيفية تحقيق نتائج بناءة في خضم

البيروقراطية المعقدة، كما أخص بالذكر أيضًا كولن باول الذي تعلمت منه الكثير أثناء حكم ريغان وبوش.

ولقد كنت سعيدًا لمعرفتي هنري كيسنجر وجورج شولتز وجيمس بيكر وكان كل منهم له أثر كبير. فلقد تعلمت منهم الكثير، ولقد كان لاحتكاكي بجيمس بيكر الأثر الكبير في ازدياد الثقة بعملي وكفاءتي، علاوة على ثقته بي وخاصة أثناء الحرب الباردة. ولن أنسى دعوة بيكر لي ولزوجتي إلى هيوستن وذلك بمناسبة تأسيس معهد السياسة العامة التابع لجامعة رايس والذي حمل اسمه، ولقد أصبح هذا المعهد اليوم منبرًا مهمًا للسياسة، كما أصبح واحدًا من أهم المؤسسات البحثية عام 2008.

وأود أن أعبر عن امتناني العميق للزملاء في معهد بيكر وكل العاملين فيه لدعمهم المخلص عبر السنوات التي قضيتها معهم وذلك للجهد الكبير الذي بذلوه والمساعدات القيمة التي قدموها لي في إعداد هذا الكتاب. وأخيرًا أخص بالذكر كل زملائي الذين عملوا معي في وزارة الخارجية والذين خدموا الوطن بشجاعة في الداخل والخارج.

المؤلف في سطور

- دبلوماسي أمريكي ولد في نيويورك عام 1939.
- تخرج في جامعة جورج تاون عام 1960.
- خدم في الجيش الأمريكي في كوريا لعامين، ومسؤول القسم السياسي في سفارة الولايات المتحدة في موسكو (1979 ـ1981).
- نائب رئيس البعثة الأمريكية في الأردن (1981 ـ1984).
- سفير الولايات المتحدة في سوريا (1991 ـ1989).
- مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى (1991 ـ1993).
- سفير الولايات المتحدة في إسرائيل (1993 ـ1994).
- مدير معهد جيمس بيكر للسياسة العامة بجامعة رايس منذ آب/ أغسطس 1994 وحتى الآن.

في هذا الكتاب، يتناول إدوارد ب. دجيريجيان، وهو سفير أمريكي سابق رفيع الشأن إلى سوريا وإسرائيل، حقبة امتدت نحو أكثر من أربعين عاماً أمضاها في وزارة الخارجية الأمريكية والسلك الديبلوماسي كان له خلالها مساهمة فعَّالة في رسم السياسة العامة لبلاده. يقدِّم دجيريجيان رؤية نقديَّة فذَّة للاستراتيجيات الأمريكية الجديدة لمواجهة التحدِّيات المتنامية في العالمين العربي والإسلامي، وللديبلوماسية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

عندما وصل إدوارد ب. دجيريجيان إلى بيروت في أول مهمَّة له كموظف في وزارة الخارجية، كانت المدينة في أوج ازدهارها، وكانت تعكس نسيجاً متماسكاً لتنوّع فريد من المعتقدات الدينية والأفكار السياسية والأعراف الثقافية. لكن بعد أكثر من أربعين سنة على تلك المهمة الأولى، شهدت منطقة الشرق الأوسط تغيُّراً مهماً إزاء مواجهة عميقة الجذور بين قوى التفاعل والحداثة في المجتمعات المسلمة المتنامية بسرعة كبيرة. وقد فاقمت النزاعات التي لم تجد لها حلولاً في العراق وأفغانستان وكشمير وبين العرب والإسرائيليين حدّة المشاكل في مسائل التعليم والممارسة السياسية والتقدُّم الاقتصادي وحقوق الإنسان.

أراد دجيريجيان، وهو ديبلوماسي أمريكي خدم ثمانية رؤساء أمريكيين، ديموقراطيين وجمهوريين، بدءاً من جون ف. كينيدي وانتهاءً بويليام جيفرسون كلينتون، أن يوفِّر لجمهور القرَّاء فرصة مشاركته في التجارب التي مرَّ بها أثناء خدمته في الشرق الأوسط، بكل تفاصيلها الدقيقة وأحداثها العاصفة ونوادرها المسلِّية. ومن خلال منصبه الرفيع، طوّر علاقات مهنية وثيقة مع كثير من قادة المنطقة، وكان ناصحاً رئيسياً لقادة سياسيين ورسميين شغلوا أعلى المناصب. وساهم في رسم سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، وكان له دور فعَّال في مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية، وفي إطلاق الرهائن الأمريكيين في لبنان، وفي تشكيل تحالف بقيادة الولايات المتحدة لمناهضة غزو صدام حسين للكويت.

يؤكد دجيريجيان، وهو من طليعة الخبراء المتمرِّسين في شؤون الشرق الأوسط، أن التحدِّي الذي يواجه الأمريكيين اليوم هو من أخطر أنواع التحدِّيات وأكثرها

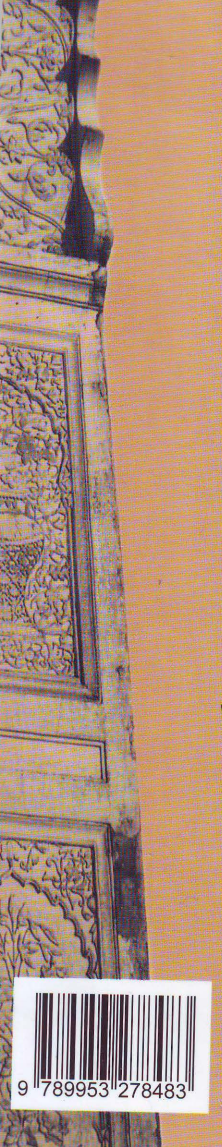
(تابع على الطية الخلفية للغلاف)

أهمية: صراع الأفكار بين قوى الاعتدال والتطرُّف في العالمين العربي والإسلامي. وقد أدَّى الافتراض المغلوط بأن الأيديولوجيات السياسية الراديكالية قد سقطت مع سقوط الشيوعية في نهاية الحرب الباردة، إلى أن وضع راسمو السياسة الأمريكية استراتيجيات قاصرة لتعزيز مصالح أمريكا السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية والأمنية في المنطقة وبقية أنحاء العالم.

في هذا الكتاب، يشرح دجيريجيان الأخطاء التي وقعت فيها السياسة الأمريكية ويقترح طريقاً لسياسات جديدة على الإدارات المقبلة. ويقول إن على الولايات المتحدة أن تتعلَّم كيفية التعامل مع الأمور الدينية والأثنية والثقافية المعقَّدة السائدة في الشرق الأوسط، وأن عليها ألاَّ تفرض نظامها السياسي على العالمَيْن العربي والإسلامي، وأنها تستطيع المساعدة في تهميش الراديكاليين وتخفيف تأثيرهم من خلال دعم التجربة الديموقراطية في الحياة بشكل يتناغم مع الإطار الثقافي لمجموعة القيم والمُثُل السائدة في المنطقة. يلخِّص دجيريجيان في كتابه الآسر المضيء – والوحيد الذي يتطرَّق إلى جميع المسائل التي يواجهها القادة الأمريكيون في الشرق الأوسط– استراتيجيات محدَّدة متجانسة وضرورية تعرف كيف تتعامل بشكل فعَّال مع خطر وشيك وفرصة دينامية يفرضهما الصراع القائم داخل العالم الإسلامي.



إضافة إلى منصبه كسفير للولايات المتحدة الأمريكية في سوريا وإسرائيل، شغل إدوارد ب. دجيريجيان منصب مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى في إدارتي بوش وكلينتون، وكان مساعداً خاصاً للرئيس رونالد ريغان ونائب وزير الإعلام للشؤون الخارجية. في العام 2003، ترأس مجموعة استشارية مشتركة بين الحزبين الجمهوري والديموقراطي للديبلوماسية العامة. وفي العام 2006، احتل منصب مستشار أول لمجموعة بيكر– هاملتون لدراسة أوضاع العراق. وهو المدير المؤسس لمعهد جيمس بيكر الثالث للسياسة العامة في جامعة رايس، حيث يتابع مشاركته في دراسة السياستين الداخلية والخارجية على السواء.



"يُعبِّر إدوارد دجيريجيان، أحد أبرز دبلوماسيي بلدنا وأكثرهم احتراماً، عن حاجة ضرورية إلى إنهاء الصراع العربي– الإسرائيلي نظراً لحجم القوى المتصارعة في العالم الإسلامي، وذلك بأسلوب بارع فيه كثير من القصص الشخصية الأخّاذة والتوصيات السياسية المتماسكة. إن هذا الكتاب يُثري فهمنا لإحدى أهم قضايا العصر الذي نعيش فيه".

– جيمي كارتر، الرئيس التاسع
والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية

"قليلون هم الأشخاص الذين يفهمون واقع الشرق الأوسط، أو لديهم خبرة فيه. إدوارد دجيريجيان هو أحد هؤلاء الأشخاص. كان دجيريجيان ساعدي الأيمن لشؤون المنطقة عندما شغلت منصب وزير الخارجية، ولعب دوراً رئيسياً في جعل مؤتمر مدريد للسلام أمراً ممكناً. كان الأمريكي الوحيد الذي خدم كسفير في كلٍّ من سوريا وإسرائيل. وقد حاك، ببراعة وخبرة فائقة، تجاربه الفريدة ومعرفته الواسعة وتحليله الذكي لتلك المنطقة المهمة جداً من العالم في كتاب ينير العقل والذهن. "الخطر والفرصة" كتاب من الضروري أن يقرأه كل إنسان".

– جيمس بيكر – III وزير خارجية
الولايات المتحدة الواحد والستون

9 789953 278483